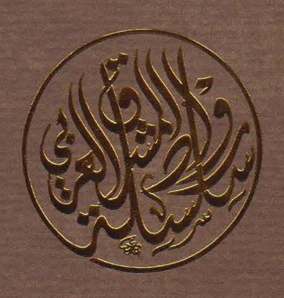


ستة أشهر في الحجاز

تأليف: جون فراير كين

(الحاج محمد أمين)

ترجمة: د. إنعام إيبش

مراجعة وتحرير: د. أحمد إيبش

روّاد المشرق العربي

ستة أشهر في الحجاز

رحلتان إلى مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة

في عام 1877 - 1878 م

للرحّالة البريطاني

جون فراير كين

(الحاج محمد أمين)

ترجمة

د. إنعام إيبش

مراجعة وتحرير

د. أحمد إيبش

© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية.
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

DS248.M4 K4312 2012

Keane ,John F. (John Fryer),1854-1937

[Six Months in the Hijaz journeys to Makkah and Madinah 1877-1878]

ستة أشهر في الحجاز : رحلتان إلى مكة المكرمة و المدينة المنورة في عام 1877-1878م / للرحالة البريطاني جون فراير كين (الحاج محمد أمين) ؛ ترجمة: إنعام إيبش ؛ مراجعة و تحرير: أحمد إيبش. ط. 1.- أبو ظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2012.

ص. ؛ سم.- (رواد المشرق العربي)

ترجمة كتاب : Six Months in the Hijaz journeys to Makkah and Madinah 1877-1878

تدمك : 978-9948-01-465-2

1. مكة مكرمة -- وصف ورحلات. 2. المدينة المنورة -- وصف ورحلات. 3. شبه الجزيرة العربية -- العادات والتقاليد. أ. إيبش، إنعام. ب. إيبش، أحمد. ج. العنوان. د. السلسلة.







الطبعة الأولى 1433هـ 2012م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380

publication@adach.ae
www.adach.ae

ستة أشهر في الحجاز

سلسلة

روّاد المشرق العربي

تقدّم «**هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة**» للمكتبة العربيّة بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، كتاباً جديداً من السّلسلة الثقافيّة التّراثيّة: «**روّاد المشرق العربي**». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنيّة، وذلك من خلال الحرص على جمع كافّة المصادر المتعلّقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشر التّراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسّساتنا الثقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التّراث ونشر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تُراثيّة عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشّعر، النّحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسة ورياضيّات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرّحلات.

وما دُمنا بصدد ذكر تُراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نوكّد على أنّ ثمّة تيّاراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تُراث العروبة، ألا وهو:

أدب رحلات الأوروپيين إلى مشـرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسـف لم يتمّ التّركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقّفي العربيّة ودارسـي تراثها وتاريخها الحضاري والسّياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلة آناباسيس لزينوفون الأثيني، ورحلة هيرودوتوس)، والرّومان (كرحلة إيليوس غالوس). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشـرقنا الإسـلامي في موجة الحمـلات الصّليبيّة، فمكثت فيه على الشّـريط السّاحلي لبلاد الشام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها ارتدّت على أعقابها.

فلمّا أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروپيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشائقة الشيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقُراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تقوم «هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة» اليوم بنشر نص جديد منه بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة

هذا الكتاب

جـون فراير توماس كيـن John Fryer Thomas Keane (1854 - 1937م) رحّالة ومغامر إيرلندي، كان أبوه من قساوسـة يوركشـاير، انطلق في أسـفار بحريّة عام 1877 ولم يكن له من العمر إلا 23 عاماً، فنال من المغامرات نصيباً كبيراً، وزار مكّة المكرّمة والمدينـة المنوّرة بيـن عامي 1877 - 1878 فكان واحداً من الأوروپيين القلائل الذين زاروا المدينتين المكرّمتين آنذاك.

يتضمّن كتابه «سـتّة أشـهر في الحجاز» *Six Months in Hijaz* جزأين هما: «سـتّة أشـهر فـي مكّـة» و«رحلتي إلـى المدينة» بمـا فيهما من أحـداث ومشـاهد ومغامرات أمضاها الكاتب في خلال إقامته في الحجاز.

وكملخّـصٍ عن حياة الكاتـب، فهو الابن الأكبر بين ثلاثة أبنـاء وابنتين للقسّ وليَم كيـن، وُلِد في مدينة «ويتبي» Whitby في إنكلترا في الرّابع من أكتوبر عام 1854، وقد طُرِد من المدرسة لتعدّد مرّات هروبه منها والتّجوّل في المدينة واستكشافها، وفي عمر الثانية عشرة خاض غمار البحر مع بعض الغموض حول ملابسات ذلك.

وفي عام 1883 ذكر جون كين أنّه كان يُبحِر ويتجوّل في البحار منذ سبعة عشر عاماً، وأنّه مع بداية سـنّ الرابعة عشـرة قـد أصبح ملمّاً ومعتاداً على كلّ مـا يتعلّق بالرّحلات البحريّة من مصاعب وأحداث وأهوال.

كما ذكر أنه سـافر من تركية إلى الإسـكندرية كراكب للمرّة الأولى فوصل إلى هناك في صيف 1877، ولم يذكر أسـباب سـفره. ويقول إنّه بعد بضع أسـابيع من مغادرته إسطنبول،

حصَـل علـى فرصة للحجّ إلى مكّة والمدينة ذاكراً أنـه كان يفكّر في ذلك مؤخراً وقد حضّر نفسـه وأصبح مؤهّلاً لذلك، إذ أنّه قد خدَم على متن سـفنٍ تحمل طاقماً مسـلماً، وبعد أيامٍ قليلة في جدّة، استطاع جون كين أن يلتحق بحاشية أمير هندي قد أتى لأداء الحجّ.

وبذلـك يكـون الكاتب قد أمّن لنفسـه صفةً كرجلٍ مسـلم يُتقِن اللغة الهندوسـتانية وينتمي إلى حاشية أمير هنديّ مسلم، ممّا أعطاه الصلاحيّة بالتنقّل والتجوّل بحريّة في مكّـة والمدينة. وعلى الرّغم من أنه يأتي كثيراً على أخبار هذا الأمير، ويذكر عمّه الذي قُتـل فـي أثناء الرّحلة على أيدي قطّاع الطرق، فلم يعمد إلى ذكر اسـمه على الإطلاق، دون أن يقدّم لذلك سبباً مقنعاً.

بقـي كين في مكّة المكرّمة لمدة سـتة أسـابيع، شـعر فيهـا كأنه في بلده تمامـاً كما لو أنه عاش هناك طوال حياته، وقال إنّ بشـرته الشـقراء لم تُثر تعليق الآخرين، وذلك لأنّ الزوّار كما قال من جنسـيات مختلفة جداً، كما لو كانوا شـخصيّات متحف مدام توسّو من الشّمع وقد خرجوا يمشون، حتى أنّ منظر رئيس أساقفة كانتربُري بقلنسوته وردائه كان ليضيع بين باق النّاس. تجوّل كين في أنحاء مكّة بحرّية، لكنه سرعان ما تعرّض لمشكلة عندما تجمهر حوله بعض الصّبية وراحوا يقذفونه بالحجارة، وكاد أمره يفتضح.

ولـم تنته مشـاكل كين عند هـذا الحدّ، فقد تعرّض لأزمة حقيقية أثناء سـفره إلى المدينة المنـوّرة، كاد فيها يلاقي حتفه عندما تشـاجر مع أحد البدو فطعنه هذا بحربته ونزف جرحه نزفـاً بليغاً، حتـى أيقنت القافلة باسـتحالة نجاته، وقبل أن يفقد وعيـه رأى ثلاثة من الطيور الجارحـة تحـوم فوقـه. ثم قام طبيب مـن السّـكّان المحلّيين بتضميد جراحـه، حتى تماثل للشـفاء. وراح الرّجل يسـير في المدينـة المنوّرة بصعوبـة، وعندما شـاهدها للمرّة الأولى قارنها بالقسطنطينيّة بجمالها ورونقها، وأطنب في وصفها وأعجب بها أيّما إعجاب.

***

أمّـا لغة الكتاب فشـائقة ممتعة تذكّرنا بأسـلوب الرحّالة الأميركـي أ. لوكر في كتابه «مـع الهـلال والنّجـم» من حيـث الرّواية الشـخصيّة والتفاعـل الحيّ مـع المجريات،

أمّـا من حيث مسـرح الأحـداث والوقائع فتذكرنا برحلـة «الحاج المعاصـر» إلى مكّة المكرّمة الرحّالة البريطاني آرثر جون واڤِل (لاحق لكين). وقد أمتعنا كين بوصفه الحيّ وقصصه الطريفة وتهكّماته اللاذعة لرفاق دربه من المحاربين الثاني والثالث إلى شيخ البؤسِـن كما يسـمّيه، وتعاطي صَحبه الهنود للأفيون (جرّبه بنفسه)، ثم حكايته المثيرة عن الليدي ڤينوس ماكنتوش، السـيدة البريطانيّة الغامضة التي صادفها بمكّة المكرّمة، ولم يتمكن من فهم ظروف حياتها ورفضها للعودة إلى موطنها الأصلي بريطانيا.

***

بعد رجوعه إلى بريطانيا، كتب كين في سيرته الذاتيّة: «لقد قمت بهذه المخاطرة الصّعبة بالحـجّ إلى مكّة لغرض واحد لا يتحقق إلا بالقيام بعمل يجعل اسـمي معروفاً بأنني رحّالة مُقتدر، وهذا يضعني جيداً في موضع الثقة للحصول على المسـاعدات التي سـوف أحتاج إليها لتنفيذ خطّة، ما برحت تعتمل في ذهني منذ كنتُ في جزيرة پاپوا بالمحيط الهادي».

وليـس مـن الواضـح إذا كان كين قد تمكّـن من تحقيق طموحه هـذا أم لا، لكنه في خلال السّـنوات القليلة التالية كان قد سُجن في البرازيل، وأصدر جريدة في شنغهاي، واشـتغل في السّـكك الحديديّة بالهند، وعمـل منقّباً عن المعادن فـي بورما، ثم عاش متسـكّعاً في إنكلترا. وآخـر ما وصلنا من أخباره أنه عمل في حصاد قصب السّـكّر في كوينزلاند، وتوفي عام 1937.

بوجـه الإجمال، يُعدّ هذا الكتاب واحداً من الكتب الأوروبية التي تناولت موضوع الحجّ والإسـلام، لكنّه فريدٌ من نوعه بما يتضمّنه من سـرد مباشـر وسـلس للأحداث وإمتاع كبير في الوصف. صدرت الطبعة الأولى منه عن دار تينزلي Tinsley Brothers في لندن عام 1881، وعنها نقلنا إلى العربيّة هذا الكتاب.

والحمد لله على ما وفّق وأعان.

جبيل، 23 ديسمبر 2011

د. أحمد إيبش

نقاط حول الترجمة

عند ترجمة الحروف والأسماء الأجنبيّة، يواجه القارئُ العربي دوماً خللاً كبيراً لم تتمكن مجامعنا اللغويّة من حسمه إلى اليوم. لكن بما أنّ هذا الأمر يحتاج إلى بحث مستفيض، أقتصر هنا على ذكر ثلاث نقاط:

1- بخصوص حرف الجرّ الفرنسي de أو du لا أتّبع أبداً طريقة مثقفينا بلبنان بتعريبه: دو، ولا طريقة مثقفينا بمصر بتعريبه: دي. إنما الأفضل برأيي اتّباع طريقة اللغة التركيّة العثمانيّة القديمة: (دى) بالمطلق. هذا في الأسماء الفرنسيّة، أمّا في الأسماء الإيطاليّة والإسپانيّة فأتركه: دي.

2- الحرف (چ) يُلفظ: تش، كما في اسم: چركس، لاچين، سلچوق. وهو ليس بحرف عربي، ويماثله في الإنكليزيّة ch كقولك: chuck, church. وأيضاً ch في الإسپانيّة كقولك: leche, mucho, chica. وكذلك يماثله في الإيطاليّة حرف c المتبوع بحرفي العلة e أو i كقولك: ciao, Cesare. ويماثله في التركيّة حرف ç كقولك: çay, çok, çınar. لكن مع أنني أكتب بعض الأسماء الإنكليزيّة: چِستر، چِڤرون، بحرف (چ) فثمّة أسماء تستعصي لشهرتها بصيغة (تش)، مثلاً: تشارلز، تشرشل، تشيلي. وحرف (چ) ما زال يستخدم في العراق، كقولك: أحبّچ، شلونچ، پاچة. لكنه يُستخدم في مصر بشكل مغلوط جداً (فيكتبون: چورچ) لترجمة الجيم المُعطشة المرقّقة، التي يُعبّر عنها في التركيّة العثمانيّة والفارسيّة والأورديّة بحرف: ژ، ويماثلها في الفرنسيّة والپرتغاليّة j والإنكليزيّة zh والرّوسيّة ж والپولونيّة ż.

3- أمّا عقدة الترجمة الكبرى فهي حرف G الذي أعجز مجامعنا اللغويّة، فاسم

Google يُكتب بمصر: جوجل، وفي الشّام: غوغل، وفي العراق: گوگل، وفي السّعوديّة: قوقل، وفي المغرب بكاف موسومة بثلاث نقاط، وفي تونس: ڤوڤل، وفي فلسطين: چوچل، إذ يعرّبون لوحات الطرق: چلعاد، چدعون، چَدُول، رامات چان (علماً أن גן هي ذاتها جَنّة بالعربيّة أي حديقة). المجموع: 7 طرق لكتابة الحرف G! ومنذ مدّة قرأتُ على شبكة الإنترنت نزاعاً طريفاً حول كتابة اسم Lady Gaga: أهي ليدي غاغا أم جاجا أم قاقا؟

هذا الحرف تصنّفه اللسانيّات العربيّة باسم (الجيم اللهويّة) تمييزاً له عن (الجيم الشّجريّة) المُشبعة، ويقع لفظياً بين الجيم والكاف والقاف. وعلى الرّغم من أنّ أصله في لهجات العربيّة القديمة جيم (وبقي بلفظه في اليَمَن ومصر) فأرى الأجدى والأدق في الوقت الحاضر اتّباع أسلوب أجدادنا العرب في الأندلس بترجمته غيناً، كما عرّبوا مثلاً: غرناطة، البرتغال، بُرغُش، أراغون. لكن على أن نَسِمَه بثلاث نقاط: (ڠ) تمييزاً له عن الغين العربيّة.

لكن مع ذلك، علينا أن نبتدع لهذه الأزمة حرفاً جديداً لا يلتبس: جيم موسومة برمز مميّز: ولتكن جيماً كنعانيّة أو بقلم المُسند العربي الجنوبي، تحتها أو فوقها على طريقة حروف لغة الأُردو. لكن متى ترانا نفعل؟! الواقع أنّ الفرنسيين كانوا أكثر حذقاً منا عندما حلّوا مشكلة لفظ حرف G بين جيم شجرية وجيم لهويّة، بأن أضافوا إليه ببساطة حرف u كقولهم: guérir (ڠيرير) أو كما في اسم: Guillaume (ڠيّوم). وكذلك حلّ الطليان المشكلة بإضافة حرف h كقولهم: Ghisi (ڠيزي). وهذا طبعاً في الأسماء التي يتبع الحرف G بها حرفا العلّة e أو i. أما عندما يتبعه حرف ساكن أو حرفا العلّة a أو o فلا مشكلة، ويُلفظ جيماً لهويّة. والأمر ذاته مع حرف C في الإيطاليّة فأضافوا إليه h حتى لا يُلفظ (تش)، كقولهم: chiaro (كيارو)، Chievo (كييڤو).

وأمّا الأتراك، فأيضاً حلّوا الأزمة بشكل حاسم قديماً وحديثاً: فبالعثمانيّة القديمة تُكتب الجيم الشجريّة كالعربيّة ج، وأمّا اللهويّة فاستعاروها من الفارسيّة گ. وفي التركيّة الحديثة بالأبجديّة اللاتينيّة جاء الحل بشكل سهل وذكي، فخصصوا حرف

g للجيم اللهويّة، كقولهم: gerçek (غِرچك)، وحرف c للجيم الشجريّة، كقولهم: geceler (غِجلار)، Avcı (آوجى)، Cem (جم).

أمّا الألمان فقد ارتاحوا من عناء هذه المشكلة، إذ ليس لديهم جيم شجريّة أصلاً بل لهويّة فحسب، كما في: Gewehr (غيفير)، وإن أرادوا رسم الأسماء الأجنبيّة لقوا في ذلك التباريح، كقولهم في نقل عبارة «جبل» العربيّة: Dschebel حيث أن حرف J (يوت) هنا لن يفيد، فهو يُلفظ ياءً بالمُطلق. وأمّا لدى الإسپان، فحرف G له أحكام واسعة يطول شرحها، فالأصل في القشتاليّة أن يُلفظ جيماً لهوية (غ)، وفي حالات معيّنة يلفظ خاءً، ومن الناحية الصّوتيّة اللفظيّة ثمّة مناطق تلفظه غيناً لهويّة، وسمعتُ بأذني في غرناطة مَن يلفظ اسم Aragon هكذا: «آراغون»، وليس آراڠون.

* * *

أما التعبير في العربيّة عن حرف الجيم اللهوي بكتابته جيماً (كما في مصر) أو بقاف (كما في السّعوديّة) فيمكن حسم بُطلانه بلحظة واحدة: احتكِموا إلى لغة القرآن الكريم، ففيها الجيم حرف شجري مُشبع لا يحتمل تأويلاً ولا تفسيراً، والقاف حرف لهوي مُشبع، وكلاهما من حروف القلقلة. وبالطبع حتى في مصر لا يمكن لأحد أن يكتب: جرناطة، البرتجال، بلجاريا، مجنطيس.. أم هل نسمّى البُرغُل مثلاً: بُرجُل؟ (وهي كلمة معرّبة عن التركيّة bulgur).

وللبحث صلة..

* * *

SIX MONTHS IN MECCAH:

AN ACCOUNT OF THE MOHAMMEDAN PILGRIMAGE TO MECCAH.

RECENTLY ACCOMPLISHED BY AN ENGLISHMAN PROFESSING MOHAMMEDANISM.

BY

T. F. KEANE.

(Hajj Mohammed Amin.)

"The first of the Pilgrims to Meccah and El-Medinah who has left an authentic account of the Holy Cities is Lewes Wertomannus (Ludovicus Bartema), gentelman, of the citie of Rome. 'If any man,' says this author, 'shall demand of me the cause of this my voyage, certeynely I can shewe no better reason than is the ardent desire of knowledge, which hath moved many other to see the world and the miracles of God therein.'"—*Burton's Pilgrimage*, Appendix II. First Edition. Longman. "The Navigation and Voyages of Ludovicus Vertomannus, gentelman, of Rome. A.D. 1503."

LONDON:

TINSLEY BROTHERS, 8, CATHERINE STREET, STRAND.

1881

عنوان الطبعة الأصليّة للكتاب، لندن 1881

ستة أشهر في مكّة

مقدّمة

يتلخّص هدفي في الصّفحات التالية بتقديم قصة بطريقة مختصرة ومشوّقة، عن كل أمر مثير لفت انتباهي وأنا في مكّة، خلال موسم الحجّ 1877-1878؛ وبشكل أساسي من أجل أولئك الذين لا يملكون الوقت الكافي أو الميل إلى قراءة الوصف الكامل والمرهق للمشاهد نفسها في مجلدات الرّحالة المشهور يوهان لودڤيغ بوركهارت Johan Ludwig Burckhardt (الشيخ الحاج إبراهيم) والرحالة والكاتب الأكثر شهرة الكاپتن ريتشارد بُرتون Captain R. F. Burton (الشيخ الحاج عبد الله).

لذلك، أعد بالتعويض عن النقص في استهلاليتي التالية التي آمل ألا تتأثر بمداخلاتي المتكرّرة. سأتابع بعد إذنكم حياكة روايتي بطريقتي الخاصة.

ج. ف. كين (الحاج محمّد أمين)

ستة أشهر في مكّة

الفصل الأول

حجّاج بيت الله الحرام

يا لحجّاج مكّة من مؤمنين بالقضاء والقدر،

وأصحاب عزيمة ماضية - لونغفيلو

كثيرةٌ هي فرق الإسلام وطوائفه، بعدد نظيراتها المسيحية؛ وعلى الرّغم من ذلك يجمعها قاسم مشترك[1] ألا وهو أداء فريضة الحجّ على كل قادر مرة واحدة في العمر. وحتى أولئك الذين أدّوا تلك الفريضة أيام صباهم عليهم أن يعاودوا أداءها بعد بلوغهم سن التكليف. وللعلم فإن أداء تلك الفريضة يخضع لأحكام محدّدة ويتم في أيام معلومة من السّنة، وبالتالي فإن بضعة آلاف من المسلمين يسعون إلى مكّة من كافة أرجاء المشرق في موسم الحجّ؛ يأتي بعضهم في قوافل عبر الصّحارى، بينما يشدّ القسم الأكبر الرّحال إليها بحراً بواسطة السّفن الإنكليزية، وخلال ذلك الموسم شهد

(1) باستثناء بعض الأعاجم الذين يعتبرون مسلمين بالاسم فقط، مثلهم في ذلك كمثل بعض القبائل في جنوب أفريقيا ممن أرسلت إليهم بعثات تبشيرية والذين يمكن اعتبارهم مسيحيين بالاسم فقط. (كين)

ميناء جدّة نزول 42,718 حاجّاً فيه[1]. في ذلك المكان التحقت بركب أمير[2] هندي[3] لأرافقه في رحلة الحجّ إلى مكّة وأماكن أخرى في مشاعر الإسلام المقدسة، وعن رحلتي إلى مكّة سأحاول الآن سرد بعض الأقاصيص.

كان أشدّ ما صعقني عند نزول أولئك الحجّاج لأول مرة في جدّة هو قلة حيلتهم وسذاجتهم، فحتى السّياح الإنكليز في مصر لا يتعرضون للنصب والاحتيال أكثر مما يتعرض له الحجّاج من إخوتهم المسلمين من السّماسرة في ميناء جدّة. فقبل رسوّهم طالبهم مسؤول تركي في الجمارك بسداد روبية على الفور دون أي مبرّر على الإطلاق، وبعد هذا، فُرضت عليهم رسوم باهظة عند نزولهم على كافة الأمتعة حسب وزنها. وبما أن معظم الحجّاج من الموسرين أحضروا معهم طعاماً يكفيهم طوال مدة بقائهم في تلك البلاد، فقد أخذوا فكرة وافية عن الابتزاز قبل أن يقعوا فريسة في أيدي الأدلة السّياحيين متعرّضين للمزيد من الابتزاز. بدأ العديد من موسري الحجّاج بالتعرف على الأصدقاء أو المواطنين المقيمين في الحجاز، وقد كان نصيب كبير قافلتنا وافراً من تلك المعرفة، وبالتالي، ضمنّا استقبالاً آمناً إلى حدّ ما.

ليس بمقدوري أن أصف لكم جدّة تلك المدينة التي تتكلم بأكثر من لسان، لأنني لم أمكث فيها ما يكفي لأكوّن فكرة عن أي شيء جديد ومثير فيها. بعد ذلك قصدتُ القنصل البريطاني، وأعطيته اسمي وعنوان أصدقائي في إنكلترا وأطلعته على الغرض من زيارتي؛ فما كان منه إلا أن اتخذ الأسباب لثنيي عن عزمي قائلاً بأن الطرق غير آمنة وبأن فوضى عارمة تجتاح البلاد بعد انسحاب الحامية التركية متجهة إلى حرب في أوروبا؛ لكنني كنت قد حزمت أمري مسبقاً بذلك الخصوص، لذلك عمدت إلى بيع

---

(1) أفاد القنصل البريطاني في جدّة بأن 42,718 حاجاً نزلوا في مينائها في موسم 1877-1878، أي ما يزيد بـ 4000 عن السّنوات السّابقة، تلك الزيادة التي كانت أكبر من النقص في كل من زيمبو وليت. كما أن مجموع الناس في مكّة يوم العيد قدر بما يزيد عن 180.000 - صحيفة التايمز، 26 أكتوبر 1878. (كين)

(2) وهو أحد ملاّك الأراضي التابعين للحاكم ضمن نظام إقطاعي. (كين)

(3) وهو أمير هندي مسلم وليس هندوسياً. (كين)

ثيابي التي غدت غير مناسبة لي وحصلت على مجموعة أخرى من الثياب المحلية؛ ومن ثم وبعد استراحة دامت ثلاثة أيام في جدّة، بدأنا بالتجهز لرحلة مكّة.

قبيل ظهر اليوم الثالث، وصلت الجمال المستأجرة من البدو (أبناء الصّحراء الحقيقيين، تمييزاً لهم عن أقرانهم في مصر وفلسطين والبلاد الأخرى التي يزورها الأوروبيون عادةً)، والذين قابلتُهم للمرة الأولى وكوّنت عنهم صورة جيدة، برغم هيئاتهم الرّثة وأصواتهم المرتفعة، ولا أزال مقتنعاً برأيي عنهم. سرعان ما توصّلت إلى نتيجة مفادها أنه لا رابط يجمع بين هندي ماكر ومسلم أسمر البشرة في صراع محتدم. بعد تعالي الأصوات بالأيمان المغلظة تمّ تحميل الجمال التي اتخذت طريقها، وعلى غرار صحبي أدّيت غسل الإحرام وارتديت الثوب المكوّن من قطعتين من القماش القطني الأبيض أو فاتح اللون، تلفّ إحداهما أعلى البدن على الكتف الأيسر مع ترك الكتف الأيمن عارياً؛ بينما تلفّ الأخرى الخاصرة وتغطي القسم الأسفل من الجسم وصولاً حتى أسفل الرّكبة، (مع ترك الرّأس حاسراً، ناهيك عن أعالي البدن والأقدام)، وعقب ذلك تتمّ تأدية ركعتين لله تعالى، وهي عبارة عن سنّة تؤدّى في مثل تلك الحالات.

بعد ذلك ألحقنا جمالنا بركب القافلة الكبيرة خارج أسوار جدّة. لم أجد صعوبة تذكر في عبور البوابة في ذلك الحشد، ولم أسمع بأن هناك جواز سفر مطلوباً لعبور الحجّاج سواء هنا أو في مكّة، إلا أن الأمير قد حصل لي على واحد باسم عبدُول محمّد Abdul Mohammed، وهو اسمي من الآن فصاعداً.

حال عبورنا للبوابة، كان هنالك اثنان من الحرّاس الأتراك بمظهرهما العسكري المحبب واقفين متكئين على بندقيتيهما يدخنان لفافتي تبغ، وبالكاد ألقيا بالاً للجمال التي مرت بجوارهما. كانت مجموعتنا تتألف من حوالي خمسين مسافراً بالإجمال بين رجال ونساء؛ ونظراً لاستئجار خمسة عشر جملاً فقط، عشرة منهم بهوادج أو نقالات، وخمسة للتحميل (أربعة منها بشبريات) وكل منها يحمل شخصين فقط، لذلك كان على عشرين من مجموعتنا أن يسافروا مشياً على الأقدام؛ هذا بالإضافة إلى

الفقراء والمتسوّلين من الحجّاج الذين لحقوا بنا والذين تم قبولهم كالمعتاد ليحصلوا على الكثير من الصّدقات على شكل شيء من الطعام والماء، والأخير عبارة عن سلعة لها قيمتها ويمكن بيعها في البلاد. لذلك كان عليَّ مشاركة أحدهم في الهودج ومبادلته الأحاديث طوال الطريق على اعتباره شريكي في الرّكوب طوال رحلة الحج، ولأسباب لا تخفى على القارئ، ومنها أن أبتدع أسماءً حركية لأصحابي، سأدعوه (كما أنظر إليه دائماً) «ثالث المقاتلين»، وهو أصغر حرّاس الأمير الشخصيين المسلحين.

كان المحارة التي نجلس أو نتمدد عليها بكامل طولنا تعرف باسم الهودج أو الشبريّة. من داخلها كان هنالك جراب للطعام والتبغ وبعض الحاجات الصّغيرة الأخرى؛ أما من الخارج ومن الناحية الخلفية فكان هنالك سلة من ألياف مجدولة، بمتناول اليد تحتوي على زجاجة ماء. أخيراً، وبعد أن تمكنت بمساعدة سلّم من الصّعود إلى ذلك العش المبني من الأغصان المحنية والحقائب القديمة والذي يشبه كوخاً دائرياً متداعياً، يترنّح يمنةً ويسرةً فوق سنام الجمل، راودني شعور بأني سأسقط السّقوط الأكبر على الأرض الوعرة التي كنا نجتازها، شاعراً بالأسى في الوقت نفسه على الحيوان المسكين نظراً للحمل الثقيل الذي ينوء به، دون أن يغيب عني خوفي من السّقوط للحظة.

لكن عند استشرافي للمنظر وجدت الطريق رملياً مسوّى، تتهادى عبره الجمال بتثاقل لترتج الأرض من تحتها أكثر من ضربات أسرع الخيول وأقواها؛ علاوة على ذلك فإن المنصة التي يستلقي عليها الرّاكب تقع على ذروة سنام الجمال، كما أن تركيبة الهودج غير مستقرة بحيث تحتاج لموازنة الأثقال موازنة دقيقة على كلا الجانبين لئلا ينقلب السّرج الذي تم تثبيت الهودج عليه بإحكام (ولكن دون تعليق السّرج على الحيوان، حيث تراه ملتصقاً بظهره دون أية وسيلة ظاهرة)، الأمر المستبعد حدوثه، إذ أن فنّ موازنة الهودج لا يتمّ التوصّل إليه إلا بعد طول ممارسة ومران.

لم يتوقف حادي جملنا عن تقريعنا وتأنيبنا طوال الوقت لقلة معرفتنا وحيلتنا، خاصة أنني وصاحبي كنا لا ندري شيئاً عن هذا النوع من السّفر، لكننا كففنا لسانه

عنا ببضعة تمرات وشيء من الخبز. من ناحيتي فقد أمضيت واحدة من أخطر الليالي وأكثرها بؤساً ومعاناة في عمري، ذلك لأن سفينة الصّحراء التي تترنح يمنة ويسرة لا تشبه نظيرتها العائمة في شيء، لذلك فإنني، أنا البحار السّابق، وصلت إلى مرحلة الغثيان، الأمر الذي لم أتعرض له لسنوات عديدة في البحر.

كانت الأرض التي نقطعها عبارة عن سهول ممتدة من الرّمال، باستثناء بعض المرتفعات الطفيفة، وكان مسيرنا باتجاه الشرق على هدى من النجوم. إن الحدّة Haddah هي محطة توقف في منتصف الطريق بين جدّة ومكّة. وهنا تمتد أربعة أو خمسة أميال مربعة من الأراضي المزروعة، والتي تتناثر في أرجائها بضعة مجموعات من خيم البدو. في الشمال الشرقي كان هنالك جدول من المياه المالحة يجري لميل أو ميلين عبر ساقية حجرية قبل أن يتبدّد في الرّمال. في الجوار كانت هناك سفوح سلسلة جبال تنبثق من السّهول الرّملية على شكل صخور ترتفع بالتدريج متخذةً شكل مرتفعات جبلية باتجاه الشرق. وفي ظل نُزل أشبه ما يكون بكوخ صغير أمضينا بقية اليوم نصلّي ونتناول طعامنا ونستريح، لكن لم يغمض لنا جفن، إذ أن عدداً من الحجّاج المستغرقين في عبادتهم ومناسكهم لم يتوقفوا عن ترديد تلبيات الحجّ صادحين بأعلى صوتهم: لبّيك اللهم لبّيك، لبّيك لا شريك لك لبّيك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

لك أن تتخيل عجوزاً في التسعين بأنفه وصوته الأجش، يحاول أن يغني بأعلى صوته تلك الكلمات ولكن بلحن "silent, oh Moyle" أو بلحن "The sailor's Grave" ولأول مرة في حياته، لتدرك مقدار العذاب والرّهق اللذين يسبّبهما ذلك النشاز البغيض، ومقدار الجهد الذي يبذله الحجّاج في طريقهم إلى مكّة والتي تظهر آثاره على وجوههم وحركاتهم، ناهيك عن الابتهالات الدينية الأخرى التي لا تقل صخباً وجلبة. الآن صار بمقدوري أن أتوضأ وأصلي دون أن ألفت أي انتباه مستفيداً من مواهبي التمثيلية في التمويه.

قبيل ساعة من غروب الشمس كنا في طريقنا إلى مكّة؛ ليبدأ الطريق بعد ذلك

بالصّعود، ولترتفع الهضاب تزداد وعورةً كلما مررنا عبر الشعاب الصّخرية التي يتردد في جنباتها صدى رغاء الجمال وتلبيات الحجّاج بشكل فريد أخاذ. وفي الليل، عندما بـدا أننـا قد وصلنا إلى قمة كتلة صخرية، أنبأتنا التلبيات المتزايدة وترجل الحجّاج عن جمالهم بأن مكّة باتت على مرمى بصرنا. في تلك المرحلة كنا قد قطعنا حوالي عشرين ميلاً عن الحدّة Haddah باتجاه مكّة ولا زلنا سائرين باتجاه الشرق. إلا أن الطريق نحو مكّة من تلك الجهة لم يكن ليظهر المدينة بشكل واضح. وصلنا إلى أبنية حجرية عالية تنتشر على منحدرات صخرية، حيث من الأفضل للوافد أن يترجل عن راحلته ويدخل مكّة ماشـياً على قدميه إن أمكن دون أن يكون هنالك من حرج على النساء والمرضى، لنجد أنفسـنا نسـير عبر شوارع أوسـع وبين بيوت مرتفعة بعض الشيء، وكلما واصلنا طريقنا نزولاً باتجاه مركز المدينة كلما ضاقت الشوارع واتسخت. بعد ذلك وصلنا إلى منزل أُعدّ لنا على طريق الحَرَم، وهو عبارة عن ساحة مغلقة للعبادة حيث توجد الكعبة أقدس مقدسات الإسلام.

أنـا الآن في تلك الرّحاب، بريطاني بشـحمه ولحمه، أرنـو من خلال قضبان النافذة المعدنية إلى ذلك الصّرح الذي يعتبر من وجهة نظر المسلمين مركز العالم، بل الكون، ألا وهو الكعبة، أحسـب أبعاده، ذلك البناء الذي يسـعى إليه مئـات الألوف من الناس على حسـاب لقمة عيشهم برغم شـيخوختهم، والذي يتجه نحوه ملايين المصلّين في خشـوع خمس مرات يومياً. لكن سـرعان ما انقطعت سلسلة أفكاري، ذلك أننا بعد أن حططنـا رحالنـا في نزلنا، كان كل مـا يحيط بنا يدعونا للبدء في مراسـم الحجّ والعبادة والتي شـرعنا بها مـن أول اليوم لآخـره بالرغم من تعبي وإنهاكي. فضـلاً عن الوضوء والصّلـوات الخمـس اليوميـة المعتـادة كان علينا أداء ركعتيـن في أحد جانبـي الحَرَم وركعتيـن أخريين في الجانب الآخر، بالإضافة إلى الطواف، وهو السّـير، أو بالأحرى الهرولة حول الكعبة سـبع مرات وتقبيل الحجر الأسود الموجود في أحد زوايا الكعبة ولمس حجر آخر في كل دورة، ناهيك عن السّـعي سـبع مرات لمسافة ثلث ميل تقريباً بيـن الصّفا والمروة جيئة وذهاباً، مردّدين الأدعية المناسـبة (بعد اسـتئجار دليل لذلك

الغرض)، وكل ذلك إحياءً لذكرى هاجر التي سعت السّعي نفسه بحثاً عن الماء في المكان عينه. يقع ذلك المسعى في وسط المدينة، ويحيط بالحَرَم من جهة الشرق، قاطعاً وادي مكّة بشكل غير مباشر من إحدى الجهتين إلى الأخرى.

أخيراً يتم التحلّل بحلق الرّأس، وعندها صار بإمكاني خلع ثوب الإحرام. حلق أصحابي من رؤوسهم بمقدار ما تغطيه القلنسوة، إلا أنني فضلت حرصاً على النظافة أن أحلق كامل رأسي فضلاً عن حفّ شاربي وتقليم أظافري، مثلي كمثل أكثر المسلمين مبالغةً في الحلق والتقليم، تاركاً لحيتي وشيئاً من الشعر في سالفيّ، وكان ذلك كل ما بقي في رأسي من شعر. كانت تلك التقاليد التي اتبعتها مزيجاً من الطقوس الهندية والتركية لكن يغلب عليها الطابع العربي. وضعت على رأسي طربوشاً تركياً، مع منديل حريري طويل يحيط به، أما في رجليّ فكنت أنتعل صندلاً هندياً وهو عبارة عن نعل جلدي يغطي كامل القدم من الأسفل، أما من الأعلى فله شريط جلدي يمسك بالمشط ويغطي الإبهام والإصبع الذي يليه؛ وعلى الخصر تلتف أربعة أقدام من القماش الهندي القطني على شكل سروال يضيق في الأسفل عند الكاحلين؛ فضلاً عن رداء من القماش نفسه يغطي أسفل البطن ببضعة طيات؛ وفوق ذلك كله عباءة عربية بنية اللون بأكمام عريضة وبطول يصل حتى الكاحلين.

شعرت بسعادة بالغة في ليلتي الأولى في مكّة عندما أدّينا آخر صلواتنا وأوينا إلى فرشنا، وذلك على الرّغم من أن الأمير وثلاثين آخرين من المؤمنين تكدّسوا في نفس الغرفة، رأس الواحد منهم عند قدمي الآخر، وكانوا يشخرون حولي شخيراً منكراً. غير أنّ ذلك لم يمنعني من النوم ملء جفوني؛ ولم أستيقظ كذلك في الثلث الأخير من الليل لتناول وجبة السّحور، حيث كان الوقت وقت رمضان وصيام، ولا يسمح فيه بتناول الطعام إلا بين المغرب والفجر، لكن أصحابي بحسن نية، وحرصاً منهم على اغتنامي للنفحات الرّوحية، أيقظوني على صلاة الفجر، فبدوت في غاية الامتنان مظهراً قدراً كبيراً من النشاط تمثل في مسارعتي للوضوء بماء بارد قبيل شروق الشمس في ذلك الصّباح الزمهرير، وأدائي للصلاة بركوعها وسجودها لمدة ربع ساعة كاملة.

كانت إحدى مزايا الغرفة التي كنا نقيم فيها أنها تتمتع بثلاثة نوافذ كبيرة تطل مباشرة علـى الحَـرَم، بحيث نستطيع، ونحن جالسـون فـي أماكننـا، رؤية الكعبـة التي نصلي نحوهـا والتـي تعرف بين النـاس بأنها «بيت اللـه»، فضلاً عن عشـرات ألقاب التبجيل الشـرقية الأخرى.. لـم يذهب الأمير أو أي من كبار أتباعه إلى جوار الكعبة للصلاة إلا لصلاة الجمعة أو في عدد من المناسبات الأخرى. في البداية حافظت على مكان لي عند تلك النوافذ دون أن أهتم بظهوري بين الناس إلا ضمن الحدود الدنيا الضرورية.

بما أن هذه الرّواية قد كتبت بشـكل رئيسـي لأولئك الذين لا يعرفون إلا القليل عن الديانة الإسـلامية ومكّة، لذلك سـأعمد قبل المضي قدماً إلى بعض الشـرح عن الحجّ وعـن الموقـع الذي حللنا به فـي مكّة. لطالما كنت أعتقد بأن ذلك الحشـد العظيم من النـاس الـذي يذهـب كل سـنة للحج إنمـا يذهب في حقيقـة الأمر إلى سـوق كبيرة أو مهرجان تسـويقي كبير يعقد هناك، لكن بعد قيامي بتلـك الرّحلة أيقنت بأن الأمر ليس كذلـك في حقيقتـه. كان الأمر عبارة عن رحلة حجّ بكل ما فـي الكلمة من معنى، وهو تنفيـذ دقيـق لكل ما جاء به محمّد من فروض وسـنن، نابع من إيمـان عميق بها. لذلك أعتقـد بـأن القلة القليلة من النـاس تذهب هنالك لمـآرب دنيوية، بينمـا تذهب الكثرة الغالبة لدوافع أسـمى (إذ أن مقامات المحبة التي تتحدث عنها المسـيحية تشكل حيّزاً غير كبير من الديانة الإسلامية).

لذلك فإن ما يصبّر المسافرين على مصاعب الرّحلة ومشاقها هو تطلعهم لوعد الله مـن الثواب والأجر والخلاص من عذابـه في الآخرة وما ذُكر عن ذلك في القرآن، وما ذلك كله، كما ذكرت سابقاً إلا ثمرة لإيمان عميق يصعب شرحه بالألفاظ، والذي ينتشر بين الناس من سكان الشرق. من ذلك نعرف بأن المجتمع المكي عبارة عن توليفة من أكثر المسلمين تعصباً، إن لم نقل خلاصة المسلمين المتعصبين في العالم. وللعلم فإن غير المؤمنين ينزلون في أماكن محدّدة في كافة المدن المقدسة عند المسـلمين، لكن السّـؤال الآن: هل يسـتطيع يهودي أو مسيحي أو وثني أن يدنّس أرضاً مقدسة لهم مثل مكّـة؟ عندها، كما يزعمون، فإن تلك الأرض ستنشـق وتبتلعه، وإلا فإنهم سـيعمدون

إلـى رجمـه بالحجارة حتى المـوت، وتمزيقه إرباً، وحرقه، ثم رمـي رماده خارج تلك الرّحاب الطاهرة، ولا تؤاخذوني بما سمعتم، فليس ذلك إلا تكراراً لما يردّده بعضهم. حتى أنني صرت على ثقة بأن حياة رجل أبيض يرفض إشهار إسلامه لن تستمر لساعة أو ساعتين خارج أسوار جدّة، حتى في ذلك اليوم: لذلك في حال رغب أي رجل غير مسـلم، بدافع من الفضول أو المنفعة أو المتعة، بدخول الحجاز، فيجب عليه الالتزام بالعادات والتقاليد الإسـلامية، مع المزيد من الحذر لأنه، بصرف النظر عن جوّ الأمان الـذي يسـود، فهنالك العديد من العيون والجواسـيس الذيـن لا يطيب لهم عيش حتى يكشفوا اللثام عن خفايا كل إنسان غريب يُشك في صدق إيمانه.

لكـن تقمص الشـخصية الإسـلامية بآلاف تفاصيلهـا الدقيقة وإتقـان كل العبارات التي تميّز الشـخصية الإسلامية، والتظاهر الدقيق بكافة متطلبات الإتيكيت التي يتبعها المسلمون، والتخفّي وراء قناع من الإيمان الصّادق، يؤمنه من إظهار جنسيته الحقيقية في مكان كمكّة. لربما أعلن بأنه آتٍ من Pekham Ryot، أو من Belgravia أو من بلد يدعى «الشـمال» North، كما فعلت أنا، عندها سـيتم اسـتقباله على الرّحب والسـعة، ذلك لأن الشـخصية الشـرقية مبنية في أساسها على القبول بالظاهر، لذلك فالمحمّدي المسـلم لديـه قابلية كبيـرة لتصديـق الأقاويل، وأخذهـا على ظاهرها بخـلاف الواقع والحقيقة.

أخبرت أحد العرب بأنني كنت بحاراً في سـفينة بخارية، الأمر الذي كان يبدو كذباً لا مـراء فيـه بالنسـبة لصعلوك مثلي، حسـبما كنت أبدو في ذلك الوقت، لكنه سـرعان مـا صـدّق الأمر وأعلن علـى الملأ بأني كنـت ربّاناً لسـفينة بخارية، مانحـاً إياي ترقية علـى سـبيل الإطراء مقابل ما حشـوت بـه دماغه فـي لقائنا الأول. كنت طـوال الوقت أبـرز له مكامـن قوتي ومعرفتي بالهند، وورقتي الرّابحة فـي ذلك هو أنني كنت آتياً من بومبـاي؛ لكنني كنت كلما تعرّضت لمأزق، كما حصل في مرتين، فإن تلاعباً بالألفاظ مـن ناحيتي يفيد بأنني قد اهتديت للإسـلام مؤخراً، كان يسـتوجب مزيـداً من المديح والإطراء من ناحيته.

لا أخفيكم بأن القيام برحلة كتلك كان عملاً طائشاً دنيئاً، ولقد عانيت كثيراً من تأنيب الضمير وشعرت بمدى نفاقي ومداهنتي، لكن بعد أن شرعت في الأمر لم يعد هنالك مكان للتراجع، ولا بد من اقتحام تلك العقبة، على الرّغم من أنني في بداية الأمر كنت توّاقاً للظهور بمظهر المخادع المحتال. تذكرت حينها أنني سمعت في ما مضى بحاراً يقول لآخر: «إنك لتردّد الكذبة يا جاك حتى تصدّقها»، وهو فعلاً ما أراه بأم عيني مطبقاً على أرض الواقع. لقد لعبت الدور بمنتهى الإتقان، وفي أقل من شهر كنت مسلماً خالصاً مثل أي عربي آخر مولود بينهم. لقد أتقنت تمثيل المسرحية، وحبكت الأمر بطريقة تجعلني أنا نفسي أصدقها.

وبرغم كون الاسم الذي اتخذته وهو «عبد النبي» واسع الانتشار بأشكال عدة في الهند، فقد اعترض أكثر أفراد مجموعتنا لباقة عليه على اعتباره غير لائق، وحجتهم في ذلك أن النبي بحد ذاته كان عبداً لله، لذلك صرت على قناعة بأن ذلك الاسم غير مناسب بالمرة، خاصة بعد النقاش الذي جرى والذي أفضى إلى إضافة اسم «أمين» للاسم الذي اتخذته، حيث تم إسقاط لفظة «عبد» من الاسم وصار اسمي «محمّد أمين» وهو الاسم الذي لا يمكن لمسلم الاعتراض عليه، وحتى دون الحاجة لإقناعهم.

بالرغم من أني يجب أن أبتعد عن الخلافات وتفاصيلها بين الطوائف الإسلامية، فإنني أعلم عن الوهابيين أكثر ممّا أعلم عن الوِسليين[1] Wesleyans عند المسيحيين، ولست أجهل من أمر الشافعي أكثر مما أجهله من أمر طائفة الشيكرز[2] Shaker عند

---

(1) الوِسليّون Wesleyans نسبة إلى كنيسة نشأت في عام 1843 على يد كاهن يدعى جون وِسلي John Wesley وهو مؤسس الكنيسة الميثوديّة إحدى فروع الكنيسة البروتستانتية، فنشأت من تعاليمه الكنيسة الميثوديّة الوِسليّة Wesleyan Methodist Church.

(2) الشيكرز أو Shaking Quakers طائفة مسيحية بروتستانتية نشأت في القرن الثامن عشر في بريطانيا عام 1747 تحت اسم: «الجمعية المتحدة للمؤمنين بالظهور الثاني للمسيح»، من تعاليم الواعظة آن لي Ann Lee. تميّزت الطائفة باستخدام حركات الرّقص وهزّ الجسم أثناء إقامة القدّاس، فهذا سبب تسميتها بـ «الهزّازين». من مبادئها التركيز على المساواة الاجتماعية ونبذ العلاقة الجنسية إطلاقاً، مما أدّى إلى تناقص أعداد أتباعها وانقراضهم. وتقتصر الحركة اليوم على مؤثرات ثقافية في الموسيقى والمفروشات.

المسـيحيين، ولكني أوفّر على القارئ الصّدمة وأوفر على نفسـي خطورة الكشف عن تفاصيـل تلك الخلافـات، خاصة وأني قد تلقيت ربما الكثير مـن المعلومات الخاطئة عن تلك التفاصيل على اعتباري هندياً متحيّزاً ضد الإسلام وأتباعه، لذلك سأستمر في روايتي بصفتي الحاج محمّد أمين، وهو المسلم السّنّي المعتدل.



الفصل الثاني
في مكّة

أنا الآن مستوطن في مكّة أعيش الحياة اليومية الاعتيادية لحاج بانتظار الحجّ الأكبر، أتوضأ من ماء زمزم، وهو بئر هاجر في الصّحراء، مراعاةً للتقاليد، وبدافع من المسايرة شربت الكثير منه برغم طعمه الأجاج، فهو عبارة عن نبع مياه معدنية طعمه كأنه شراب مخفف من أملاح إبسوم التي تؤخذ في حالات الإمساك، وله المفعول الطبي ذاته. إن كل صلاة تؤدى في مكّة لها أجر ألف صلاة في غيرها من الأماكن، ومع ذلك فمن غير المستحبّ سوى لمن بلغ المقامات العلى في الإيمان أن يقيم في مكّة، إذ أن الذنوب كذلك تتضاعف بنفس الدرجة.

كذلك يُحظر علي الاتصال بزوجتي، إن كنت متزوجاً، فضلاً عن حظر تناول أية وليمة، أو ممارسة أي صيد أو لهو لا يسمح به الدين. وعلى وجه الخصوص يجب الامتناع عن الشجار وعن إراقة الدماء، فضلاً عن قتل الحشرات والهوام، إذ أن ذلك قد يؤذي الجنّ - وهي الأرواح الخفية التي يعتقد بأنها تتشكل بتلك الأشكال ويكثر وجودها في مكّة - أو بسبب قداسة كل الكائنات الحية في مكّة، سواء كانت جناً أو بشراً أو حتى حشرات. ولقد سمعت نقاشاً حاداً عن استحسان قتل الحشرات التي تتطفل على البشر مفاده أن القاتل يدافع عن نفسه إذ أن تلك الحشرات غريبة عنه لكنها جاءت مؤخراً إليه.

كان طعامي يشتمل على طبق هندي تقليدي، وهو عبارة عن وجبتين من الأرز بالكاري يومياً، عند الفطور والعشاء، بالإضافة إلى الحلويات والفواكه أو الشاي،

تماماً مثل ما يتناوله الناس في بيوتهم؛ وبالنسبة إلى كميات الأرز التي التهمتها فلم تشبع نهمي، بل كلما ازددت أكلاً ازددت جوعاً، كالغارف من بحر: لا يزيده الشرب إلا عطشاً.

كنت في بعض الأحيان أخرج إلى الشوارع وأشتري بعض الخبز من الجنود الأتراك الذين يبيعون مخصّصاتهم، والذين كانوا، حسب ما يبدو من نوعية وكمية الخبز التي يوزعونها، يحيون في عيش رغد. بعد أسبوع أو عشرة أيام صار بمقدوري التجول في الأسواق المزدحمة دون لفت الأنظار، إذ أن مظهري الغريب قد ضاع وسط تلك الغابة من البشر، وجهلي باللغة العربية لم يتسبب بأي إحراج لي، نظراً لكثرة الجنسيات المجتمعة والذين يتكلمون لغات من الكثرة بحيث لا أستطيع تعدادها في هذا المقام، لكن يكفي القول أن كلاً من أكشاك الشاي الهندية يجمع حوله العشرات من التتر والماليزيين والزنوج والأتراك.

كما أن مظهري العام لم يبدُ بغاية الاختلاف عن محيطه من الناس، والمطلوب من الرّجل ألا يبدي الكثير من الأبّهة حتى لا يكون ذلك سبباً في اجتذاب المتسوّلين، ولعلّ أسقف كانتربُري إن أدّى الطواف بقلنسوته وثوبه قد يلفت الانتباه بالتأكيد، لكنه سيضيع بين عشرين آخرين من الأشخاص المكتسين بأبهى الحلل. كثيراً ما كنت أنظر إلى ذلك الجمع من الناس الذين يدورون حول الكعبة وكأنهم تماثيل المدام توسّو Madame Tussaud الشمعية - فقد كانوا بنفس تشكيلة الثياب، فضلاً عن تلك الوجوه الجامدة التي تخلو من التعبير، والمظاهر الغريبة.

عانيت في ذلك الوقت من الدّمامل في يدي يرافقها شيء من الحمّى وارتفاع الحرارة وتلك الأعراض التي كان من الواضح أنها خاصة فقط بأجواء مكّة، والتي من الصّعوبة بمكان لأجنبي أن يتجنبها أثناء الشهر الأول من إقامته هناك. تعرّضت في أيامي الأولى لحمى شديدة، وفقدت إحساسي بالزمن حتى أنني لم أعد أعرف كيف تمرّ الأيام، ولم يعد للتواريخ لدي أي اعتبار حتى عدت إلى جدّة.

في ذلك الوقت آذن شهر رمضان بالانقضاء، وجاء موسم العيد الذي يحلّ زائراً

لثلاثـة أيـام على كل الناس الذين يسـتقبلونه بأبهى حلة، بينمـا ضربت المدافع من كل من الحصون التركية الثلاثة إحدى وعشـرين طلقة عند شـروق الشـمس وعند غروبها وفـي وقت الظهيرة إيذاناً بأوقات الصّلوات طـوال الأيام الثلاثة. ازدادت أعداد الناس التـي تطوف فـي دوائر حول الكعبة أكثر من أي وقت مضى، ذلك بالرغم من أن معظم الحجّـاج كانـوا قد وصلوا للتـو. وبتقديري فقد اجتمـع ما لا يقل عن ثلاثيـن ألفاً عند صلاة المغرب في اليوم الثاني.

يا له من مشهد مهيب أن ترى تلك الآلاف المؤلفة من الرّجال الملتحين المعممين الأشـداء الواقفيـن وقفـة الواثقين من أنفسـهم على شـكل دوائر تتسـع بالتدريج كلما ابتعـدت عـن كعبتهم المشـرفة، يتبعون الإمـام بصمت بينمـا يدعو اللـه ويصلي على محمّد. بعد ذلك يرتفع صوت أحدهم قائلاً «الله أكبر» محركاً المشـاعر الجياشـة في القلـوب، ثم ينحني الجمـع في نفس الوقت ويسـجدون ملصقيـن جباههم بالأرض. لطالمـا وقفـت خلف قضبـان أعيش تلك المشـاعر مـع المصلين، منسـلخاً عن ذاتي وهائمـاً بروحـي بينهم، حيث تتداخل ألوان الأثواب وألـوان العمامات في مزيج أخّاذ تضيق العين عن اسـتيعابه، وكلما سجد المصلون أرضاً تماوجت ثيابهم تاركة انطباعاً كالذي تتركه أطياف الفجر الملونة.

أمـا المشـهد فـي وقت الشـفق الأحمر فـكان بغاية الجمـال والروعة، أكثـر من أية عـروض أخـرى من صنع البشـر. في ذلك الوقت تـم افتتاح الكعبة، لكنـي لـم أجازف محـاولاً الدخـول إليها، برغم أني فعلت ذلك مسـتقبلاً. بعد مرور أسـابيع ثلاثة بدأت بمعرفـة الطرقـات وصار بإمكانـي التنقل جيئة وذهابـاً. كما تعرفت علـى نقاط العلام الأساسية في البلدة مستعيناً بالشمس والنجوم، مستفسراً عن أسمائها وتواريخها[1].

(1) أود هنا أن ألفت انتباه القارئ إلى أن معظم مشاهداتي وبياناتي متوقفة على صحّة الاستنتاجات التي قمت بها، وأنها في معظم الأحيان كانت مبنية على تقييمات تقريبية. حيث لم يكن هناك بحوزتي أبسط الأدوات المطلوبة، سواء أكانت ساعة أم بوصلة لأقوم بتجارب علمية، لذلك فإن ملاحظاتي على الأغلب غير دقيقة البتة. كما توجّب علي تقصّي كافة المعلومات تقريباً وفقاً لمنظور أكثر الشرقيين جهلاً وخرافة، وهم الهنود. (كين)

في أحد الأيام قمت برحلة إلى قمة جبل أبي قُبيس Kubays، الذي يبعد ربع ميل تقريباً عن مركز المدينة، ويرتفع لخمس أو ستمئة متر علواً، تزيد أكثر من ناحية الشمال، حيث تسنى لي من هنالك التمتع بإطلالة أعلى ومشاهد أبهى. من ذلك الجبل يقال بأن محمّداً تصارع مع أحد الكفرة النماريد وغلبه برغم أن ذلك النمرود كان من القوة بمكان. وعلى ذلك الجبل أيضاً أمر محمّد القمر بالانشقاق فانشقّ إلى قسمين: أحدهما في الشرق وآخر في الغرب، ثم توارى في كمّ عباءته[1]. وعلى قمة ذلك الجبل سيجثم الحَرَم يوم القيامة قبل أن يصعد إلى الجنة حاملاً معه كل المسلمين الناجين.

هاهنا يوجد مسجد صغير، يمكن من خلاله التقاط نظرة عامة لكامل المدينة التي تستلقي في منخفض بين جبال عالية تتراوح بين خمسمئة إلى سبعمئة قدم، ولربما يرتفع فوق سطح البحر ما بين ألف ومئتين إلى ألف وخمسمئة قدم فوق سطح البحر. إن ذلك الوادي، الذي يمتدّ حتى الميل ونصف الميل طولاً وثلث الميل عرضاً، يكتظّ بالمباني من كافة الأشكال والأحجام، التي تتوزع دون ترتيب وتتسلق المرتفعات المجاورة، مع بضعة منازل نائية على قمة بعض المرتفعات الصّخرية، فتبدو وكأنها على أتم الأهبة والاستعداد تنتظر الفرصة لتشق طريقها وسط الزحمة أدناه؛ أنظر إليها فلا أرى سوى مجموعة من المباني الرّمادية بمظهرها غير المألوف لعين رجل أوروبي، مسطحة من الأعلى ولا سطوح لها، لم يستخدم الجبس في بنائها إلا قليلاً، إذ أنه في مناخ كهذا إما أن يستخدم لتزيين المنازل أو أنه يتساقط عنها ولا يثبت عليها. أما الجدران فكانت عبارة عن حجارة غير منتظمة الشكل بسماكة ثلاثة أقدام إلى ستة، وفي المباني العالية يتم استخدام حجارة أسمك منها، كما تستخدم الحجارة في إطارات النوافذ والأبواب وأقواس الممرات، وغالباً ما ترى بعض القرميد متناثراً هنا وهناك في البناء. بالرغم من سماكة الجدران الكبيرة، فإنك ترى آثاراً متداعية على جوانب الطرقات في كل أرجاء المدينة.

---

(1) كلام مغلوط وأساطير شعبية لا أساس لها من الصّحة أبداً.

يتمتع عدد من المنازل بارتفاع كبير وحجم وشكل مثل المصانع الكبيرة، تحيط بها النوافذ الصّغيرة من كل مكان؛ ومن النادر أن ترى منزلين متجاورين بنفس الواجهة أو نفس الارتفاع، حتى أن أحداً مهما شطح به الخيال لا يمكن أن يستخرج من فوضى المباني تلك شيئاً يشبه الشارع أو الممر. كان من المستحيل، حتى من إطلالتي التي أنظر منها، أن أقتفي أثر مئة يارد من الأرض المشكوفة بين المنازل في أي اتجاه كان (فالعديد من الممرات مكسوة بألواح خشبية حتى أنها تخفي الأرض تحتها)، باستثناء ضواحي المدينة، حيث تتناثر منازل اثنتين أو ثلاث من الضواحي على انحناءة أقل مخارج الوادي انحداراً، حيث تم بناء القليل فقط من المنازل، برغم أنها تتبع نفس النظام الفوضوي. وكأن القاعدة المتبعة في تلك البيوت ألا يشبه بيتان أحدهما الآخر، وهي مزيّة شرقية متأصلة في الفوضى التي تعم كل شيء في مكّة، تلك المدينة التي تم بناؤها من أنقاض الصّخور حواليها، والتي تبدو منظمة بنسبة ثلاثين بالمئة فقط.

تلك الشوارع والطرقات التي شُقت عبر نتوءات الصّخور الكلسية، والتي تجوبها حشود الناس من ذوي البشرة الداكنة، إذا صحّ إطلاق هذا الوصف على تلك الفوضى العارمة، لا تذكرني إلا بأوكار النمل الكبيرة. لقد كان هنالك شبه كبير بين تلك التفاصيل المتناقضة التي يبرز من خلالها الحَرَم وكأنه نار على علم عندما يركّز المرء انتباهه، وبالتأكيد فهو أهم معالم مكّة. إنه عبارة عن شكل رباعي، أكبر أضلاعه الشمالي الشرقي والغربي الجنوبي، تحيط به أربعة صفوف من الأعمدة التي تعلوها الأقواس، يبلغ أطولها مئة وتسعين ياردة وأقصرها سبعاً وعشرين ياردة، وتلتصق به المنازل من الخارج باستثناء الجانب الشرقي، حيث يحيط شارع بجدران الحَرَم إحاطة السّوار بالمعصم.

يتوضع على الأروقة، التي ترتفع خمسة وعشرين قدماً عن الأرض، صف من القبب الصّغيرة بعدد ست وثلاثين في الجانب الطويل منها وأربع وعشرين في الجانب القصير، وذلك على منتصف سطح الأروقة الذي يبلغ عرضه خمسة وخمسين قدماً. لكن عند المدخلين الرّئيسيين، اللذين يتوضعان في منتصف الجانبين الشمالي

والغربـي، يبـدأ السّـقف بالاتسـاع، لذلك تجـد هناك صفين مـن القباب، التـي لم أقم بعدهـا. تحت الأروقـة تم بناء مكاتب الحَـرَم لذلك لا يمكن رؤية السّـقف من هناك. وعلى محيط الحَرَم تتوزع سـت مآذن يفصل بينها مسـافات متسـاوية، اثنان منها ترتفع أكثر من مئة وخمسـين قدماً في السّـماء. ومن داخل الأروقة تنبثق عدة ممرّات حجرية تقود عبر السّـاحة الحجرية إلى فسـحة بيضوية معبدة حول الكعبة، وهي بناء مسـتطيل مهـول لا زخارف ولا ملاط فيه تبلغ مسـاحته ثمانية وثلاثين قدمـاً طولاً وثلاثين قدماً عرضاً ويرتفع في السّماء أربعين قدماً.

تحققت من ذلك لاحقاً عندما تم رفع جزء من السّتار، حيث تتم تغطية الكعبة عادة بستار من القماش السّميك الذي يحتوي في جزء كبير من تركيبته على الحرير ويحيط بـه على مسـافة عشـرة أقدام من الأعلى شـريط بسـماكة قدمين ونصف مشـغول عليه بالذهـب كلمة التوحيد، وتم نسـج كامل الرّداء الأسـود وتزيينه بنفـس الطريقة. وعلى الأرضية يلتمع البلاط الرّخامي تحت أشعة الشمس، ذلك أنه يلمع على الدوام بأقدام الحجّـاج الذين يروا في كافة السّـاعات ليـلاً ونهاراً يؤدّون الطواف. في سـاحة الحَرَم توجد أبنية أخرى، مثل النصب الذي يرتفع فوق بئر زمزم، والمحاريب التي يقف فيها أئمـة المذاهب. فضلاً عن أسـراب الحمام الهزّاز الأزرق الـذي يحوم عالياً ويحط في كل مكان ممكن، كان هذا كل ما يظهر من الحَرَم من موقعي هذا.

وهنالـك كانت ثـلاث حاميات أو قلاع تركية فوق أعلى المرتفعات المشـرفة على المدينة، تغطي مداخلها الرّئيسـية، مشـكّلة مثلثاً تتوزع رؤوسـه بين الشـمال الشـرقي والغرب والجنوب. كان جبل أبو قُبيس Kubays، مثله مثل أي من تجمعات الحجيج الأخرى، موئلاً للمتسـولين، وخاصة اللجوجيـن منهم، حيث يحتل الأكثر جرأة منهم الموقع الأفضل، ويقومون بمدّ منديل أمامهم ترى عليه بضعاً من قطع العملة المعدنية وشـيئاً مـن حياء السّـائلين وكرامتهم المهدورة. قبـل أن أغادر تمكّن أحد المتسـولين الشـرقيين من إرغامي علـى إعطائه عدداً كبيراً من قطع العملـة. بعد ذلك تبعتني صبيّة عربية بعينين كعيني المها لكن دون أية مسـحة خجل على وجهها أثناء مسـيري نزولاً،

وأسفرت عن وجهها عندما وصلنا إلى السّفح لتسلبني آخر قرش كان معي.

إن كل الأرقام والقياسات الواردة هاهنا قد تم أخذها في أوقات مختلفة، ولكن وفق مقاييس منتظمة كنت أتبعها كلما واتتني الظروف. كنت أينما ذهبت آخذ معي عصا بامبو بطول ياردة تماماً، ألقي بها هنا وهناك كيفما اتفق أثناء تجوالي لأقيس بها المسافات. لم يكن أحد ليشك في ذلك المؤمن المتفاني الذي يزحف على يديه وقدميه ليلاً حول الكعبة المشرفة ليقيس المسافات بعصاه، ظناً منهم أن تلك التمتمات التي يهمهم بها هي صلوات وأذكار. أما ارتفاعات الأبنية فكنت أحصل عليها عن طريق قياس ظلالها التي تساوي نسبتها إلى المبنى الأصلي ثلاثة أقدام بالنسبة لعصاي، وذلك في حالات الأبنية المستوية فقط، كما هنا في الحَرَم، حيث يمكن الاعتماد على القياسات التي يتم أخذها بالقدم بدقة مقبولة، وتدوينها على الورق.

بعد ظهيرة ذلك اليوم تجرأت على دخول الحَرَم وحدي لأول مرة. وعند وصولي إلى مكّة لم أكن في وضع يسمح لي بمشاهدة معالمها، نظراً للرحلة التي أنهكتنا بعد أن جاءت بي الأقدار ووضعتني في محيط غريب عني كل الغرابة. ولكن الآن بعد أن استقرّ بي المقام وشعرت بأني في أهلي وبين ناسي صار بإمكاني التجول في أي مكان شئت في مكّة. كان هناك على كلٍّ من أبواب الحَرَم حارس، غالباً ما يكون هندياً، يتولى العناية بأحذية المصلين عند دخولهم، ويضع كل زوج في خزانة مخصّصة لذلك. فإذا كنتم ممن اعتاد على الدخول من نفس الباب، ستعمدون إلى تقديم هدايا وإكراميات للحارس في كل مناسبة، عيداً كانت أم غير ذلك، أما إذا كنتم تدخلون لأول مرة، أو من بوابة لم تعتادوا الدخول عبرها، فسترون كيف أن ذلك الحارس يستجدي شيئاً من المال؛ على الرّغم من ذلك لا ترى أولئك الرّجال يتسوّلون بشكل رسمي، لذلك استنتجت أنهم يتقاضون راتباً من إيرادات الحَرَم.

إن أكثر ما يلفت الانتباه عند دخول الحَرَم لأول مرة هو تلك المسحة من الخشوع على وجوه الناس؛ وكل من يذهب إلى صلاة الجمعة[1] يذهب بسكينة ووقار متكلماً

---

(1) في الأصل الإنكليزي كتب المؤلف: صلاة الأحد، من الواضح أنه سبق قلم منه.

بصـوت ملـؤه التبجيـل والأدب، وتـرى الجالسـين متربعيـن علـى الأرض وأرجلهم تحتهـم، وهـي الكيفيـة المتبعة في الجلوس في كل مكان وبشـكل خاص فـي الحَرَم، أمـا المسـتلقين أرضاً فتراهم يحوّلون أرجلهم عن الكعبـة. ومن أراد حمل حذائه بغية الخـروج مـن باب آخر غيـر الذي دخل منـه فعليه أن يطبـق النعل علـى النعل، وليس لأحـد أن يبصـق فـي الحَرَم، إلا عنـد موضع قدميـه. لا يدخل الحَـرَم إلا كل صاحب عذر من المتسـولين، مثل أصحاب الإعاقات أو من بلغ أرذل العمر من العجائز، دون أن ينتزعـوا منـك صدقة بعد حصولهم على «البخشـيش»، وذلك عـن طريق اعتراض طريقك وعرض عجزهم وإعاقتهم على المحسنين الكرماء استجداءً للصدقات. لكن الذي أثار دهشـتي واسـتغرابي لوقت طويل هو أحد المتسولين المكفوفين الذي رأيته يتنقل بسـرعة وخفّة من مكان لآخر بين الأعمدة التي تنتشـر بكثرة حاملة الأروقة على رؤوسها دون عصا أو أية وسيلة مساعدة أخرى، حتى اكتشفت بعد مراقبته أنه يتحسس الفواصل بين البلاط الذي يمشي عليه بإبهام قدمه.

بين الحشـود يتجول عدد من السُّـقاة يقفون هنا يسـقون النـاس، أو تراهم يأخذون إكراميات سـخية من الناس. وفي حال لم تدفع لهم شـيئاً بعد شـرب الماء فإن كرمهم يتجـاوز كافة الحدود، حيث يتجلى بحفنة ماء تسـكب عليك من الرّأس حتى أخمص القدميـن. وبمـا أن المـاء هو مـاء زمزم فإن ذلـك يعتبر تكريمـاً ما بعده تكريـم، يقابله صاحبـه بابتسـامة عريضـة مقابل تلـك الدّفعة مـن الماء، مبدياً البشـر والسـرور، بينما يتقاطـر الماء نزولاً عبر ظهره. غالباً ما تشـاهدون المصلين حِلقاً حِلقاً ليل نهار يؤدون صلواتهم وأذكارهم، بتناغم صوت رجل واحد، يتمايلون وجداً وطرباً، الأمر الذي لا يمكـن إطلاق صفة الرّتابة عليه بحال من الأحوال. يسـتمر ذلـك الذكر والتمايل على الوتيرة ذاتها ما شاء الله أن يستمر. وبعد ساعات عدّة تأخذ الذاكرين حالة من الذهول ويستغرقون في ملكوت الله ويحلقون في أعلى مراتب التجلي، يذكرني حالهم بنوبات الصّرع. إن تلك الأحوال والتجليات منحة من الله لا مجهود شخصي، حيث يُنظر إلى أصحاب التجليات تلك بكبير من الإجلال والتبجيل.

ينبغي أن يُحترم إيمان المرء أياً كان؛ ولكن عند نظري للأمور بعقلية الرّجل المتعصب يولد في داخلي الحزن والأسى، وخاصة عندما أفكر بأن ذلك الدين القويم قد ظهر على يد المخلّص الذي يدعى محمّداً، والذي كان العالم عند مجيئه غارقاً في الجاهلية، إن كان كذلك فعلاً، والكراهية الكبيرة التي تكنها له المسيحية بشكلها الحالي إن كنت محقاً. إن الدين الذي بشّر به رجال مخلصون مثل عُمر، واعتنقه أهل المغرب من البربر بكل صدق وإيمان، ودافع عنه فرسان أشدّاء مثل صلاح الدين قد اختُزل الآن على يد أولئك الشرقيين الضعفاء إلى مجرّد إقامة الصّلوات.

كم سمعنا مراراً وتكراراً عن توقف انتشار الديانة الإسلامية وأخشى ما أخشاه، بما أن ذلك الدين المؤثر لم يستقر في سويداء قلب أولئك الشرقيين، أن يكون قد ترك بدلاً من ذلك شيئاً من الخوف والتوجّس من المسيحية. وفي حال صار كافة أصحاب البشرة الملونة، سواء كانوا من أصحاب البشرة الحنطية أو الزنوج، من أتباع الكنيسة الإنجيلية الصّغرى غداً، فإنهم سيستهلكون نفس كميات الأفيون والتبغ التي كانت تستهلك من قبل، إذ أن أفضل ما حصلت عليه البشرية هي الكحول والمسدّسات التي قدّمها البروتستانت، وهي عدة المقاتل المسيحي التي تتبعه أينما حلّ وارتحل، ذلك المقاتل الذي لا يُشقّ له غبار.

بالمناسبة، إني ككاتب لا أضع حواجز في وجه قرائي كتلك الحواجز التي توضع أمام رواد الحدائق العامة إذا رغبوا اختصاراً للطريق بالمرور فوق العشب الأخضر الطري. أثناء تجوالي في أروقة الحَرَم لأول مرة انتابني نفس الشعور بالامتعاض الذي انتابني عند ارتكابي للخطيئة أعلاه، مع أنني أتذكر الشعور بالخطيئة عندما عشت تحت وطأته لأيام عدة منذ سنوات خلت وذلك عندما خدمت في كنيسة معارضة.

كيف لسنوات عجاف يعيشها إنسان أن تخرج التحيّز والتعصب المتأصل من قلبه؟! لكني الآن يكفيني أني قد قابلت عدداً من الرّجال الطيبين، نعم إنهم لطيّبون حقاً وفعلاً، وهم ينتمون لمختلف الأديان، كاثوليك، مسلمون، بروتستانت أو حتى

بوذيين، من الذين يغلب خيرهم على شرهم، لذلك فإني أشكر الله على أن العالم لا يزال مكاناً صالحاً للعيش فيه. لا بد أني أسترسل في الحديث كثيراً ولكن يجب علي ألا أفعل هنا، مع ذلك أذكر القارئ بأني قد وعدته أن أروي قصتي بطريقتي الخاصة، لذلك أطلب منه تحمل استرسالي في الحديث من حين لآخر، وأرغب قبل التوقف مرة أخرى في هذه الرّحلة الطويلة أن أهمس كلمة في أذنك إن كنت القارئ الذي أكتب له بأني لن أتوجه إليك بأية تعليمات أخرى.

إن المُحمّدية هو الاسم الذي يطلقه المسيحيون على الدين الذي لا يعرفه أتباعه بذلك الاسم، إذ أنهم يطلقون على أنفسهم اسم «المسلمين»، وينظرون إلى إلههم، برأيي المتواضع، بمنتهى التبجيل. إنهم يؤمنون بصدق بكافة الأنبياء والمرسلين من لدن آدم مروراً بإبراهيم وموسى وعيسى وصولاً إلى محمّد الذي يعتقدون أن نبي المحبّة والسلام قد بشّر به، وأن محمّداً قد بشّر بعودة المسيح للدنيا مرة أخرى. وفي العقيدة الإسلامية فإن ذلك الظهور قد بات وشيكاً جداً، حتى أن تلك العبارة كانت تُردّد مراراً وتكراراً على ألسنة الحجّاج الذين ينتمون لسائر الأمم. كما أن الفكرة القديمة القائلة باقتراب العالم من نهايته تسيطر على العالم الشرقي، وبشكل عام فإن هذه الفكرة قد نضجت بشكل يكفي ليتلقاها بعض الدراويش مثل بطرس النّاسك Peter the Hermit، الذي لو جاء إلى بعض المدن مثل حيدر أباد في شبه القارة الهندية، لكال له الإسلام ضربة في المقتل في عام أو اثنين. على كل حال، ليس هنالك من داع للحذر الشديد، فلم يعودوا على قلب رجل واحد كما كانوا للعودة إلى جهادهم وفتوحاتهم.

* * *

عند العودة إلى مكّة كانت ملاحظاتي واستفساراتي هي الأمور الوحيدة التي أعادتني لهويتي، فلقد اعتدت على محيطي وعلى الظروف المحيطة بي حتى أنني في ستة أسابيع أحسست أني في وطني وكما لو كنت مسلماً طوال عمري. لقد كوّنت

صداقـات، ودخلت في مشـاحنات وتبادلت الغيـرة مع أصحابي في السّـكن، فقد كنا جميعـاً نملك نفـس الاهتمامات ونتناول الأطعمة ذاتها دون أن يقدّم أحدنا للآخر ولو قطعة من طبقه بالرغم من أن الرّغبة في ذلك غالباً ما تكون أقوى من أن تُضبط. والذي يفهم كلامي هذا جيداً هم الدارويـنيّون.

كان شـريكاي فـي الطبق شـيخاً مكفوفـاً، ورجلاً مهذبـاً لديه إصبعـان فقط في يده اليمنى التي يتناول بواسـطتها المسـلمون طعامهم. وبحزن شديد قمت بتناول طعامي لوحـدي ظنـاً مني أني سـأحصل على فرصـة أفضل، لكـن عند أول مرة جلسـت فيها لأتنـاول وجبتي، وجدت أني قد تسـبّبت بالحزن والأسـى لصاحبـيّ، إذ أني لم أرَ أبداً رجليـن لديهمـا هذا الولع بالأرز بالكاري، أو من لديه تلـك المهارة في التهام الطعام. في البداية كنت حسّاساً جداً، وكنت لا أرضى أن أرى يداً سوداء يقطر منها الدّهن وهي تعيث فسـاداً في طبقي. لم يبدُ أنني كنت أسـتمتع بالوضع كما يجب، ولكن كان يجب علي التخلص من تلك الحساسية.

فـي البدايـة كنت أرسـم خطـاً وهمياً في الطبق بين قسـمي وقسـم شـريكي ثم أبدأ بتناول الطعام في قسمي. تلك الحال لم تدم طويلاً، إذ أن أصابع الرّجل ذي الإصبعين وصلت إلى قسمي قبل أن أضع ثالث لقمة في فمي، أو أن يد ذلك الشيخ النحيلة كانت تتلـوى فـوق الطبق كثعبان ناثرة ما التصق بها من أرز من آخـر لقمة التهمها، ليقع ذلك الفتـات على قطعة لحم كنت أضـع عيني عليها من البداية، لكني لو تناولتها من البداية سيظهر ذلك أنني بغاية الجشع. في الحقيقة أني لـم أحظَ بالفرصة التي كنت أتمناها، إذ أن شـريكيّ كانا يذهبان بخمسـة أسداس الطبق في كل وجبة ويحمدان الله بعد الطعام ويشكرانني قائلين: «ما أقلّ ما تأكل يا محمّد أمين»، بينما يتقاسمان آخر لقيمة بينهما.

فـي رأيـي، إذا أراد الإنسـان أن يتظاهـر بأنه يعرف كل شـيء عن الهنـد فلا بد على الأقل أن يكون لديه بعض الشغف بالأرز والكاري. وبعد أن امتلكت المهارة الخاصة بذلـك صـار بإمكاني تقديم الوصفة التالية لمن يرغـب: ضع قدراً على النار وضع فيها شـيئاً من الماء؛ أضف الزعفران بالإضافة لمسـحوق التوابل الحـارة إلى درجة انعدام

الحسّ في أكثر الحليمات الذوقية حساسية، والتي تفضل الموت على تذوق لقمة منها، حيث يمكنك أن تدعوها بوصفة الطاهي الواعد. يمكن طهي هذه الوصفة بأي طريقة تشاء، وأن تتركها على النار للمدة التي تشاء؛ في تلك الأثناء عليك البحث عن مكونات أخرى تضيفها على ذلك الطبق ولا يهمّ على الإطلاق ما هو ذلك المكون، حتى لو كان حفنة من الطلقات أو قطعة من الورق البني، لذلك أضف إليها أي شيء ولا تخَش على نفسك فسوف تكون بأمان. يمكنك تناول هذا الطبق في أية وجبة كانت، في الفطور أو الغداء أو العشاء، إذ أنها تناسب كافة الأوقات، وفي حال ارتآها أحد الضحايا لاذعة جداً، وأردت أن تبدو في نظره هندياً أصلياً، يجب عليك أن تقسم بالله أنها لا تمت للحدّة بصلة.

بعد وجبة العشاء، اعتدنا جميعاً على الجلوس حول مصباح في وسط الغرفة وتناول شيء من الحلويات وتدخين الشيشة وتجاذب أطراف الحديث. لطالما تولّعت بالشيشة، حيث يمر الهواء عبر حجرة مملوءة ماءً تعمل على تنقية الهواء من الذرات الصّلبة وتكثف البخار الناجم وتبرد الدخان الذي يتجمع في الرّئة ويعطي شعوراً مهدئاً، بالرغم من كونه مؤلماً للمبتدئين.

في بعض الأحيان كنت أقص قصة تأخذ شكل الحوار التالي، حيث يبدأ الأمير بسؤالي:

- أحقاً أنك زرت عدداً من البلدان يا محمّد أمين؟

- ولم لا يا صاحب السّمو؟ ألست بحاراً، والبحارة في سفر وتجوال دائمين؟

- سمعت أن هنالك أسماكاً في البحر واحدتها أكبر من سفينة؟

- نعم لقد رأيت واصطدت العديد منها في بحر جنوب الهند.

وهكذا أسترسل في الحديث عن الحيتان والأسماك الكبيرة حيث يصغي المستمعون بانتباه، ويلقي الأمير بين الفينة والأخرى أسئلة بغاية المكر والدهاء، أو أحدثهم عن بلد لا ترى الشمس لمدة ستة أشهر، حيث بالكاد ترى أرضاً، إذ أن الغالب

هو الجليد في كل مكان، عندها استغرب الأمير قائلاً :

- حقاً؟! هل هنالك من مكان كذلك في العالم؟

- نعم يا سموّ الأمير.

- وبما أنه لا شيء هناك سوى الجليد، فإلى أي شيء تبحر السّفن إذن؟

لقد كان ذلك السّؤال بمثابة امتحان لي، وصاح الموجودون : نعم، نعم، ناظرين إلي بترقب لمعرفة الجواب.

«نعم يا إخوتي، لقد كان هناك حيوان كبير يسمى حصان البحر، وهو بحجم جملين كبيرين، له جسم ثور، وأقدام تمساح، ورأس نمر، وأنياب فيل، وذيل سمكة؛ لقد كان سميناً جداً، ولقد هممنا باصطياده».

- ظهرت آثار الدهشة على الوجوه، وختم الأمير النقاش بقوله:

- حسناً، وماذا يأكل هذا الحيوان حتى صار بهذا السّمن؟

- يأكل أسماك البحر.

بعد ذلك تعالت الضحكات وانطلقت صيحة استغراب تقول: «يا ألطاف السّماء، ما أكذب هذا الرّجل».

لقد ابتدعتُ عدة قصص مثيرة لتسليتهم، وتبين لي أن الأقاويل هنا، كما في سائر أنحاء العالم أكثر مصداقية من الحقائق. لم يصدقني أحد عندما قلت بأني قد رأيت المرحوم السّلطان عبد العزيز بكل عظمته وأبّهته؛ حتى مجرّد وصف مظهره لم يلقَ أي اقتناع.

بشكل عام لم أكن في تلك الأيام تعيساً، ولا أزال أتذكر العديد من الأمسيات الجميلة التي قضيتها مع أصدقائي المسلمين الذين كانوا يكنّون لي شيئاً من الودّ وينظرون لي كصديق محبّب مسالم، خاصة وأني كنت على الدوام مطبقاً لكافة واجباتي الدينية على أتم وجه. لطالما أبهرت معرفتي ومعلوماتي الدينية حتى الشيخ

الكفيف، على الرّغم من أني لم أكن من المتقنين للكتابة والقراءة، وأمضيت كامل حياتي بين مسلمين لا يفقهون من الإسلام إلا اسمه. بالإضافة إلى ذلك فقد أقمت عدداً من العلاقات في الخارج، ومنها صداقتي مع حلاّق عجوز ثرثار، كنت أذهب إليه مرتين في الأسبوع لحلاقة شعري. لقد كان ذلك الحلاق جندياً في الجيش البريطاني، وقد صاحبته لأني وجدته بغاية المرح. لقد كان على معرفة تامة ببومباي، وكان يحب تبادل وجهات النظر معي، خاصة في الحديث عن أولئك الشياطين الإنكليز، الذين لا أعتقد أنه يحمل عنهم ذكريات طيبة، فقد كان يشاركني استيائي المحمّدي منهم، مظهراً شيئاً من الكراهية بدوافع وطنية.

في أحد الأيام التي شهدت ركوداً في العمل والحديث معاً، ذكر لي الرّجل العجوز بالصّدفة عبارة مفادها وجود امرأة إنكليزية في مكّة تدعى الليدي ڤينوس.

لقد كان ذلك مفاجئاً جداً بالنسبة لي، لكني بذلت جهدي لعدم إظهار مشاعري الحقيقية، ولم أظهر سوى استجابة لا مبالية، سائلاً:

- يا سبحان الله، كم من الزمن صار لها هناك؟

- العديد من السّنوات.

- في أي دار للحريم تقيم؟

- ولا في أي منها؛ إنها تعمل في الخياطة وتعيل نفسها، أعطاها أحد النبلاء غرفة في الدار الخاصة به، حيث تؤدّي له بعض الأعمال. إنها امرأة عجوز.

- لا أعتقد أنها امرأة إنكليزية من عروق صافية. بل على الأغلب أنها مختلطة الأعراق.

- كلا يا صاحبي، إنها سيدة بكل معنى الكلمة. هل ترغب برؤيتها؟

- نعم سأتحدث إليها بالإنكليزية وأكتشف من هي بالفعل.

ذلك أني لم أخفِ شيئاً من إنجازاتي المسيحية، بل على العكس كنت فخوراً بها

حتـى أنـي تظاهـرت بأني أعرف أكثر ممـا أنا عليه. لا أسـتطيع أن أتكهن فيمـا إذا كان الحلاق العجوز يريد اختباري مع سيدة إنكليزية، أو إن كان يقوم بذلك فعلاً بدافع من الفضول، فلم تكن هنالك من أهمية للدوافع والأسباب. على كل حال فقد رتب مقابلة في منزل نسـيبه (الشـيخ) في السّـاعة الثانية من اليوم التالي، قائلاً بأنه متأكد من قدوم السّيدة. يبدو أن الرّجل العجوز كان يحاول خداعي بغية الحصول على شيء من المال كإكرامية، وعلى كل حال فقد حصل عليها. يجب أن تتأكد أنني تلك الليلة لم أفكر إلا بشيء واحد وهو استحالة وجود سيدة إنكليزية في مكّة لبضع سنوات. لقد رأيت سابقاً سـيداً يقـود فريق ثيران بثوبه الذي يجر ذيلاً من خلفه، كمـا رأيت أحد خريجي جامعة كامبريدج يعمل على سطح مركب، أما هذا الأمر فهو شيء مستحيل.

بقيت أفكر أنني أصبحت الآن هنا، ولم أجد الوصول إلى هذا المكان من الصّعوبة بمـكان، وتناوبتني الهواجس حيث أني لا أعرف كيفية الخروج من هاهنا في حال أراد أحدهـم منعي لأقضي بعد ذلك بقيـة عمري في ذلك البؤس والشـقاء، مدفوناً بالحياة في مكّة. صحيح أن بإمكاني تحمل ذلك أثناء الإبداع والتمتع بالإثارة لتمثيلي دوراً في غاية الصّعوبة، لكن اثني عشـر شـهراً سوف تقتلني. قلت كلا، لا يمكن أن تكون سيدة إنكليزية، وصرت أقنع نفسـي بأنها لا بد أن تكون مولودة في الرّيف الإنكليزي، لذلك فهي تنحدر من عروق مختلطة، الأمر الذي يعتبر مسـوغاً لاعتبارها إنكليزية. على كل حال يجب أن أتأكد.

في اليوم التالي ارتديت ثوباً كثوب المتديّنين وربطته بنطاق أحمر فاقع، مولياً عناية خاصة لعمامتي ولفاتها كما كنت أفعل دائماً مع قلادة عنقي البيضاء. بعد ذلك مشّطت لحيتي بفرشـاة مصنوعة، والعياذ بالله، من وبر الخنزير. تلك الفرشاة سببت لي الكثير من الحرج لبعض الوقت، ذلك أني أخبرت الأمير مما هي مصنوعة عندما سألني لكن أحداً لم ينتبه إليها البتة، وكأنهم لم يريدوا تصديق ذلك. وبذلت جهدي عند أول فرصة بعد ذلك لأشـرح على الملأ كيفية صناعة الفراشـي من شـعر الفيلة. إلا أن فرشـاة وبر الخنزير مشطت لحى عشرين أو يزيد من المؤمنين، اللهم اغفر لنا يا رب العالمين!!

في الموعد المحدّد هرعت إلى منزل الشيخ الصّالح بلهفة وتشوق؛ ناديت غلاماً في فناء الدار، وعرفته على نفسي، وصعدت بعد ذلك إلى الطابق العلوي، ومن ثم إلى غرفة صغيرة بحجم غرفة نوم، لكنها كانت نظيفة للغاية، والأمر الفوضوي الوحيد فيها كان كومة الغبار التي تتواجد عادة في الممشى. في أحد أطراف تلك الغرفة كانت بضعة رفوف داخلة في الجدار، فيها أوانٍ خزفية صينية، وهو ما كان منتشراً تقريباً في كل منزل محترم في مكّة؛ أما متى وكيف وجدت الأواني الصّينية طريقها إلى الحجاز بتلك الكميات فهذا ما لم أجد له تفسيراً. ربما أتت مباشرة من بلاد فارس، لكنني لم أسمع أبداً عن بضائع يتم استيرادها من هناك[1]. لقد بدا أنها قديمة للغاية، إلا أنها تعتبر تحفة رائعة لأغراض الزينة. ملئت بعض المزهريات وروداً اصطناعية، وعلى الجدار تم تعليق منحوتتين حجريتين على شكل أزهار. بالمناسبة فإن نحت تماثيل على شكل حيوانات محرّم في الديانة الإسلامية.

بالإضافة إلى ذلك كانت هنالك نافذة بقياس ستة أقدام بأربعة، بالإضافة إلى مصراعين مفتوحين من خشب السّاج الخشن تم نحتهما بشكل دقيق ومتين ولكن دون تشطيب. كان الأثاث الوحيد في الغرفة عبارة عن متكأ مبطّن حول الجدار بارتفاع ثمانية عشر إنشاً وعرض ثلاثة أقدام، عليه وسادة أو اثنتان، فضلاً عن خزانة كبيرة من خشب السّاج تتكئ على الجدار وعليها مصحف الشيخ وسجادة صلاته بالإضافة إلى عمامته. كانت هنالك على الأرض سجادة فارسية فاخرة، وبعض الحصر الصّغيرة، وبالطبع نرجيلة ووعاء لبصق التبغ.

كانت تلك الغرفة مثالاً جيداً عن الغرف في بيوت الطبقة المتوسطة في مكّة. أما سكانها فكانوا: الشيخ، وهو رجل عجوز طيب تبدو أمارات المودة على وجهه. من كان يظن أن رجلاً في مثل عمر ذلك الشيخ يمكن أن يشترك في مؤامرة؟ مع ذلك

(1) من غير المحتمل بأن يكون بعض منها يمثل بقية كنوز وآثار وصلت إلى جزيرة العرب في أي وقت خلال الخمسة آلاف سنة التي شهدت ازدهاراً في التجارة من شواطئ تلك البلاد قبل أن يقوم ڤاسكو دا غاما برحلته الشهيرة من أوروبا مروراً برأس الرّجاء الصالح وصولاً إلى شمال الصين. (كين)

فقد كان مغترباً لا يقدر على العودة إلى موطنه الأم، ويقال إنه كان واحداً من أشجع الثوار في لكنو Lucknow في الهند. لقد كنت مأخوذاً إلى أبعد حدّ بطيب معدن ذلك الرّجل العجوز الذي يبدو من مظهره. لا بدّ أنه قد قاتل وقاتل بكل بسالة دفاعاً عن عقيدته وبلاده، لكنني أعتقد جازماً أنه ما كان يتصرّف أبداً إلا وفقاً لرأيه وهواه اللذين يسترشد بهما الهندي كثيراً. جلس على المتكأ بالقرب منه الحلاق العجوز، الذي كان عبارة عن «داهية الدّواهي»، أسمر البشرة مشرقها، أبيض اللحية، بلسان كلسان البنغال، وكانت المرأة تجلس القرفصاء على الأرض بزيها الرّيفي، وبخمار ونقاب يغطيان رأسها ووجهها إلا موضع فتحتين عند العينين، حيث ترى موضع نسيج شفاف يغطيهما تنظر من خلالهما. ولكن إذا أمسكت بهذه المرأة وهززتها بلطف بحيث يسفر وجهها من تحت النقاب، فسترى الليدي ڤينوس كما رأيتها أنا لأول مرة.

خلعت حذائي على وجه السّرعة ودخلت الغرفة محيياً الموجودين بانحناءة صغيرة قائلاً : «السّلام عليكم»، قوبلت بعبارات: «تفضل بالجلوس» و«لا داعي للانحناء» من الشيخ. بعد ذلك جلست متربعاً على الأرض مقابل السّيدة، التي من الواضح أنها فهمت شخصيتي الحقيقية، لذلك كانت تلك المقابلة مؤلمة لها. خيّم الصّمت على الغرفة لبضع دقائق، وبدا من حركات يدها التي كانت تمسح بها وجهها أنها كانت تبكي.

أخيراً، تحدّث الشيخ إليها باللغة العربية، طالباً منها أن تسألني بضعة أسئلة باللغة الإنكليزية، مثل: ما هو عمري، بلدي، عملي؛ أجبت عن كل تلك الأسئلة حسب الفكرة التي أودّ نقلها للشيخ؛ ولكن عندما سألتني، بناءً على طلبه، عن كيفية قدومي إلى مكّة، وأجبتها «ألهم الله تلك الفكرة عقلي»، ترجمتها له قائلة: «إن الله قد ألهم تلك الفكرة قلبه»، فشعرت عندها بالأمان وتكلمت بحرية أكبر. بعد برهة من الزمن، وبناءً على طلبها، بدأنا بالحديث بالهندية عن مواضيع عامة لا تسيء إلى أحد، ذات اهتمام مشترك بيننا. اكتشفت من الحديث أنها تعيش بين المسلمين منذ عام 1858، وتبين لي أيضاً، بعد نصف ساعة من الحوار، أنها فعلاً سيدة إنكليزية على قدر من الثقافة. عندما نهضت تريد الذهاب سألتها بالإنكليزية فيما إذا كان باستطاعتي

مصافحتها باليد، أجابت بلا، ودلّتني على المكان الذي تصلي فيه في الحَرَم، حيث يمكنني لقاؤها في أي وقت من الظهيرة.

بعد ذلك تناولنا غداءنا مع الشيخ أنا وقريبه الحلاق المسكين. استغل بعدها الشيخ المناسبة وألقى علينا محاضرة في الدين والأخلاق، كانت نسخة طبق الأصل عن تلك التي كنا نسمعها من صحبنا الأتقياء في المنزل. لقد حرك فيّ كلامه مشاعر اللوم والتأنيب لنفسي، وشعرت بالخجل لأبعد الحدود. ولكم شعرت بالخجل عندما قال ذلك العجوز: «اذهب في حفظ الله ورعايته، واستعن بالصّبر والصّلاة، وكن متأكداً من حفظ الله ورعايته لك»، وفي نفس الوقت وضع في يدي دولاراً عربون محبة، وهي الطريقة الشرقية في التعبير عن حسن الضيافة، والتي يفضلونها على سؤال الضيف عن شرابه، مع أنهما لا يختلفان عن بعضهما البعض.

عندما عدت إلى البيت وجدت الأمير قد قرر الرّحيل فجأة إلى بيت المقدس في رحلة تستغرق يومين، لذلك كان على أربعة من المجموعة، وأنا معهم، النزول في البيت لحين عودته. خلال اليومين التاليين تم العمل بجدّ على شراء علب وصناديق لتحميل الحاجيات اللازمة للسفر، حيث تولى الأمير بنفسه أهم جزء في التجهيز والإعداد ألا وهو الحلويات، وأخذ معه «ثالث المقاتلين» وكبير الطباخين وأنا كمساعدين.

لقد أعددنا ما يقرب من خمسين رطلاً من نوع جديد من الحلوى كان الأمير يحبّه حباً جماً، لكن الأمير أكل منها الكثير قبل طهيها حتى مرض من ذلك، وأخذ دواءً مقيئاً مستفرغاً كل ما التهمه، لذلك لم نحزم شيئاً منها من بين الحاجيات. لقد كان ما يحدث مشهداً مكرّراً فالكل هنا يوجه الأوامر للآخرين، ولا أحد منهم ينفذها، وكانوا يضعون الحاجيات في غير مواضعها، تاركين أهمها للحظة الأخيرة. لم أتوقع البتة أن ينطلق الرّكب، خاصة إذا انتظروا حتى ترتيب الحاجيات في أماكنها. لكن تم استئجار الجمال والمجيء في الوقت المناسب، وبالطبع لم يكن هناك شيء جاهز.

أخيراً شقت الجمال طريقها بعيداً في الصّحراء تحمل الحاجيات على ظهرها. لكن هاهم يعودون لأنهم نسوا أحد الحاجيات، وذهبوا، ثم عادوا مرة أخرى، ولم

يزالوا يذهبون ويعودون حتى أصبحوا على مسافة بعيدة. من بين آخر الحاجيات التي نسوها كانت ساعة الأمير، وهي ساعة ذهبية إنكليزية قيّمة وجدت تحت البطانية أثناء نوم الأمير تحت تأثير الحشيش خلال ضجيج آخر ساعتين من التحضيرات. كان كل أصدقائي من الهنود مدمنين على الحشيش، وفي حالات الطوارئ كانوا يزيدون الجرعة قليلاً ويتوكلون على الله. لقد سارت رحلتهم على أتم ما يرام كما يقولون، وما ذلك إلا محض توفيق من الله، وكذلك كان رأيي. لقد تركوا وراءهم، على حدّ علمي، نصف الأغراض التي تم شراؤها للرحلة، وأخذوا معهم حمولة جملين من الأغراض التي لا فائدة ترجى منها. وقبل أن يغادروا أعطاني أمين خزنة الأمير ثلاثين دولاراً نتعيّش بها أنا وأصحابي أثناء غيابهم. والأشخاص الأربعة الذين بقوا معي هم: «ثالث المقاتلين»، وصبي من النوع الذي ما إن تراه حتى تدعوه جاك، واثنان من الزنوج بمثابة تتمة عدد، أحدهما يطبخ والآخر يأكل.

أما قصة الصّبي جاك وكيف صار من أتباع الأمير فهي بالفعل قصة غريبة. لقد كان في الثالثة عشرة من عمره وهو ابن لمزارع هندي صغير، يتوق شوقاً للسفر والتجوال، تلك الرّغبة التي غمرتنا كلنا قليلاً أو كثيراً، والتي لا بد أنها تملكت الكثير من الناس في بعض الأوقات، وكما ينظر الشاب الإنكليزي إلى البحر كصمّام أمان يمكن من خلاله إشباع ميول السّفر والتطواف التي تغلي في صدره، يشبع المسلم رغبته بذلك من خلال الحجّ إلى بيت الله الحرام. جاك هذا كانت تتملكه رغبة عارمة تعرّض بسببها إلى الضرب من والده والسخرية من أصحابه، وظلت تسيطر عليه لشهور حتى تحققت أخيراً، ألا وهي الذهاب إلى الحجّ. فما كان منه إلا أن عرض مصاحبة الحجّاج والعمل، لكن بالطبع لم يحصل على الوظيفة التي كان يحلم بها، إذ أن الحجّاج الذين يصطحبون معهم خادماً يُسدون له معروفاً كبيراً بعملهم ذلك، وبالطبع فإن أثرياء الحجّاج يصطحبون أقاربهم معهم بالصّفة ذاتها. أما أجرة تلك الخدمة فنادراً ما تزيد عن مصروف الخدم. وفي أحد الليالي بلغ الأمر بجاك مبلغه فعمد إلى سرقة إلى كل المال الذي كان والده يدخره (روبية واحدة) وفرَّ به.

خرج من منزله سائراً على الطريق بين حيدر أباد السِّند Hyderabad Scinde وكوتي Kotiee، وهنا بدأت الأحداث بالتصاعد، فقد ركب في السّفينة البخارية والقطار البخاري لأول مرة في حياته ليجد نفسه في كراتشي بعد بضعة أيام، تلك الخطوة التي كان يعوّل عليها كثيراً في طريقه إلى مكّة. بعد ذلك سافر الصّبي خلسة على متن سفينة بخارية إنكليزية متجهة نحو بومباي (ولا أعرف كيف يركب صبي ريفي متن سفينة، مع أنه كان يراها لأول مرة في حياته!)، ودخل السّجن عقاباً على فعلته تلك. بعد خروجه أخبر عدداً من المسلمين عن قصّته وطلب مساعدتهم، ومع أنهم اعتبروه فتىً مباركاً، ومع أنه تلقى الكثير من الصّدقات والمساعدات، فإن أحداً منهم لم يعرض عليه إرساله إلى مكّة. في تلك المرحلة لم تكن جذوة الرّغبة في صدر جاك قد خَبَت بعد، لكن النجاح الذي حققه حتى ذلك الوقت شجّعه على إكمال مسيرته.

كان موسم الحجّ قد اقترب، وكانت السّفن البخارية المكتظة بالركاب تغادر بومباي باتجاه جدّة، وعلى متن إحداها توارى جاك عن الأنظار في يوم الإبحار. بعد مرور أربعة أيام على انطلاقة السّفينة تم إجراء تفقد للركاب، وافتضح أمر جاك عندما اكتشفوا أنه لا يحمل تذكرة هو وستة أو سبعة ركاب آخرين. ولربما لم يكن هنالك من إجراء سيتم اتخاذه ضدهم أكثر من ركلة أو اثنتين، إلا أن المسؤولين في السّفينة أثاروا لغطاً كبيراً، وأرسلوهم إلى السّجن، في منصة الرّبان، وتمت إخافتهم وإرهابهم إلى أبعد الحدود. من بين اثنين من المسافرين المتخفّين كان هنالك اثنان من الحلاقين الذين يعتبران الوحيدين على متن تلك السّفينة، لذلك كان الحجّاج الخمسمئة الباقون مستعدين لدفع كفالة خروجهم، لكن المسؤولين لم يسمحوا لهم بالخروج من السّجن دون البقية، فأمضوا يومين آخرين في قمرة القيادة.

في تلك الأثناء سمع الأمير، الذي كان من ركاب الدرجة الأولى، بذلك كما سمع بأن أحد الموقوفين كان من حيدر أباد، ولربما كان من نفس منطقته الرّيفية، وبالطبع دفع كفالتهم جميعاً وأخرجهم. بعد ذلك أرسل الأمير في طلب الصّبي جاك، لكنه ما إن علم أنه آت من السّند وليس من الدِّكن Deccan، حتى تغيّرت نظرته إليه. مع

ذلـك سـمع قصة الصّبي، وقـرر أن يضمّه إلـى مجموعة مرافقيه كخادم لـه. إن الصّبي الآن معنـا فـي مكّة، تغمره الفرحة والسـرور، خاصـة أن الرّوبية التي سـرقها قد بقيت معـه، لا بل أضاف إليها سـبع قطع أخـرى من العملة، وحظي بلبـاس يعتبر فاخراً جداً بالنسـبة لأسـمر البشـرة مثله. أما أنا فلم أستطع مدّ جسـور التواصل مع ذلك الصّبي، بـل كنت على الـدّوام أوجّه إليه الإهانات على الطريقة الهندية وأشـتم أمّه وأخته؛ فقد كان صغيراً لعيناً. لم أشـعر نحوه بأي مقدار من العاطفة التي يشـعرها أحدنا غالباً تجاه مرافقيه وأصحابه، الأمر الذي دفعني ربما لمعاملته كما يستحق.

كانت مقصورة النسـاء في البيت قد خلت من سـاكناتها أيضاً، لكنهن نزلن في قسم آخـر مـن البيت، ولقد رأيت بعضـاً منهن هناك. ولقد اعتادت عجوز شـمطاء (لعمري بعـض أولئـك العجائـز في الشـرق يثرن الذعـر أكثر من أيـة عجوز فـي أوروبا، فوجه عجوزنا هذه يشـبه ثلاثة تجاويف في جدار طيني)، أن تستجدي شيئاً من الشاي أو أي شيء آخر مفيد قد نجود به على أم الأمير تلك التي كانت مشرفة على مقصورة النساء، وبالرغـم مـن نزولنا في مقصورة مسـتقلة فإن الطهي وما شـابه كان يتم تحت إشـراف السّيدة العجوز إياها، التي لا تتأخر عن الإيعاز لخادمتها العجوز الأخرى في إحباط أية محاولـة طهي قد نقوم بها. أما وصيفات السّـيدة العجوز، فبعد خلعهن للنقاب، يلعبن دور المخصييـن في البلاد الإسـلامية الأخرى، فـي التنقل بين غرف الرّجال والنسـاء والتجسّس على كل منها، وعادة ما يتم اختيارهن من بين اللواتي يتّصفن بقبح المنظر.

كان أول شـيء قمنا بعمله في الصّباح بعد مغـادرة الأمير هو القيام بأعمال النظافة. وهـذه أول مـرة يتمّ فيهـا تنظيف غرفة النوم منذ أن نزلنا فيها، لذلك فقد كانت متسـخة إلـى قـدر كبيـر. لقـد أخرجنا من تلـك الغرفة، التي تبلغ مسـاحتها خمسـة عشـر قدماً باثنـي عشـر، وألقينا في الشـارع (كما جرت العـادة في البلاد) ثمانية حـزم كبيرة مليئة بالمخلفـات والنفايـات والتوالـف وقطع الطعـام والعلب التالفة وقطـع الطعام ومزق القمـاش والعصي. بالإضافة إلى ذلك وجدنا اثنتين من الأفاعي وقطة ميتة والكثير من الجرذان والفئران أحياءً وأمواتاً، وحوالي خمسـة أو سـتة أرطال من الحشـرات الميتة

فـي الزاوية. وكنت أخشـى رفع السّـجادة، فلا أحـد يعلم كم المفاجـآت الذي ينتظرنا تحتها! كان كل ذلك بمثابة كنز كبير بالنسبة لجاك - على سبيل المباسطة والممازحة - أما أنا فقد وجدت بين المهملات كرة حشيش، فما كان مني إلا أن وضعتها في جيبي.

بعد ذلك قمنا بتنظيف المطبخ المجاور لغرفة النوم. كان هنالك حوض كبير للجلي فـي منتصف المطبخ، وهو عبارة عن حجـر كبير مدوّر ومقعر، يبلغ قطره حوالي أربعة أقدام، وفي مركزه فتحة مدورة يتمّ عبرها تصريف المياه المتسـخة ومخلفات الجلي. اعتدنـا الجلوس والوضـوء حول ذلك الحوض، ومن تلك الفتحـة كانت تفوح رائحة لا تحتمل «روائح جنّة عدن، وشـجر المرّ والصّبار والسَّـنا!» مـع تفاوت تلك الرّائحة مـن يوم لآخر، ولكن بشـكل عام كانت لا تحتمل. أما كميـة المخلفات المتجمعة في الأسـفل فيمكن معرفتها من سـماكة طبقة الحشـرات المتجمعة داخـل الفتحة، والتي تعجّ عجّاً وتخرج إلى السّـطح وتسـعى يمنةً ويسـرةً، وبعد ذلك تتحول إلى حشـرات طائرة تملأ الجو أزيزاً وعفونة.

اقترحـت خطـة لتعديل وضـع ذلك الحوض تمّـت معارضتها في البدايـة، إلا أنني اسـتطعت كسـب ثالث المقاتليـن والصّبي جاك إلى صفـي للبدء بالخطـة. قمنا بملء وعـاء طهـي الأرز الكبير بالماء، وهو الذي يتسـع لسـتة غالونات، وقمنا بتسـخينه، ثم بصـب المـاء وهو يغلي فـي الفتحة. أعدنـا العملية لثـلاث مرات، ولحسـن الحظ لم يعترض أحد حتى عندما طفت الحشـرات على السّـطح في المرة الثانية، وسـرعان ما بدأت أسـراب الحشـرات الطائرة بالتناقص. ثم قمت بشـراء مركّـب كيماوي للقضاء على الحشـرات وهو عبـارة عن صمغ أصفر اللون، ويتمتع برائحـة مقبولة عند حرقه، لكن تلك الرّائحة تعتبر العدو اللدود لكافة أنواع الحشرات الطائرة. فما كان منا إلا أن قمنـا بتبخيـر وتطهير كامل المكان، وبذلـك أتممنا إجراءات التعقيـم والتطهير لمنزلنا الصّغيـر. صحيح أن تلـك الرّائحة اللاذعة لم تكن عطرة لذلـك الحد، لكني أعتقد أن بأن القارئ سيتغاضى عن سوء تلك الرّائحة مقابل الرّاحة التي لاقيناها.

* * *

لـم يكن لـدي وقت للبحث عـن الليدي ڤينوس فـي الأيام الثلاثـة الأخيرة، ولكن عندمـا أتيح لي ذلك لم آلُ جهداً في السّـؤال والبحث عنها. وبالنسـبة لقرائي الذين لا يعرفون الكثير عن العادات الشـرقية، سأشـرح لهم سـبب التحفـظ الكبير الذي هيمن علـى حواري مع تلك السّـيدة، وهو أننا إنكليزيان، ومواضيـع الحوار لا علاقة لها من قريـب ولا مـن بعيد بتلك اللغة، وباعتقادي فإن ذلك يعتبر سـبباً واضحـاً وكافياً. وفي حـال كنا مـن مواليد مكّـة، فليس بمقدورنـا إجراء حـوار طلق كذلـك، لأن أصدقاءنا الفضوليين عندها لن يدّخروا جهداً في نشـر عملنا المشين (من وجهة نظر المسلمين) هذا بين الناس، إذ أن المسلمين يعدون كشف المرأة وجهها إثماً وخطيئة، إلا لأبيها أو أخيهـا أو زوجها، لذلك كانت لقاءاتنا تتم خفية عن أعين الناس. وكل من يعرف شـيئاً عـن العادات الاجتماعية الإسـلامية، من غيرة ونخوة عن الرّجـال، وعن الكبت الذي تتعرض له النسوة، سيستغرب مشيي في الشوارع مع سيدة دون لفت أي انتباه.

ولكن على كل حال فإن النسوة في مكّة يتمتعن بحرية كبيرة بالمقارنة. والعديد من المحاذير التي تتبع في أمكنة أخرى بخصوص الحريم يتم التغاضي عنها في مكّة، ومن الطبيعي أن تظهر نساء العائلات الموسرة دون مرافقة في شعائر العبادة العامة، فتراهن يصلين بين الرّجال دون تخصيص مكان مستقل لهن في الحَرَم كما يفعل في المساجد الأخـرى. في اليوم التالي لمغادرة الأمير ذهبت إلى مقصورة النسـاء في الحَرَم، والتي ذكرت بأنها تصلي فيها صلاة الظهر. بعد الصّلاة بقيت جالساً أسبّح الله.

وبالمناسـبة فـإن السّـبحة عند المسـلمين تحتـوي على تسـعة وتسـعين حبة، دون احتساب الحبات الفاصلة. وفي كل حبة من حبات السّبحة تمررها بين أصابعك تذكر عليها اسـم واحد من الأسماء التسـعة والتسعين المنسوبة إلى الله: ولا تكتمل المئة إذ أن كمـال وجـلال الله غير محدود، ولهذا يقول المسـلمون: «الله أكبـر، الله رحيم».. الـخ.. الخ خلال تسـع وتسـعين مرة، ويمكنـك أن تتخيل الباقي، نوع مـن 99.9 فكرة متكررة: أو كما يقول البعض فإن المئة هي تمام المحبة التي يتشاركها الإنسان مع ربه، وبالتالي فلم يتم ذكرها.

عندما تفرّق الجمع أمعنت النظر بثبات نحوها لبضع دقائق، لقد كانت بالتأكيد تنظر إلي، وأعتقد بأنني لاحظت إشارة خفية من يدها المغطاة بالثوب، فما كان مني إلا أن نهضت ومشيت نحوها. وعند ذلك نهضت المرأة خارجة من الحَرَم، وتبعتها على مسافة. مشينا نحو نصف ميل عبر المدينة ونحن على هذا الحال، وقد كانت تتابع النظر نحوي قبل أي انعطافة طريق للتأكد من أنني ما زلت أتبعها، وعندما توقفت سرت إلى أن وصلت إليها. خاطبتني فوراً بالإنكليزية وطلبت مني أن أسير معها وأخبرتني بأننا ذاهبان إلى أحد الأصدقاء الهنود حيث يمكننا الحديث دون إزعاج قدر ما نشاء.

بعد حوالي مئتي ياردة مررنا بمكان تضيق عنده الطريق حيث كان يقف خفير تركي، وعندها تحدثت بصوت مرتفع باللغة العربية فرددت عليه بالعربية كذلك، مستجمعاً كل المهارات والتراكيب اللغوية التي كنت أجيدها بإتقان، وبعد نصف ساعة قادتنا خطواتنا إلى كوخ صغير وسرعان ما دخلت المرأة وجلست. شاهدت الهندي العجوز الذي يقطنه وكان يبدو عليه الترتيب والأناقة. أعدّ لنا الهندي الشاي وقدم لي غليونه ومن ثم انسحب مستأذناً وانصرف ليتركنا وحيدين. ويا لها من أحاديث رائعة تلك التي تبادلناها بعد أن أطلقنا العنان للغتنا الإنكليزية الحبيسة، وأمضينا الوقت نطلق قهقهات عالية في بعض الأحيان وبكاءها في أحيان أخرى، ولا بد أنها كانت تختبر متعة غريبة في أن تتحدث وتستمع إلى لغتها الأصلية بعد سنوات طويلة.

أما بالنسبة لي فقد كنت حديث العهد بالغربة عن أبناء جلدتي الذين لم أبتعد عنهم إلا منذ أسابيع قليلة، فشعرت بكثير من البهجة والبشاشة واندفعت أتحدث وأتحدث في كل أنواع التفاهات والسخافات التي خطرت ببالي دون أي تسلسل أو ترابط، بل لمجرّد تقطيع الوقت. كنا نسأل بعضنا الأسئلة ونتابع السّؤال دون انتظار الإجابة، وبقينا على تلك الحال لثلاث ساعات من الزمن، وعندما عاد الهندي عرفنا أن الوقت قد حان لذهابنا، وقبل الرّحيل رفعت خمارها وأرتني وجهها فكانت إنكليزية مثلي تماماً. تصافحنا واتفقنا أن يكون الولد عبد الله وهو شخص نعرفه وسيلة الاتصال بيننا في المستقبل، وافترقنا وعاد كل إلى منزله من طريق مختلفة.

في تلك الليلة، وعندما استلقيت على فراشي مستعيداً أحداث النهار، أسلمت نفسي لأحلام كان محورها تلك الأحاديث السّعيدة التي أضفى عليها حسّ الخطر مزيداً من الغموض والإثارة، وغمرني شعور بهيج بأنني حظيت بمصدر جديد من السّرور مما ملأ نفسي راحة ورضا إلى حدّ بعيد في تلك الليلة. أما الأمر الذي عكّر صفوي فقد كانت كلماتها الأخيرة التي وجهتها إلي: «لا أعرف من أنت في الحقيقة، يا صغير» - وقد دأبت دائما على توجيه كلمة «صغير» إلي، وأعتقد أن ذلك كان نتيجة محاولتي في تسليتها وإضحاكها لرفع روحها المعنوية - ولم أعرف من كانت هي في الحقيقة، وهكذا فقد اندفع سيل من الأسئلة كنت أرغب أن أوجهها إليها في لقائنا التالي. لكن الإنسان يفكر والأقدار تخطط أمراً آخر، وافترضت أن أمامنا أسابيع قبل أن نلتقي مجدداً وعندها سيكون لدينا الكثير من الأمور المثيرة التي يمكننا الحديث عنها، إلا أن التناقض والغرابة الأكبر كانت في أن يغفو حاج وهو يوجّه وجهه تلقاء الكعبة مردّداً تلك الكلمات لتوماس هود:

أيها الجنس الآخر، أيها اللطيف الحنون الرّقيق.

كم تُباعدنا تصاريف القدر، وتجمعنا بذات الطريق.

* * *

الفصل الثالث

في مكّة أثناء غياب الأمير

يـا للثوب الشـرقي من ثوب جميل زادت عليه الزينة أناقـة وذوقاً، وإنني أتحدّى أن يرتدي حتى أبسـط الرّجال مثل تلك العمامة أو الحزام دون أن يعتريه شـعور بالخيلاء والزهـو. أمـا بالنسـبة لي فقـد أصبحت شـرقياً تمامـاً، وكان ثوبـي هو الأنصـع بياضاً وعمامتي هي الأكبر والأكثر نظافة، وفوق كل ذلك فقد امتلأت نفسي شعوراً بالعظمة وبأنني شخص مهم بلا شك كأصحاب الأملاك، وربما كنت مخولاً بالتصويت لتعيين القاضي، بالرغم من أنني لم أختبر حقوقي في هذا المجال. ولم تخطر فكرة أن يتساءل أحد العرب المشاكسـين عن هويتي على بالي بـأي حال، وهكذا رحت أتبختر بخيلاء في الشوارع هنا وهناك، ولكن كان الخذلان مقدراً لي بطريقة هزت أعصابي الضعيفة.

فبينمـا كنـت مـاراً في أحد الأيـام أمام مدرسـة على حـدود المدينة محاطـاً برعاية اللـه وبركاتـه، كان هناك ما يقـارب أكثر من مئة وخمسـين طالباً مـن مختلف الأعمار من الخامسـة حتى الخامسـة عشـرة يلعبون في الخـارج، فوقفت أتفرّج علـى ألعابهم المختلفـة التـي كانوا يمارسـونها، مثـل الكلل وهي لا تختلـف عن اللعبـة الإنكليزية حسبما رأيت. وشاهدت مجموعة صغيرة يحملون مسدساً قديماً ويخطفون القبعات. فـي الحقيقة كنت أتابع ألعابهم بمتعة كبيرة، عندمـا صرخ أحد الأطفال الهنود الصّغير بقربي: «انظروا النّصراني» ولا أسـتطيع أن أحزر حتى الآن ما الذي وضع تلك الفكرة في عقل ذلك الشـيطان الصّغير، ربما لأنه كان قد شـاهد الإنكليـز في الهند وقد فاجأه ذلك الشـبه بيننا، أو أنه ربما كان يقول ذلك على سـبيل اللعب والمزاح، إذ أن الأطفال

الشرقيين عموماً لا يميلون لأن يكونوا مشاكسين ومزعجين دون سبب.

ولكنـي حتـى تلك اللحظـة لم أكن قد واجهـت موقفاً مماثلاً، وحيث أنـه كان أمراً غيـر متوقع فقد تسـبب في مفاجأة كبيرة بالنسـبة إلي، كما أنه جمـع حولي جمهرة من العفاريـت الصّغـار المتواجديـن في المـكان الذيـن ردّدوا صيحته تلـك، وتقدم أحد المتنمريـن المتوحشـين من الحجم الكبيـر نحوي موجهاً كلامه إلـي بصوت عاصف غاضـب: «أيها العلج النّصراني، إذا كنت من أتباع محمّد فأدِّ شـهادة الإيمان». وحيث أننـي كنـت من أكثر الرّجال ميلاً نحو السّـلام والهدوء، أو كمـا يقول جاك: «أن أهرب لمسافة ميل، خير لي من مشاجرة تستمر دقيقة»، فقد كانت حياتي مع ذلك سلسلة من المعارك التي كنت أُدفع إليها رغماً عني، ولا بدّ أنني كنت أبدو كشخص مغلوب على أمره، رغم أني أمتلك كرامة البدوي وكرهه للمهانة.

لقـد أثـار ذلك الولد غضبي ولـم أشـعر بأيّة رغبة فـي أن أقدّم لـه أي معلومة أو أمر يتعلـق بـي. وكان كل ما فعلته أنني أمسـكت ذلك الشـخص من كتفيـه وأدرته، وقمت ببسـاطة بتوجيـه ركلة في مؤخرته كنت متأكـداً أنها أطارت الشـرر والنجوم من عينيه. والآن فإننـي لا أسـتطيع أن أتخيـل أنـه كان بإمكانـي أن أقـوم بـأي تصـرف مخالـف للمسـلمين مثـل ذلك الفعل الذي أتيته، وعوضاً عن اسـتغلال الفرصة لذكر سـيل من عبـارات الإيمان والتقوى كما كان المسـلمون ليفعلوا عند أقل اسـتفزاز، فقد وجهت إلى مسـتجوبي الأصولي إحدى أكبر الإهانات التي من الممكن توجيهها إلى شـخص مشـرقي - لقد ضربته بالحذاء - وسـرعان ما زمجر هادراً بصرخة عالية «يا نصراني»، وردّدهـا كل فـرد كان في المجموعة. لقد وقعت في ذلـك الموقف دون حماية ووقاية ووصلت الأمور إلى حدّ لم يبق فيه أي مجال للإصلاح، فما كان مني إلا أن اسـتدرت في محاولة للانسـحاب بكرامة عندما سـمعت أزيز جسم أزرق يطير جانب أذني (وقد اعتقـدت أنه حمامة) لكن ذلك الجسـم تبعثر على بعد أقـدام قليلة مني مصدراً صوت اصطـدام. عندهـا عرفت أنـه كان حجراً أزرق اللون، وتبعه حجر آخر اصطدم برأسـي مباشـرة بضربة كان من شـأنها أن تعيد ترتيب مكونات جمجمتي، لولا سماكة العمامة

الرّائعـة التي كنت أرتديهـا. لقد كان أولئك الأولاد المكّيون الذيـن واجهتهم، قادرين مـن خلال التدريب المسـتمرّ على رمـي الأحجار على توجيه رميـات تعادل في قوّتها ودقتها طلقة مسدس.

حانـت منـي التفاتـة على حين غـرة ورأيت الجمـع بأكمله قد انخرط فـي الواجب المقـدس في رجـم النّصراني حتى الموت، وكانوا مدفوعين بحماسـة وحمية تضاهي حماسـة اليهود في القـرن الأول. كانت الأحجار تتطاير من كل مـكان وفي كل اتجاه، وقد تلقيت فعلاً بضع ضربات قاسية مؤلمة. كان يتعيّن علي الدفاع عن وجهي فاتقيت الأحجار بيدي، لقد بدا أمامي مصيري ونهايتي المذلة المحتومة - الرّجم حتى الموت على يد أطفال – وكل العواقب التي ستلي ذلك والمثل الذي سأكونه. وفجأة أصابني حجر في الرّكبة وآخر في منتصف ظهري فارتميت على الأرض وعندما نهضت مجدداً لـم أعرف في اتجاه سـأذهب، فوجدتـه، كان طفلاً عربيـاً جميل الصّـورة جداً يحاول جاهداً أن يلقي بحجر كبير عليّ بعد أن تمكن من حمله بمشقة كبيرة.

ما كان مني إلا أن اندفعت مسرعاً وأمسكت بذلك الشقي المزعج الذي أخذ يزعق صارخـاً بيـن ذراعي، وتابعت راكضـاً («كما يفعل لاعبو الرّغبي») نحو عشـرين ياردة لأصـل إلى جدار مرتفع، فأدرت ظهري للجدار ممسـكاً بذلـك البائس الصّغير أمامي واسـتخدمته كدرع حماية. لقد أذهلت تلك الحركـة مهاجميّ للحظات، لكنهم عادوا مندفعيـن لإنقاذ ذلك الصّغير الهائج وكان اسـمه إبراهيم كما سـمعتهم ينادونه. يا لك من مسكين يا إبراهيم، لقد بدا طفلاً جميلاً حتى وهو ممزق الأوصال تقريباً، يا لأسفي عليـه. انتهـى الصّراع بعد برهة وجيزة وبصورة مفاجئة إذ تحطم جسـد إبراهيم بصورة رهيبـة وقد حدث ذلك على يـد أصدقائه. لقد كنت رجلاً محنكاً رغم هزالي وتمكنت مـن الصّمود في وجه ذلـك الهجوم، وانتظرت فرصتي، ثم انطلقـت مندفعاً كرصاصة متقدمـاً عليهم بحوالي عشـرين ياردة وقد أخطأتني ضرباتهـم. انطلق الجمع في إثري صارخيـن بأعلـى صوتهم، ورأيـت على مقربة محرسـاً تركياً فاندفعت إليـه دون تردّد ومررت بالحارس وارتميت قاعداً خلفه وأنا مقطوع النفس.

كانت الآلام والرضوض تغطي كل جزء من ذراعيّ وقدميّ، وقد أُنهكت تماماً. لقد أصبحت آمناً في تلك اللحظة وحظيت بفرصة كي استجمع قواي لأنجو من موقف شديد الخطورة. في تلك الأثناء كان حشد من العرب والزنوج يتجمع خارجاً وتمكنت من سماع كلمة «نصراني» تتناقلها الألسن. بدأ الحراس الأتراك يوجهون نظرات حادّة تشتعل غضباً، وقام أحد الجنود ليجلب ضابطاً وعاد خلال دقيقتين اثنتين ومعه ملازم شاب. لقد كان شاباً حسن الهيئة والهندام وبدت عليه مظاهر الرّقي والتحضر. يا له من مصدر راحة لي أن أراه في زيّه ذي التفصيلة الپاريسية. توجّه نحوي وخاطبني مباشرة ودون مقدمات باللغة الفرنسية. كنت في تلك اللحظات قد استعدت رباطة جأشي واستجمعت قوتي فرددت عليه بكل بساطة: «أنا لا أفهم التركية» وتابعت معلناً بكلمات مسترسلة: «الله أكبر، الحمد لله، لا إله إلا الله محمّد رسول الله»، وهكذا حتى عادت إلي كامل قوتي تدريجياً.

وفي نهاية المطاف خرجت مسرعاً من المحرس، لأرى أحد أصدقائي القدامى وهو عربي يعمل في تجارة الرّقيق، والذي أذكر أنه عندما كان يتفاوض مع الأمير كان قد استعار الكثير من السّجائر مني، فما كان منه إلا أن حمل عصاه متوجهاً نحو الحشد وهو يصيح: «يا أبناء الملاعين المحروقين».. وكلمات وإهانات أخرى من هذا القبيل. كان الرّجال في هذا الوقت قد وقفوا إلى جانبي، أما تاجر الرّقيق العجوز فقد أخذ يعتذر وهو يضحك، مبدياً أسفه لكل ذلك الحماس المفرط والتهوّر لدى الجيل الناشئ، مع أنه لم يخفِ إعجابه بذلك، كما ساعد الخفراء الأتراك في تفريق حشد !الأولاد برمي الأحجار عليهم.

بعد ذلك قادني الملازم نحو طريق خلفي يمكنني من خلاله الوصول إلى منزلي دون أن يتعرّض لي أحد بسوء. في طريقي إلى المنزل مررت بمقهى لأصلح من هندامي الشعث، وأخبرتهم بأنني قد وقعت عن حماري الذي جفل فجأة، وبعد أن دخنت وتناولت فنجاناً من القهوة عاد الهدوء إلى نفسي، وأخذت أمشي متثاقلاً نحو المنزل وأنا أشعر بآلام وتيبّس في كل مكان نتيجة الرّضوض في ظهري وأطرافي.

لحسن الحظ لم يكن هناك أي أثر على وجهي، وهكذا فقد استلقيت على أقرب فراش في منزلي دون أن أسمع أي أسئلة غريبة. أما خوفي الكبير فقد كان بأن تتسرب أنباء تلك الحادثة في الأحياء، الأمر الذي قد يتسبب بزيارة من بعض السّادة الفضوليين المحبين للاستطلاع، إذ كنت أعرف بأنني لن أكون قادراً على خداعهم في حال ثارت شكوكهم فعلياً وقاموا بتحقيقات جدية.

جاء العربي صاحب المنزل الذي أقيم فيه إلينا في تلك الأمسية وتسبب بقدر كبير من المشاكل عندما حاول نقلنا إلى غرفة أصغر حجماً وبالتالي يتمكن من الاحتفاظ بغرفتنا الأكبر حجماً والأفضل موقعاً إلى أن يعود الأمير، لكنني كنت أعلم أن الغرفة مدفوعة الأجر لمدة شهرين مقدماً، وهكذا فلا يمكننا تسليمها. مع ذلك كان للرجل رأي آخر، فلم يكن ليترفع عن الحصول على قرش إضافي (دولار)، ولقد سررت بالتخلص منه بثمن زهيد مشفوعاً ببركاته وشكره فوق ذلك. ورغبة مني في حماية نفسي من مثل هذه الأمور فقد أخبرت رفقائي أنني كنت مريضاً جداً (وبالفعل فقد كنت أعاني من ألم مبرّح) وبأنني أرغب في الحصول على قسط من النوم في الحجرة الصّغيرة خارج المطبخ، بحيث لن يتم إزعاجي بضوضاء أو قدوم أي زائر. وهكذا ذهبت إلى تلك الغرفة وكانت مساحتها ثمانية أقدام بأربعة، وقد نقلت إليها ملابس وأغطيتي وتكوّرت على نفسي دون أن آتي بأي حركة إلى أن يعود الأمير بعد ثلاثة أسابيع.

ثارت خلال هذه المدة تساؤلات واستفسارات ودّية عني، وقد وقف رفقائي معي وقفة جيدة وأشاعوا بناء على طلبي بأنني قد سافرت إلى جدّة، ولم أعد أسمع بعد ذلك عن قصة الشجار مع «النّصراني». وقد كانت دهشة المحارب الثالث عظيمة وكان لا يكاد يصدق عندما أخبرته بعد فترة عن تلك الحادثة، وعلى الرّغم من إصراري بأنني أعرف عن النّصارى أكثر ممّا كان يعرف، فإنه كان يزوّدني بكمّ من المعلومات المثيرة حول معتقداتهم وإهمالهم لبعض جوانب الطهارة. ولقد علمت الكثير وخاصة قوله إن جنّتهم كانت عبارة عن وادٍ ضيق أبَديّ فيه الخمر ولحم ذلك الحيوان القبيح «الخنزير».

لم تعد ثقتي بنفسي وتهوّري إلى وضعها ويبدو أنها نفدت مني، بل لا بدّ أنني أصبحت على النقيض من ذلك، ولم يكن هناك شيء قادر على تهدئتي واحتواء غضبي أكثر من كرة من الأفيون، فقد تناولت قطعة صغيرة منها في الليلة الأولى واستمرّ ذلك الحال في كل يوم من الأيام التالية، ثم زدت من الجرعة إذ وجدت أن لها تأثيراً عليّ. لم أكن أتناول سوى وجبة طعام واحدة طوال اليوم كان المحارب الثالث يجلبها إلي عندما كان يقوم بشؤون المنزل. لقد عرف أنني كنت تحت تأثير الأفيون وأبدى تعاطفاً معي ولم يكن لينصحني بحلّ أفضل، فقد كان ينظر إلى ذلك المخدّر باعتباره شفاء لجميع الأمراض.

لن أخوض كثيراً في «الآلام والمتع التي كانت ترافق مع تناول الأفيون» وكل ما أستطيع قوله هو أن ثلاثة أسابيع قد مرت عليّ وكأنها كانت ثلاثة أيام. كنت أشعر بسعادة عارمة وكان كل شيء حولي مصبوغاً بلون وردي جميل. جلست مجموعة من الرّجال المؤمنين تحت نافذتي في الحَرَم وهم ينشدون «لا إله إلا الله» مراراً وتكراراً وفي إيقاع متفاوت من نغمات تعلو وتهبط باستمرار. لقد كان ذلك مثيراً للكآبة في البداية، أما الآن فقد تحوّل في أحلام يقظتي إلى حفل إنكليزي بهيج وربما كانت نزهة في الهواء الطلق، وتحوّلت التّرنيمات إلى نشيد «لا - دي - دا» يردّد أصداءها كورس ساحر فاتن، وباختصار فلم أعانِ للحظة من أي انزعاج أو ضيق طوال تلك المدة.

كان معدّل مصروف معيشتنا دولاراً في اليوم، حيث أنني كنت أحتفظ بحساب لكافة الأموال المصروفة، ويمكنني أن أعطيكم مثالاً على نفقاتنا في يوم عادي:

مصروف يوم واحد لخمسة أشخاص:

(رطل واحد أي حوالي 14 أونصة تقريباً).............	قروش	پارات
لحم جمل 5 رطل: لحم خروف 3 رطل................	5	-
خضراوات مع الكاري – بقدونس، شمندر، كوسا، جزر	4	-
خبز 2 رطل..................................	2	-
ماء 20 غالون- 4 قرب جلد ماعز صغيرة إلى المنزل....	2	-
سكّر نصف رطل................................	2	-
تمر (أفضل الأنواع الشائعة) 1 رطل..............	2	-
حطب للنار....................................	2	-
عدس نصف رطل................................	1	-
حليب حوالي 1 ونصف پاينت......................	1	-
فلفل حار وتوابل أخرى لطبق الكاري................	-	20
حليب حامض لطبق الكاري.........................	-	20
شاي، نصف أونصة...............................	-	20
تبغ، نصف أونصة تركي...........................	1	-
زيت للقنديل، وشمع..............................	-	10
متفرقات: حلاقة، فواكه، حلويات، مصروف جيب، الخ	4	10
	28	11

وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان لدينا كميات من الأرز والسّمن والتمر الهندي في المنزل والتي كنا نتناولها بشكل يومي، من الأرز ثمانية أرطال والسّمن أربع أونصات أما التمر الهندي فكنا نتناول ما يعادل نصف رطل منه. وكانت تلك الوجبات تضاهي وربما تزيد تنوعاً عن تلك التي على مائدة الأمير نفسه.

لا يفوتني أن أذكر الفتى الصّغير إسماعيل وهو ولد عربي قابلتُه في محل والده في

السّـوق القريب حيث كنت غالباً ما أذهب إليهم ماشـياً. كان صبياً لمّاحاً شديد الذكاء، يتحدث الهندية بطلاقة وقد أحببتُه كثيراً، إذ كان رفيقاً ممتازاً لي في مرضي وكنت أراه فـي كل يـوم تقريباً فكنا نمرح ونتسـلى كثيراً، بينمـا كان يروي لي قصصاً بالسـاعات، أعـادت إلى ذاكرتي «حكم إيسـوپ» التي كنت مولعاً بها إلى حـدّ بعيد واتخذت منها مادة لرواية العديد من قصص الأطفال اللطيفة وأناشـيد الطفولة في فترة الحضانة وقد عدلّـت منهـا بالطبع لتتلاءم والمـكان والزمان، إذ لم يكن من المفيد له أن يسـتمع إلى القصيدة الأصلية التي كانت كالتالي:

هذا الحمل الصّغير مرّ بالسّوق

هذا الحمل الصّغير عاد إلى المنزل..

كما أنه لن يضحك بمرح بالتأكيد على «أنشـودة القيثارة العتيقة» ذلك لأن للأفيون تأثيراً كبيراً لم يجعلني أغيّر الكلمات بصورة مسـتمرة فحسب، بل إنني كنت في بعض الأحيان أرتجل القافية بأسرع ما أستطيع التكلم.

لقد كوّن العديد من المسـافرين إلى الشـرق وخاصة النسـاء منهم انطباعاً حسناً عن الأطفال الشـرقيين، وعلي أن أقـرّ بأنهم في الحقيقة يتمتعون بلطـف وجاذبية كبيرين. وقد تميّز أولئك الأطفال بقدرة عجيبة على أن يكونوا محبوبين وكانوا يدخلون القلب بسهولة دون استئذان، ذلك لأنهم كانوا بشكل عام يتمتعون بتقاطيع لطيفة وكان العديد منهم شديد الوسامة، وكانوا جميعاً أصحاب عيون جميلة، مع حسّ ولطف أنثويين في الكلام والسـلوك اكتسـبوها من منازل الحريم التي كانوا يقطنونها للسـنوات السّبع أو الثمـان الأولـى من أعمارهم. وقد تمتعوا كذلك بصراحـة وجرأة ملحوظة دون وجود عواطـف، وذلـك عندما يكونون فـي حضور غرباء، الأمر الـذي كان يتعارض إلى حدّ بعيـد مع ذلـك الحياء واللطف المبتـذل النمطي الـذي كان يغلّف أبنـاء المدارس من الإنكليز، والذين كان لكل منهم طابعه الخاص شديد التفرّد في المدارس العامة.

أمـا الأطفـال مـن أتباع ديار الإسـلام فقد تمتعوا بتلـك الصّفات التـي أخذوها عن

البـراءة السّـامية الفطرية، وكان مـن الصّعب على المرء أن يجـد أي كلمة في لغتهم لا يسـتعملونها بكل حرية حسـبما تقتضي الظـروف «البريء يرى كل شـيء بريئاً»، ومع كل ذلـك فقـد تمتعوا بذكاء حـاد وكانـت ملكاتهم العقليـة والفكرية متقدّمـة إلى حدّ بعيد في تلك السّـن المبكرة، وبرغم التعليم البسـيط الذي كانوا يتلقونه وكمية المعرفة الضئيلة التي كانت لديهم، فقد كانوا بلا ريب سابقين أقرانهم من الأوروپيين الذين في أعمارهم.

ولكن مع اقترابهم من سـن الرّابعة عشـرة كانوا يصلون إلى الحدود التي يبلغها أيّ من المسلمين الآخرين في مجال التعليم. كانوا يعرفون القراءة والكتابة جيداً بأكثر من لغـة، فضلاً عن قدرتهم على إجراء عمليات حسـابية بسـيطة، وكذلـك فقد كانوا على إطلاع تامّ وتم إرشادهم إلى أدق تفاصيل دينهم مع ذخيرة هائلة من العلوم الدينية التي كانـوا يوجهون اهتماماً كبيراً إليها دون أدنى شـعور بالغـرور أو الكبر. ذلك لأن عقيدة التوحيد والإيمان بإله واحد وبغض الأديان الأخرى كانت متجذّرة وراسخة عميقاً في عقول أولئك الصّغار، وكانت وجوهم الصّغيرة تلتمع بشـجاعة كبيرة عندما يصرّحون باعتقادهـم أن لا إلـه إلا الله، وسـرعان ما كانـوا يقطّبون جبينهم بعنـف عندما يلعنون الكفار بتحدٍ ظاهر وبطريقة مسلّية فعلاً.

لكـن بعد مغادرتهـم منازل الحريم، سـرعان ما تذهـب عنهم تلـك الجاذبية نتيجة اختلاطهم القاسـي مع الرّجال، ولم أجد مخلوقات أكثر من الشرقيين رعونة وسماجة عنـد انتقالهم مـن مرحلة الصّبا إلى الرّجولـة. كانوا يميلون إلى التطفـل واللجاجة مع حماقة تغلف تصرفاتهم الطائشـة، وسرعان ما كانوا يكتسبون الدّهاء والخبث والمكر والخشونة المفرطة، وهي الصّفات الرّئيسية للرجال في الشرق.

* * *

فـي أحـد أيام ديسـمبر الـذي سبق بداية شـهر قمـري جديد، عـاد الأميـر محملاً بالمشـتريات، وهـي: أوانٍ فخاريـة وزجاجية وسـكاكين للمائدة مـن القاهرة، وبعض الحلـي، ومسدسـان وبندقيـة واحدة (تُذخّر من أخمصها) من الإسـكندرية، وخشـب

وأحجار مزخرفة وفناجين وصحون، وكذلك علب سجائر، الخ. من القدس، بالإضافة إلـى نصف طن من دبابيس وإبر فرنسـية لامعة. لقد كانـوا يحملون أخباراً رائعة، وكان كل واحـد منهم يرغـب بإبهارنا بما رآه مـن عجائب وغرائب: قناة السّـويس، الأوپرا، الباشـوات وسـجائرهـم جميلة الشـكل، وخيلهم والأزيـاء الفاخرة التـي كان خدمهم يرتدونها.

سـأل رجل مسـنّ من الذين لم يسـافروا معهم: «وما الذي كان يرتديه الپاشا؟» فقد كان يتوقع أن ملابسه تفوق جمال قوس قزح.

لقد كان من الصّعب عليهم أن يقولوا أنه لم يكن يرتدي شيئاً مميزاً سوى الطربوش. لقد رأوا العديد من المسـلمين ومن المسـيحيين يرتدون ملابس متشـابهة بحيث كان يصعـب على المـرء التفريق بينهم إلا من خـلال القبعة التي كانـوا يضعونها، كما أنهم رأوا مسـيحيين يشتغلون كعمّال وقد بدا أن قولهم ذلك كان يبعث فيهم الرّاحة، وكثيراً ما كانوا يتغامزون فيما بينهم قائلين: كان هناك العديد من المسـيحيين المعدمين تحت حكم السّـلطان، وقد زاد من همّي وكدري معرفتي أنهم كانوا لا يستطيعون التمييز بين اليونانيين والإنكليز، ولم يزد السّفر من احترامهم لحكامهم قيد أنملة.

إننـي الآن أنعـم بأمـان تام عندمـا أصبحت فـي حضرة الأميـر الـذي كان يعرفني، فخرجـت وتابعـت طريقـي متجولاً. كنـت قد أقلعت عـن الأفيون فجـأة ووجدت أن أعصابـي قـد تأثرت إلى حدّ كبيـر نتيجة لذلك، حتـى لو أن غريباً قد دخـل إلى الغرفة لأجفلنـي، ولـم أكن لأجرؤ أن أترك أحداً يمرّ مـن خلفي فكنت أبقي ظهري دوماً نحو الجدار، حيث مرّت أيام عديدة قبل أن أتخلص من هذا الشعور. عندما حلّ أول الشهر القمـري، وكان ذلـك هو اليـوم التالي لإقلاعي عن تنـاول الأفيون، كنـت مريضاً جداً لدرجـة لـم أعد معها قـادراً على الصّـلاة، وبالتالي فقد فاتنـي خير كثيـر إذ أن الصّلاة فـي مكّـة في ذلك اليـوم كانت تعادل كمّـاً كبيراً من الحسـنات، ولا أذكـر بالضبط كم مـن آلاف الرّوبيـات قد وُزّعت كهبات في ذلك النهار وأعتقد أنها كانت تسـاوي ذلك العـدد من الحسـنات. أصبحت أتـردد على الأمير لمرّات عديـدة وأرتدي ملابس أقل

روعة، محتفظاً بموقعي في الظل، وقد قمنا بزيارة إلى الثلة الذين كانوا أبطال المواجهة التعيسة التي حصلت بيننا. بدا الأولاد شديدي الخجل وتظاهروا بأنهم لم يعرفونني عندما شاهدوني مع تلك الرّفقة الهامة، ولا بدّ أنكم تدركون بأنهم قد تركوني بسلام.

وعندما كنا في السّاحة تناهى إلى سمعنا أصوات صرخات عالية وزعيق ينبعث من أحد الصّفوف، فلم استطع كبح جماح فضولي في أن أتحقق من الأمر، وهكذا ابتعدت عن الجماعة وسلكت طريقي نحو الباب ونظرت نحو الداخل فرأيت صفاً تعداده يقارب العشرين ولداً كانوا يخضعون للعقاب. كان نصفهم قد تلقى عقاب الفلقة، وكانوا جالسين وهم ينتحبون بصوت خفيض جانب الجدار. كان هناك خمسة آخرون يتلقون ذلك العقاب، إذ أمسك ولدان ضخمان بقدمي كل منهما وحصراها بعصا رفيعة مع أنشوطة حبل في منتصفها حيث وضع كل من الأطفال المعاقبين إحدى قدميه ومن ثم كانوا يقومون بلف العصا حتى تنحصر القدمان في وضعية محكمة، وعندها يرفعها المساعدان حتى مستوى الصّدر، لينهال مدرس عربي ضخم الجثة على تلك الأصابع المرتعشة في محاولة للتملص بعصا غليظة من جذوع النخيل وبأقصى ما لديه من قوة دون أن يبدي أيّة رحمة أو شفقة.

لقد بدا أن هذه الطريقة فعالة جداً من خلال الصّرخات التي انطلقت وارتعاد أطراف الأولاد بينما كانوا معلقين ورؤوسهم نحو الأسفل، وقد رأيت في عيون الأولاد المتبقين نظرات تعاسة إذ أنهم سيلاقون نفس المصير. وحيث أني وجدت بينهم العديد من الأولاد الذين هاجموني بحقد وضراوة ذلك اليوم، فإنني أعترف بأنني لم أشفق عليهم كثيراً، رغم أنني لم أرغب بالبقاء لمتابعة عقابهم.

خلال الأيام القليلة التالية قمت بزيارة عدد من الأماكن المقدسة والمزارات التي كانت تحيط بمكّة بشكل كثيف، ولم تكن لترى أيّ تلة أو نبع ماء في تلك الأماكن، ولا يقال أنها كانت أماكن متميزة شهدت أحداثاً كبرى في حياة آدم وحواء أو إبراهيم أو هاجر أو إسماعيل أو بعض من الشخصيات المقدسة، أما بالنسبة لمحمّد فإن

الأقاصيص التي نُسجت ولُفقت حوله (وهو رجل شريف!) ليس لها في الواقع أيّة علاقة بسيرته الحقيقيّة المكتوبة، بل تمّ إلصاق العديد من الرّوايات الخرافيّة بها على ألسنة الناس بغير وجه حقّ.

تسأل أحدهم: «لماذا تلتقط هذا الحجر؟».

فيرد: «آه، لقد قاتل محمّد الكفار، وأرسل الله له ملائكة وأحجاراً.. الخ.. الخ».

«ولماذا تأكل من تلك الشجيرة؟».

«آه، إنها تدعى خبز النبي».

«كان محمّد وأصحابه يعانون شدة الجوع في الصّحراء وأخبرهم بأن يأكلوا من تلك الشجيرة».. الخ.. الخ.

صخور، برك وحفر في الأرض، نوق وحيوانات ... وكل شيء له تأويل وروايات غير صحيحة..

* * *

اعتدتُ أن أجد مكاناً هادئاً أجلس فيه لأتلفظ بكافة تعابير الإحباط التي أعرفها وبخمس لغات، واتخذت قراراً بأنني إن استطعت الخروج من هذا المأزق ووجدت رجلاً أبيض يقول إنه يؤمن بالمعجزات فإنني سأحضر مسدساً وأطلق النار عليه. لماذا كل ذلك؟ لو أن محمّداً كان يعمل بفاعلية منذ السّنة الأولى للهجرة وحتى يومنا هذا، وهو يقوم بالأمور المعجزة المنسوبة إليه، فإنه كان سيترك بين أيدينا بعض آثار من الخدع والحيل على الحليب والطين. ولكن هذا هراء، إذ أنه لا يمكن إثبات أن محمّداً قد قام بمحاولة صريحة واحدة ليخدع بها أتباعه ولو بمعجزة واحدة، بل إن كافة تلك الأعاجيب والخوارق هي محض خيالات من عقول شرقية تواقة لتحصل على معجزة، وكلما زاد الجهل كلما زادت التربة الخصبة لمثل هذه الأفكار.

لم أجد شخصاً واحداً بين أصحابي من كان لا يعرف بكل دقة وتفصيل ما لا يقل

عن نصف دزينة من معجزات الأمس، أو الذي لم يكن شاهداً حياً على معجزة واحدة على الأقل. ولم يمرّ أكثر من سنة على قصة بطلها عمّ الأمير الذي كان شاهداً على أن ستة جمال محمّلة قد ابتلعتها الأرض أو ارتفعت إلى أفق السّماء، وكان ذلك من عمل الشيطان الذي جاء على صورة كلب. إننا لا نعيش عصر المعجزات، أليس كذلك؟ تعالوا إلى الشرق لتروا بأم أعينكم، وليس عليكم الذهاب بعيداً إلى الشرق الأقصى لتحصلوا على النوعية الأصلية.

* * *

سأذكر لكم الآن بعضاً من تلك الأماكن التي قمت بزيارتها وسأحاول وصفها لكم. الأول هو الحَرَم ذاته، والذي حظيت بفرصة رؤيته من مكان مرتفع من جبل أبي قُبيس Kubays وسأصفه لكم بصورة أكثر تفصيلاً.

الكعبة، وهي تتوسط منطقة محصورة، يطلقون عليها مركز العالم ويصفها المسلمون بأنها مركز للكون، ويتوجّهون إليها من كافة أصقاع الأرض عند تأدية صلواتهم. وتعتبر كامل مساحة الأرض الموجودة ضمن الحدود الخارجية للرواق بمثابة قطعة من الجنة على الأرض والتي سيعودون إليها في اليوم الآخر. يتميز التصميم المعماري بتفرّده ولا أعرف له مثيلاً أو سبق أن شاهدت أي صرح أو مبنى مشابه له في أوروبا لأتمكن من إجراء مقارنة به[1].

من الممكن رؤية نموذج المسجد ذاته في القاهرة وبعض الأماكن الأخرى في الشرق، إلا أنني إن تمكنت كما أرجو من إعطاء القارئ فكرة عامة عن شكله، فلربما أوضحت له بعض مزايا شكله بعد معاينة أكثر قرباً. يمكن الدخول إليه من الشارع من خلال أبواب ومداخل بأحجام مختلفة، توجد أكبرها في الجهة الشمالية والغربية، بينما بوابة إبراهيم الموجودة في الجهة الغربية هي أكبرها وأكثرها تقوساً، وهي جميلة الصّورة حقاً.

---

(1) يقارنه سايل Sale مع مركز الصرافة الملكي في لندن، صحيح أن المكانين كليهما عبارة عن ساحة مفتوحة تحوطها الأعمدة، لكن عدا ذلك لا توجد بينهما أيّة نقطة تشابه. (كين)

ويوجد أكثر من عشرة مداخل للعامة والعديد من المداخل الخاصة الأصغر ونوافذ في أجزاء الحَرَم والمساكن المجاورة. يبلغ ارتفاع البرج ما يقارب عشرة أقدام عن مستوى السّاحة، ويتوجّه المرء نزولاً عند دخوله من خلال منحدر معبّد ومرصوف، ومجموعة من الدرجات أو عن طريق مزيج غير منتظم من الاثنين كليهما، وصولاً إلى الأروقة التي يبلغ عرضها ما يقارب خمسين قدماً وهي مرصوفة بالحجر الكلسي وبأحجار شفافة مائلة للخضرة تجد مثلها كثيراً في الجوار، وقد وضعت بشكل غير متناسق وبأشكال مستطيلة صغيرة. وكل واحد منها صغير بحيث يمكن لرجل واحد أن يحمله بسهولة.

هذا ولقد دُعم السّقف بثلاثة صفوف من 36 عموداً من الجهة الأطول، و24 عموداً من الجهة الأقصر، وكلها تتباعد عن بعضها بمسافة 16 قدماً. تم تزويد كل أربعة أعمدة بدعامة سداسية الشكل بسماكة أربعة أقدام، أما البقية فكانت عبارة عن أعمدة دائرية دون زخارف يبلغ قطرها حوالي القدم الواحد، وتتكون بشكل عام من الحجر الرّملي أو الكلسي. أما تيجان تلك الأعمدة فقد كانت الجزء الوحيد في كل المبنى المزخرف بمنحوتات حجرية، وقد نقشت فيها أشكال زهور وزخارف حلزونية أو منحوتات مضلعة، بينما تألف السّقف من صف من الأقواس وهي 63 من الجهة الأطول و24 من الجهة الأقصر طولياً. تتدلى كافة الأقواس الدائرية الثلاث بشكل عرضي متداخل من كل عمود، لتقسم السّقف إلى ثلاثة صفوف من قباب صغيرة الحجم، باستثناء الزوايا، حيث يبدو أن المعماري قد ارتبك فأكمل عملها بطريقة غير منسقة فتُركت متدلية دون إتقان.

وعلى أي حال فقد كانت المداخل والأبواب الرّئيسية آية في الإبداع تحيّر الوصف في تفاوتها المذهل. ولقد عُلقت في قمة كل قوس مستعرض مصابيح كبيرة الحجم بسلاسل نحاسية، وقد تدلّت خمسة مصابيح في كل قوس من العوارض الموجودة حول الصّف الداخلي من الأقواس التي تواجه الكعبة لتصل بين عمود وآخر. أما السّاحة بحد ذاتها فقد كانت مفروشة بالحصى ومقسومة بأرصفة ضيقة إلى ما يشبه

شـكل العلـم البريطاني. كانت هناك ثلاث أشـجار نخيـل برونزية بارتفـاع يقارب 12 قدمـاً، مع مصابيح متدلية من نهاية كل سـعفة منها بأبعاد متسـاوية بين بعضها البعض، وقـد نصبت في منتصـف الطريق بين الكعبة والأروقة، عبر النهايات الشـرقية والغربية للساحة. وقد وضعت على فواصل على طول الطريق المفروش بالحصى أكواز خزفية مملوءة بمياه زمزم ليستعملها الحجّاج.

يقع بئر زمزم على بعد 80 قدماً من الزاوية الشـمالية الشـرقية من الكعبة، وقد أنشئ فوقهـا بنـاء مرتجل غيـر منتظم، كان سـقفه عبارة عن قبّـة كبيرة وقبّة صغيرة وقسـمين للهيـكل الداخلـي، وأعتقد أن مسـاحته تبلغ 70 قدمـاً مربعاً. أما في الجهات الشـرقية والغربية والجنوبية من الكعبة وعلى مسـافة متسـاوية من البئر، فهناك ثلاثة هياكل غير رئيسـية مضاءة بعدد كبير من المصابيح، بينما انتصب مقام إبراهيم في الجهة الشـمالية على بعد ثلاثين قدماً في حجرة صغيرة بارتفاع عشرة أقدام وبطول ثمانية أقدام وعرض ستة أقدام مع باب خشبي ثقيل الوزن من جهته الشمالية. إنه الحجر الذي كان إبراهيم يقـف عليه أثناء بنائه الكعبـة، صعوداً ونزولاً وجيئة وذهاباً لينجز العمل المطلوب بأي عدد من العمال والمواد. في الحقيقة أنا لم أرَ الحجر، فقد كان يمكن مشاهدته فقط من خـلال دفع مبلغ كبير من المال، لا يتمكن إلا قلة من سـداده، ولكن من المعروف بين الناس أن ذلك الحجر يحمل طبعة قدم إبراهيم، وهو واحد من الآثار الكثيرة المشابهة التي يبدو أن المشاهير في الشرق كانوا يهتمون بتركها وراءهم.

علـى بعد ثمانية ياردات مـن كل جهة من هذه الحجرة كان هنـاك منبران حجريان، بقاعـدة ذات شـكل مسـدس دون أي زخرفة وبسـماكة ثلاثة أقـدام وارتفـاع 12 قدماً يعلوها سـكة حجرية ومجموعة من الدرجات الحجرية من الجهة المقابلة التي تواجه الكعبـة. وضع علـى المنبرين كليهما صف مـن أعمدة المصابيح بارتفاع عشـرة أقدام تمتدّ حول الكعبة تبعد عن بعضها 15 قدماً تقريباً وعلّقت بين كل عمودين اثنين سـبعة مصابيـح تتدلى مـن العوارض وقد تكلـل كل عمود بهلال مطلي بالذهـب، بينما امتد الرّصيـف خارج هذه الدائرة لحوالي عشـرين قدماً كما هـو الحال تحت الأقواس. أما

الرّصيف الموجود ضمن دائرة المصابيح فيتألف من بلاطات ملساء مرصوفة تنخفض بحوالي 12 إنشاً عن مستوى السّاحة.

أما في الجهة الغربية من الكعبة فقد كان هناك جدار على شكل حدوة حصان بارتفاع أربعة أقدام ونصف وسماكة ثلاثة أقدام ينتهي باتجاه الكعبة ليترك ممراً داخلياً، ويحيط بمساحة شبه دائرية بقطر ثلاثين قدماً، يقع في منتصفها ضريح إسماعيل مع شاهدة رخامية منحوتة فوقه. أما قاعدة الكعبة فقد كانت محاطة بحافة رخامية أو نصف دائرة بعرض قدمين ونصف وارتفاع قدم واحد، حيث وضع ضمنها عدد من المسامير النحاسية ذات الحلقة ويمرّ من خلالها حبل من القطن بسماكة أربعة إنشات، رُبطت به الحافة الدّنيا من كسوة الكعبة.

وكان هناك ثلاث فتحات في هذه الكسوة، واحدة منها في النهاية الشرقية من الجهة الشمالية وهي عبارة عن ستارة مطلية بالذهب أمام باب مصفّح بالفضة في الكعبة، وهو بالحجم الطبيعي يرتفع سبعة أقدام عن الأرض، وبقربه نحو زاوية البناء هناك فتحة دائرية في الكسوة يقارب محيطها الخمسة أقدام يرتفع إطارها السّفلي قدمين عن قاعدة الكعبة، لتكشف عن عقدة فضية ناتئة كبيرة الحجم تحملها مقابض لحمايتها وتثبيتها في الجدار الحجري، وقد غُرس فيها الحجر الأسود بعمق، حيث أن الواجهة تنغلق بالحافة الفضية عندما يشرع الناس في تقبيله.

وهذا الحجر بحجم رأس الرّجل ولونه أسود مائل للبني من مادة لامعة، وهو ذو سطح دائري متفاوت وربما كان ذلك نتيجة الكسر أو الانصهار. من المعلوم أن هناك قطعة من الزجاج البركاني من Hecla موجودة في المتحف البريطاني، تماثله شكلاً ومظهراً إلا أنها تفوقه حجماً بثلاث مرات. ما أشدّ الشبه بينهما، حتى أنني بعدما قضيت أربعة أشهر بجانب الحجر الأسود لم يعد لدي أدنى شك بأن المادة التي يتألف منها الحجران كلاهما واحدة. وإذا كنت بحاجة لأي دليل على إحساسي هذا فإن هناك من يعتقد أن الحجر الأسود قابل للطفو على سطح الماء، هذا يعني أنه على الأرجح سيطفو للحظات بعد رميه، الأمر الذي قد يكون حقيقياً في حال أنه يحتوي على عدد

كبير من الفجوات أو الفقاعات، وذلك ما تحتوي عليه قطعة من الزجاج البركاني.

كما أن هناك اعتقاداً آخر بين العامة بأن الحجر أبيض إلا أن سطحه أصبح أسود اللون نتيجة التلوث، وهذا ما دفعني لأقوم بكسر قطعة من العقيق كانت موجودة في خاتم كنت أرتديه لكي أختبره بالحك، وقد أظهرت النتيجة أن الحجر أبيض مثل أي قطعة من الزجاج الملون. وكذلك يروي لنا التاريخ قصتين أو ثلاث عن ذلك الحجر، والقصة الأكثر شيوعاً تقول أن الملك الموكل بآدم وحواء في جنات عدن قد تحول إلى حجر ليسمح للأفعى أن تضللهما، وتغريهما بأكل الحنطة وأنه سيعود إلى شكله الأصلي يوم القيامة.

أما عند الزاوية الجنوبية الشرقية من الكعبة فقد كان هناك جزء مقطوع من الكسوة بارتفاع ثلاثة أقدام وعرض 18 إنشاً، يكشف عن أحد أحجار الزاوية للبناء وهي قطعة مستطيلة صغيرة من الغرانيت، وقد كانت ناعمة ومصقولة جداً لكثرة ما لامستها أيدي الحجّاج عند كل شوط يقومون به أثناء طوافهم حول الكعبة. بينما كان عند الجهة الغربية من قمة الكعبة ميزاب تصريف مصفح بالذهب يمتد من الأسفل ويبرز بحوالي أربعة أقدام من البناء، وهو بعرض قدم واحد وارتفاع ستة إنشات من الجانبين، لتصريف مياه الأمطار التي تنزلق على السّطح الأملس للكعبة من خلاله. وعندما كانت السّماء تمطر كان يحدث بين الحجّاج نزاع وشجار كبير ليقفوا تحته ويتبللوا بالمياه.

وبالنظر إلى الطبيعة المكشوفة وأبعاد المبنى ككل، فالمكان محفوظ بحالة جيدة بشكل عام، وقد كانت علامات طلاء حديثة بماء الكلس بادية للعيان، واستخدمت ألوان متعددة وهي الأسود، البنفسجي الفاتح، الأحمر الهندي والأصفر، كما طلي كل حجر في الداخل ومعظم الأحجار الخارجية بواحد من تلك الألوان وبطريقة أبعد ما تكون عن الانتظام. كانت هناك أيضاً مساحات مطلية بماء الكلس الأبيض على تلك الجدران كتبت عليها آيات من القرآن، بينما طليت أحجار الأقواس بنفس الطريقة التي استخدمت في الجدران، وكذلك كان الحال في الأعمدة، أما السّقف المقبّب فقد طلي بماء الكلس بشكل كامل وكانت تجرى صيانة دائمة للجبس في أعلى ومقدمة

الرّواق والبناء. وكانت مجموعة من الكنّاسين تقوم بتنظيف المكان بأكمله مرتين يومياً في الصّباح والمساء. أعتقد أن القارئ الكريم لن يلتقط من كل هذه التفاصيل تلك البساطة اللطيفة التي تغلف المكان، إلا بعد أن يعرف أن مساحة البناء الإجمالية من جدرانه الخارجية تصل إلى ثمانية فدادين وربع.

لاحظت أن السّلوك ضمن الحَرَم كان أفضل بكثير مما هو الحال عليه في معظم المساجد الخاصة بالمسلمين، حيث تجلس الحشود أثناء النهار تحت الأروقة أو يتجولون في ظلها إلى أن يحين موعد الأذان، عندما يصطفون جميعهم في عبادة منتظمة تستمر ما يقارب ربع السّاعة قد تزيد أو تنقص، حيث أن صلاة الظهر هي الأطول. وبعد مغيب الشمس يضاء 2860 مصباحاً لتتحلق مجموعات عديدة من الحجيج حول المصابيح متعددة الألوان لتضفي على الجو العام روعة وإبهاراً، أما بعد صلاة العشاء عندما يصبح الحَرَم خالياً فلا يسمح لأحد بأن ينام داخل البوابات، حيث يقوم حراس الحَرَم بإخراج الأشخاص الذين لا يقومون فعلياً بالصّلاة أو العبادات الأخرى بعد تلك السّاعة.

يمتد جبل النور على أربعة أميال في الجهة الشمالية الشرقية من مكّة، وهو هضبة منحدرة مخروطية الشكل ترتفع بما يقارب تسعمئة قدم عن السّطح الرّملي، إذ أن الرّمال في الوادي تحافظ على مستوى ثابت، كما هو الحال بالنسبة للمياه. عندما ينظر المرء إلى جبل النور من الجنوب فإنه يبدو أنه لا يمكن الوصول إليه مما يقارب ثلثي المسافة من الطريق الصّاعدة، ويبدو الجزء العلوي بمثابة قطعة صخرية بيضوية شديدة الصّلابة، تبرز جوانبها عن الخط العمودي للهضبة. أما عند الصّعود وعند وصولك تلك النقطة، فإنك تنتقل بشكل دائري إلى الجهة الشمالية، فيمكنك عند ذلك أن ترى أنه كان المستحيل الاستمرار بالصّعود من تلك الجهة، وعندها تجد أمامك ممراً يمكن استخدامه بشيء من الصّعوبة يوصل إلى القمّة.

وفي منتصف ذلك الممرّ توجد بركة محفورة في الصّخر صنعتها مياه المطر وغالباً ما تكون مملوءة في هذا الفصل. يمكنك أن تقوم بالوضوء قبل معاودة الصّعود إلى قمة

المخـروط، لتجد هناك قبّة صغيرة بنيت فوق صدع في الصّخور الصّلبة، بطول يقارب ثمانية أقدام وبعمق ثلاثة أقدام، يقال إنها تشـكلت عندما زلّ المبضع التي اسـتخدمها الملـك جبريل في إجـراء تلك العملية اللطيفـة لإزالة اللطخة السّـوداء (الخطيئة) من قلب محمّد تمهيداً لتبشيره بحمل الرّسالة كنبي مرسل، وهناك تلقى محمّد أول رسالة عن طريق الوحي.

وعند النزول من الجهة الجنوبية فإنك تجد كهفين صغيرين كان محمّد يلجأ إليهما عندمـا كان يخضـع للاضطهاد فـي مكّة. وفي واحـد منهما التجأ محمّـد قبل أن يصل إليـه مطـاردوه بوقـت قصير ليجـدوا أن يمامة قد بنت لها عشـاً عند مدخـل ذلك الغار ونسـجت عنكبوت بيتها على فـم الغار، وهو تدخّل معجز أجبرهـم على الاعتقاد بأنه لا يوجـد أحـد قد دخل قبلهم إلى ذلك المـكان. أما الكهف الآخر فقـد نام فيه محمّد وصاحبـه أبـو بكر بعيدين عـن العيون، وعندما اسـتيقظ أبو بكر رأى حيّة تبرز برأسـها مـن جحر لها فـي أرض الغار لتلدغ محمّداً. ولكي لا يوقظ النبي، ما كان منه إلا وضع عقـب قدمه ليسـدّ جحر تلك الحيـة التي بدأت بلدغه. وعندما اسـتيقظ محمّد رأى أن صاحبه ما زال يسـد جحر الأفعى بعقب قدمه وكان يشـرف علـى الهلاك، فما كان منه إلا أن قتـل الحية وشـفى صاحبه من خلال معجزة. يقـال أن هاتين الواقعتين قد حدثتا فـي جبـل ثور، وهو جبل آخر يقع في الجهة الجنوبية الشـرقية من مكّة، وقد روينا هذه القصص أنا وأصحابي لبعضنا البعض عندما كنا في ذلك الغار عينه، كما لو أنها وقعت فعلاً في ذلك المكان.

وفي وادٍ يبعد حوالي أربعة أميال عن مكّة كانت هناك عمرة وهي بركة عميقة، بنيت على مسـاحة مئة قدم بخمسـين قـدم، وتوجد درجات سـلالم تقود إليهـا وصولاً إلى الميـاه، حيث يغتسـل الحجّاج. وعندما ينظـر المرء إليها من ارتفاع فإنهـا تبدو وكأنها بركـة السّـلوان Siloam، ويقال أنها كانت إحدى الأماكـن المفضلة الأثيرة عند محمّد للترويـح عـن النفس والصّـلاة والتأمل، ويقـال أنه قد صلـى في ذلك المـكان مطولاً حتى أن ركبتيه أصبحتا خشـنتين وإلى أن تصلبت عضلاته وتيبسـت. وقد لاحظت أن

معظم العرب والهنود من المسلمين (الذين لا يرتدون الجوارب) كانت لديهم خشونة وصلابة في الجهة الخارجية من الكاحل الأيسر، وذلك نتيجة قيامهم بأداء أحدى وضعيات الصّلاة بشكل دائم وثابت، عندما كانوا يجلسون مع طي قدمهم اليسرى تحتهم.

في هذه الأماكن وأماكن أخرى يقوم الحاج بأداء ركعتين، ويقدّم الصّدقات إلى المتسولين اللحوحين الذين كان يصعب تجنّبهم في أرض الحجاز، إذ يمكن تصنيف أولئك المتسولين تحت نوعين رئيسيين: الحجّاج المعوزين، والمتسولين المحترفين. يقع الحاج المعوز في مكّة في حيرة من أمره ويضطر إلى تقبّل الإعانات، أما المتسوّل المحترف فيحيا حياة ترف وبذخ، وربما كان تعدادهم يصل إلى نصف السّكان بالإجمال.

وتتناهى إلى سمعك صيحتهم الدائمة (بقشيش، بقشيش..)، وتسمع هدير الجمل «بقشيش»، ونهيق الحمار «بقشيش»، ويهرّ الكلب أمامك «بقشيش»، حتى تصل إلى مرحلة لا تسمع فيها سوى ذلك الصّوت يتردّد حولك، إلى أن تعتاد عليه لدرجة تحتاج إلى قوة إرادة لتتمكن من تمييزه. وما يزيد في ذلك أن الحجّاج أنفسهم يشجّعونهم عليه، إذ أنهم يرون فيه امتداداً لرسالة النبي وتعاليم البرّ والإحسان، إذ أن الكرم الحقيقي لا يعتبر أحد الصّفات الأصيلة بين الشرقيين. وكان قسم كبير من المتسولين من الهنود، أما الأتراك والفرس فقد كانوا قلة بالمقارنة بهم، ولم أرَ أبداً أي متسوّل من الملايو.

كان المتسولون الذين يتجشّمون عناء الخروج يحصلون عادة على طبق من الحساء يقدمه لهم شريف مكّة وهو لقب لرئيس السّلطة الدينية في مكّة والذي يساعده في الإدارة والإشراف المفتي والقضاة ومجلس الملالي Moulahs تحت إدارة باشا تركي أو حاكم والذي تعود إليه مسؤولية إصدار القرار النهائي في حل قضايا الاستئناف والنزاعات.

ومن الجدير بالذكر أن الأتراك كانت لديهم الصّلاحية فقط من خلال الوجود

العسكري في البلاد وإقامة حاميات في المدن للحفاظ على النظام فيها. لم تكن لهم أي صلاحية أو سلطة على رجال الصّحراء وكانوا يدفعون لهم الإعانات عن غير طيب خاطر، وبالتالي فقد كانوا يحاولون بين الحين والآخر إيقافها، إلا أن القبائل كانت تصبح خارجة عن السّيطرة وتبدأ في إغلاق الطرقات، وهكذا فقد وجد الأتراك أنه من الأجدى لهم أن يذعنوا ويستمروا في سداد تلك الإعانات.

بقي يومان للذهاب إلى جبل عرفات، وفي ذلك الوقت كان ما يقارب ستة أقدام من الإطار السّفلي لكسوة الكعبة قد أصبح مهترئاً جداً بسبب الحجّاج الذين كانوا يتكئون عليه، فتم رفعه من كل الجهات واستبداله بقماش قطني أبيض، الأمر الذي زاد إلى حدّ بعيد من بهاء وروعة المنظر من خلال التضارب مع اللونين الأسود والذهبي. بدأ الحجّاج في التوافد زرافات ووحداناً ووصلت معظم القوافل الكبيرة، فازدحمت البلدة لدرجة لم يتبقَ معها مكان لوقوف شخص في بعض الطرقات، ولم أرَ في حياتي ذاك الازدحام الكثيف إلا في شارع غْرايسْتشِرتش Gracechurch في يوم استعراض اللورد مايور Mayor.

أمّا الزحام فكان بطبيعة الحال مختلفاً إلى حدّ بعيد، فقد كان الجميع هنا لطيفاً ودمثاً لا يفتقر إلى المودة والطيبة، أما في لندن فقد انتشرت الغلظة والفظاظة بين أشخاص كانوا يعتقدون أن قمّة المتعة تكمن في إيقاع قبعة رجل على عينيه، أو القفز للدوس على قدم إحدى السّيدات، أو تقديم نصيحة متهورة مثل قولهم: «اجلسي يا صاحبة الفخامة» عندما كانت السّيدة يغمى عليها، أما هنا فلم يكن ثمة مكان لأي من ذلك على الإطلاق. من النادر أن يشاهد المرء أيّ نوع من أنواع الشجار في الشوارع، وهو أمر محمود يحسدون عليه، بالنظر إلى العدد الكبير من الأمم المختلفة والطوائف التي اجتمعت في مثل ذلك الحيّز الضيق، والتي تبدي أشد أنواع ومشاعر العداء والبغضاء تجاه بعضها في أمكنة أخرى عادة.

طوال فترة إقامتي في مكّة لم أشاهد شجاراً جاداً في الشوارع إلا مرة واحدة، عندما كان اثنان من البنجاب يندفعان بجنون ليتبادلا الصّفعات والضربات أحدهما

مع الآخر، وعند ذلك وصل الجنود الأتراك الذين كانوا يتوّلون مسؤوليات الشرطة ليفرقوا بينهما، لكن واحداً منهما التفت نحو أحد الجنود الأتراك وصفعه في وجهه، فما كان من الجندي إلا أن سحب سيفه من غمده موجهاً بحدّه وبسرعة كبيرة ضربة شديدة عنيفة إلى الپنجابي فأصاب رقبته بحركة متأرجحة ليقطع رأسه دون أن يفصله.

هذا ولم يكن ليُسمح للأتراك بالخروج من ثكناتهم دون أن يكونوا متسلحين بسيوفهم التي كانت دوماً جاهزة ومشحوذة.

* * *

الفصل الرّابع

مشاهدات عن الأعراق المختلفة في مكّة

فـي حـال قُدر للجمـوع المتواجدة في الحَرَم فـي هذا الوقت أن تتمـازج وتختلط، وأخذنـا عينة عشـوائية من مئة شـخص مـن بينهم لتحليلهـا، فإن الأمـم المختلفة التي سنجدها ستكون حسب التعداد التالي:

* الأتراك	....	6
* العرب	....	15
* الهنود	....	20
* الماليزيون	....	5
* السود	....	10
* الفرس	....	10
* المغاربة	....	15
* السوريون	....	6
التتار	....	5
البدو	....	3
مع وجود جماعات أخرى يصعب حصرها من الصّين والسّاحل الغربي لأفريقيا أو من روسـيا، وبعض من الدراويش الرّعاع الذين بدت عليهم هيئة التشرّد قدموا من أماكن لا يعلمها إلا الله		5
		100

ملاحظة: إن الأعـراق التـي ميّزتهـا بنجمـة هـي مجـرّد تصنيـف عـام وقـد تتفرع إلـى العديد من الأقسـام، فعلى سـبيل المثال ينـدرج تحت خانة الهنـود كافة الأعراق الإسـلامية الموجـودة في الهند، وكذلك فقـد أدرجت المصريين تحـت خانة الأتراك والمغاربة والسوريين.

* * *

لقد شـكل اجتماع كل تلك الجنسـيات المختلفة المتناقضة، فرصة جيدة لمقارنتها مـع بعضها البعض، ويمكنني أن أقدم لكم الانطباعات التي تشـكلت لدي. في البداية سـأروي لكم بعض القصص عن مكّة لإيصال فكـرة أكثر عمقاً عنها، وهي بعض تلك الرّوايـات الشـائعة التـي أولع العـرب بها إلى حـدّ بعيد والتي تروى لتفسـير السّـلوك والتصرفات الشـائعة بين العرب والبدو نحو الغربـاء الأجانب في يومنا الحالي، وهي مثلها كمثل العديد من القصص الأخرى تعتمد على شخصيات أصلية أولية.

«يقال إن أحد شـيوخ البدو، الذي سـندعوه الشـيخ سَلام، وعشـيرته عاشوا بسلام فـي وادي مكّة يتعبّدون ربّهم ويؤدي فـروض صلاته ووضوئه خمس مرات في اليوم، وكان ثرياً فعاش حياته في تناغم وانسجام، إلى أن حلّت ساعة مشؤومة عندما قدم أحد الحجّاج من الأتراك إلى خيمته، فدعا الشـيخ سـلام بدافع من الكرم وحسـن الضيافة المعروفـة عنـد العرب ذلـك الغريب للدخول وقـدم له أطيب صنوف الطعام وسـمح له بالمبيت في خيمته. ولكن عندما اسـتيقظ الشـيخ سـلام في الصّبـاح التالي وجد أنّ زوجته قد هربت مع ذلك التركي. وعندما كان يتوجّه بالشكر إلى الله أن الأمر لم يتعدَ ذلك الحد من السّوء، شاهد حاجّاً من الفرس يقدم إليه، فقابله الشيخ بترحاب وحسن ضيافة تفوق ما قدّمه إلى ذلك الحاج التركي، وسـرعان ما اكتشـف أن الحاج الفارسي قـد هرب في جنح الليل بحصان الشـيخ. اسـتمرّت الحكاية مع المصري الذي سـرق جملـه، أما المغربي فلقد فرّ بحماره، إلى أن وجد نفسـه ما بين الإحسـان والسـرقة قد وقع ضحية لجريمة السّليماني.

وفـي آخر المطاف جاءه أحد المتسـوّلين الهنود البائسـين مسـتجدياً ذليلاً، فأخبره

الشيخ الطيب بحكايته التعيسة وكيف تم خداعه ولم يتبقَ لديه أي شيء فأصبح هو نفسه فقيراً معوزاً ولم يعد قادراً على تقديم العون لأي عابر سبيل. عندها استدار الهندي على عقبيه وهو يسبّ الشيخ الطيب بألفاظ لا يعرفها إلا الهنود. كان ذلك أكثر مما يتحمّله الشيخ سلام التعيس، فما كان منه إلا أن انطلق بغضب متفجر نحو ذلك البذيء الوقح ليذبحه، وعندما فعل، وجد تحت الأسمال البالية التي كان ذلك الهندي يرتديها ثروة كبيرة من المال».

بصرف النظر عن الصّفات المميزة للشخصية في تلك الحكاية، فإن المغزى واضح وصريح، وأنا أشهد جازماً أن الحقائق المرتبطة بها قد فتحت أعين الشيخ على الحكمة الكامنة، ومنحته خبرة كبيرة بالحياة والناس، ورثها من جاؤوا بعده بدرجة كبيرة.

سأتكلم في البداية عن الأتراك، الذين يعتلون رأس القائمة، فهم بالتأكيد يتفوّقون بكثير من المزايا عن الآخرين باعتبارهم الأكثر تحضراً ونظافة وحساسية، وبرغم سوئهم فإن الفرق شاسع بينهم وبين غيرهم من الشرقيين، كما هو الفرق بين الأمة الأوروبية وبينهم. كان الأتراك بصفتهم القوة الحاكمة مكروهين ومرهوبي الجانب ليس فقط من أتباعهم المجبرين أو أبناء الحجاز الأصليين، بل من جميع المسلمين الآخرين، وذلك بسبب اتباعهم للتقاليد والعادات الأوروبية واستخدامهم للعديد منها، فقد جلبوا معهم بعضاً من تلك الصّرعات مثل الشوك والكراسي، ويشاع على استحياء أنهم قد جلبوا حتى الخمر إلى مكّة المكرمة، وبالتالي فلا يعتبرهم أحد من المسلمين، اللهم إلا بالاسم فقط. إنهم لا يتوانون عن زيادة كراهيتهم بين الناس، وذلك من خلال الاستبداد والتنمُّر والاستعلاء فهم يتنقلون بحرية مظهرين اشمئزازهم واحتقارهم من أولئك البدائيين غير المتحضرين من أبناء دينهم.

وفي الحقيقة فإنني أحب الأتراك، إذ أنهم شجعان بشكل عام، ولم أرَ في حياتي أي جندي من الترك إلا وكان يرتدي زي القتال النظيف، وبذقن حليقة ومعدات وتجهيزات أوروبية، وكان يعتريني شعور قوي بأن أذهب إليه وأصافحه. فعلت ذلك في إحدى المرّات عندما وجهت سؤالي بالإنكليزية إلى أحد الخفراء الأتراك وكان ذا

شـعر أحمر وعينين زرقاوين: «كيف وجدت بندقيتـك الجديدة أيها الرّجل العجوز؟» (فقـد كانت القوات التركيـة في الحجاز، قد زُوّدت لتوها ببنادق سـنايدر[1] Snider)، لكنني لم أحظَ منه إلا بنظرة جوفاء.

وقـد أخبرني أحـد الرّجال العرب يمتلـك متجراً ويبدو أن لديـه معلومات في علم الإحصـاء بـأن تعداد الأتراك المسـتوطنين كان خمسـة آلاف، وهو مـا يقارب عددهم الصّحيـح فعليـاً، فإذا كان كذلـك فإن أكثر من ثلثيهـم يجب أن يكونوا فـي أحد فروع الجيـش، أمـا البقية فكانوا مـن التجّار وأصحاب المتاجر المياسـير، وكانـوا يتعاملون بالأقمشـة والتبـغ والأدويـة والبضائـع والمصنوعات الأوروبية بشـكل عـام. في هذا العام علمت أن الحجّاج القادمين من تركية كانوا قلّة قليلة، وذلك بسـبب الحرب. لم يفاجئني ذلك حيث أنهم لم يكونوا ليجهدوا أنفسـهم في كثرة الذهاب لأداء الحجّ، إذ أن التركي العصري لا يبدي الكثير من الاحترام نحو ممارسة شعائر دينه حتى في مكّة، فقد شاهدت ضابطاً تركياً يسير في الحَرَم متجولاً في أركانه ومتنقلاً من بوابة إلى بوابة دون أن يخلع حذاءه، وهو فعلٌ كبير يدل على الاسـتهتار بالحرمات، ومن الممكن لو أن شخصاً من الفُرس فعل ذلك، فإن الجموع ستهاجمه وتفتك عليه في الحال.

ثـم يأتـي العرب بعـد الأتراك فـي الترتيـب والأهمية، أبنـاء مكّة الطاهريـن، الذين يكرّمونـك بتلقيهم لإحسـانك وهباتك، والذين يصخبون بتوعـد ولا ينقصهم الخداع والغش، وقد تدربوا منذ الصّغر على الاحتيال على السّـذج من الحجيج، وهي صفات متوارثـة حملوها لأجيـال عديدة لا أعرف عددها (يمكنكم الرّجـوع إلى تاريخ جزيرة العـرب)، وهم ماهـرون في كل أنواع المراوغة والحيل، كما أنهم أسـاتذة في فن قطع الطريق والتسوّل، ولا أملك إلا بضع كلمات أصفهم بها: إنهم أذكياء ويمكنهم التحدّث

(1) بندقيّة سنايدر - إنفيلد Snider-Enfield من تصميم الأميركي جاكوب سنايدر، وصناعة معمل إنفيلد البريطاني، وهي ذات عيار كبير 577. وتلقّم من مغلاقها ولها مطرقة، ولذلك فقد يسمّيها البعض في المشرق: أم سقّاطة. تم إنتاجها في عام 1866 لأجل الجيش البريطاني، إلى أن استبدلت ببارودة مارتيني هنري Martini-Henri (المرتينة بلغة المشرق) في عام 1871، والتي يرد ذكرها في كتاب «رحلات المغامر العربي».

بأيّة لغة تتناهى إلى سمعهم. تخيّل نفسك وقد وقعت فريسة لمجموعة من المترجمين من القاهرة وأولئك الأولاد الذين يسوقون الحمير الذين يقفون في طريقك بأعداد كبيرة في البداية، دون أن تنقص أي واحد منهم الوقاحة والفجاجة وقلة الأدب، ولا بدّ لأيّ حاج يشق طريقه نحو مكّة أن يواجه مثل ذلك الموقف.

صحيح أن هذه الأوصاف تنطبق على الغالبية العظمى من أصحاب المتاجر وأصحاب النُّزُل، إلا أن الكثير من العرب يعتبرون من الحرفيين المهرة، كما أن معظم الميكانيكيين في مكّة كانوا من الهنود أو العرب. وكان أفضل العرب في صناعة وإصلاح الأسلحة أو السّباكة أو النجارة من مصر أو من سوريا. كما أنهم يبدون عمالاً مهرة ونشيطين ويقدمون أعمالاً متميزة من فنون الزخرفة والرسومات والتحف الشرقية غير المصقولة، وكذلك حلي «بروماجِم» Brummagem التقليدية التي تكتظ بها المحلات وتلاقي رواجاً كبيراً لدى الفرنسيين. يشغل العرب معظم المناصب والرتب الدينية، فهم الأئمة والمؤذنون وذوو السّلطات الدينية الأخرى بدءاً من الشريف نزولاً إلى أدنى الرّتب، هذا ولم يحدث بيننا أي تعامل أو تواصل، وقد وفرت على نفسي عناء التعرف على أي منهم.

أما السّكان الهنود المستقرّون في مكّة فقد علمتُ أن عددهم يقارب الثلاثين ألفاً، وربما يكون في ذلك مبالغة فقد يكون ذلك الشخص الذي أبلغني، وهو عربي بالمناسبة، قد بالغ في تقدير أعداد القادمين من الهند، التي قدمت منها أنا أيضاً. مع ذلك فقد يكون ذلك الرّقم صحيحاً، إذ أن العنصر الهندي كان هو الغالب وربما يصل إلى ضعفي عدد العرب، حيث أن عدد الحجّاج من الهند كان يساوي تقريباً عدد جميع أولئك القادمين من أنحاء الشرق الآخرين، باستثناء البدو والعرب المنتشرين في المناطق المحيطة بالبلد، والتي كانت خالية من السّكان بطبيعة الحال في يوم عرفات.

كما أن الهنود يعملون كموظفين رسميين ويمارسون أعمالاً رابحة، بينما شغلت قلة منهم مناصب هامة في الحكومة، وكان بينهم عدد من أصحاب الثروات الذين يقيمون في مكّة بشكل دائم وكان ذلك بدافع ديني والقلة لأسباب سياسية. كانوا يشغلون

المناصب التالية: قارئي القرآن، أساتذة في القانون، وكلاء للحجّاج، أصحاب متاجر وتجّار، وذلك بسبب الطبيعة الحاذقة التي يتميز بها الهنود في ذلك المجال، وهكذا فقد تمكّنوا من منافسة العرب والصّمود في وجه مراوغتهم وصعوبة تعاملهم.

ومهما كان المنصب الذي يشغلونه، سواء كان منصباً رفيعاً أم وضيعاً، فقد كان التسوّل يجمعهم كسمة مميزة لهم. كانوا شحّاذين بالفطرة ويلمّحون إلى ذلك من طرف خفي، ففي حين كان العرب يطالبون بالبقشيش، كان الهنود يتسوّلون طالبين الصّدقات والإحسان، وهم يشكلون العدد الأكبر من أبناء الطبقة الأكثر فقراً وبؤساً التي قد يصادفها المرء في مكّة، ولم يبدُ أن هناك حداً لحياة البؤس المدقع والفقر الذي قد ينحدر إليه الهندي ويعيشه.

كان هناك أيضاً العديد من الحجّاج القادمين من أفغانستان وهم أصحاب سمعة شديدة السّوء في مكّة، فقد كان يطلق عليهم اسم «السّليماني». وسواء كانوا من الأفغان فعلاً أم من أي من الأعراق الأخرى التي تقطن المناطق المتاخمة لبلاد فارس، فإن صفة السّليماني كانت تشمل أبناء آسيا الوسطى وبلوشستان، وفي العادة لا يطلق العرب اسم السّليماني إلا ويكون مصحوباً بكلمة «حرامي»، وهو تعبير مطاط مفرط في التعميم، فعندما كانوا يصفون البدو به كان يعني ببساطة «اللصّ أو المجرم»، حيث كانوا يعتبرون تلك الصّفة أمراً يدعو للفخر والزهو، أما إذا أضيفت له كلمة السّليماني فإنه سيحمل عندها معاني أخرى بالغة السّوء.

أما أهل الملايو فقد كانوا متواجدين بأعداد كبيرة بالنظر إلى الرّحلة البحرية التي يقطعونها من جاوة ومن أماكن أكثر بعداً. وحسب علمي فإن عدد الملاويين المقيمين بصورة دائمة في مكّة كان محدوداً بما لا يتجاوز أصابع اليدين، إذ أنه من المعروف عنهم أنهم لا يشرعون برحلة الحجّ ما لم يمتلكوا أموالاً كافية لرحلة الإياب، وكان من الشائع بين العرب أنهم قوم لا يتسوّلون، وكان أبلغ وصف لهم ما قاله العرب فيهم: «بين الملايو لا يوجد متسوّلون». كانوا صادقين وعادلين وشرفاء في تعاملاتهم، إلا أن لديهم حرصاً كبيراً على المال، وربما كانوا اسكتلندا الشرق في البخل، كذلك فقد

تميّزوا بأنهم أهل عقل ومنطق بين الحجّاج، وهم الوحيدون القادرون على التعامل مع البدو العدوانيين المشاكسين.

نصل إلى السّود الذين يتواجدون هنا في الأماكن الملائمة لهم، وهم قوم يتميّزون بسهولة القياد، وبأنهم عمال جيّدون، ومنهم الحمّالون، وحمّالو الماء، وأصحاب المهن الشاقة في مكّة، وهم دوماً سعداء، أصحّاء، يأكلون جيداً، ويرتدون ملابس جيدة إلا إذا كانوا عبيداً (وهي أمور معروفة في مكّة) وفخورون بأسيادهم، وفي المدن «كان العبيد يحظون بشرف أسيادهم». في الشرق كان للعبودية تأثير متنام على آلاف من البشر، ولولاها لكانت مئات الألوف من الأرواح قد قضت فترة حياتها في هذا الكون ككائنات متوحّشة، تفوق مستوى الحيوان بقليل، فالعبودية في أضعف الاحتمالات كانت تجعل منهم «رجالاً»، وربما «رجالاً ذوي فائدة» وفي بعض الأحيان تضعهم «في منزلة عالية».

لو تمكن العرب من القيام بتجارة العبيد بكل أمان وسلام، لكان ممكناً أن تتم بصورة أكثر إنسانية، وربما إذا تكلمنا، على سبيل الافتراض، أنها كانت ذات فائدة للعديد من الأعراق البشرية، فهي أكثر تسامحاً وإنسانية إلى حدّ بعيد ممّا يسمى تجارة القولي coolie (العبيد) السّائدة في الهند، والتي كانت وحشية قاسية، حيث كان يُغرّر بالجهلة السّذج من السّكان المحليين بآمال لن تتحقق أبداً، ليتم إرسالهم في رحلات ينقلونهم فيها إلى نصف أقطار العالم، ولا يعود منها إلا قلة من المحظوظين. وكانوا يمنّونهم بوعود وخيالات كاذبة، وهذا، بالمقارنة مع ما كان يفعله تجار العبيد من العرب، عمل غير إنساني على الإطلاق.

لقد عملتُ كمراقب عمال في معامل السّكر في الهند الغربية، حيث كان هناك ما يقارب ثلاثمئة عامل ممن يُسمّون بالقولي يعملون بها، وقد كان اليأس والقنوط يملأهم بعد أن دُفعوا عاجزين بأيد غريبة ليعملوا على أرض غريبة، وليرزحوا تحت وطأة عمل شاق قاتل لأولئك الهنود من أصحاب الأجسام الواهنة، وكانوا يُمنحون أجوراً يسيرة لا تسدّ رمقهم، يتعيّن عليهم أن يوفروا منها لرحلة العودة، وفي أحسن

الحالات كان هناك واحد من أصل كل عشـرة يعيش ليرى الهند من جديد. كان هؤلاء من أصحاب الحرف المتمتعين بالمهارة والفطنة والاستقلالية، وهو أمر نادر بين تلك الفئة من السّكان المحليين التي يتم سحب عمال القولي من بينهم. في تلك البلاد أيضاً بدأت ترى انتشار النتائج الحقيقية لتجارة الرّقيق، فالسود المتحضّرون، أو الشخصيات البغيضـة من الذين يتحدّثون لهجة أهل الهنـد الغربية والذين كانوا يوضعون في معزل عن أقرانهم الموجودين في مكّة، يظهرون السّود على حقيقتهم وكما يجب أن يكونوا، وكان يُقال: لا يا عزيزي، ينبغي ألا يمشي العبد مع تلك النماذج المخزية الفاسقة.

وحيـث أننـي كنت في قلـب تلـك التجـارة، فبإمكاني إن سُـمح لي أن أقـدّم رأيي المتواضـع حـول نقطة شـديدة الأهمية، فمـع كل الاحتـرام والتقدير لأولئك السّـادة المبجلين من أصحاب السّـلطة، والذين قدّر لي أن أختلف عنهم، والذين قد يطرحون السّـؤالين التاليـين: «هل من الممكـن أن تنجح محاولاتنا في إلغاء تجـارة الرّقيق عند العـرب؟»، «هل تقدّم في وقتنا هذا أيّة فائدة؟»، فعلى السّـؤالين كليهما تكون إجابتي: «كلا»، وأؤكد على ذلك. حيث أن معظم البلدان المستقرّة، سواء تحت الحكم التركي أو المحلّـي فـي كافة بقاع جزيرة العرب، فيها سـوق للعبيد يجب توفير متطلباتها، وإن كافـة محاولاتنـا وجهودنا الجبارة التي سـنبذلها لن تفيد إلا في زيـادة الطلب وبالتالي زيادة حجم تلك السّوق.

وإليكم هذه الحالة: فإن الرّجل البالغ الصّحيح والقوي البنية كان يباع بمبلغ أربعين دولاراً منذ أربع سـنوات في مكّة، أما اليوم فهو يباع بسـتين دولاراً. وقد تضاعف عدد سفننا، ولم يكن بالإمكان منع سفن العبيد من الرّسو كل أسبوع بين الموانئ والخلجان علـى سـاحل الحجـاز، كذلك فإن السّـفن الرّاسـية على الشـاطئ الغربـي والتي تبحر وتغادر من الشـرق كانت تحتاج إلى ثلاثة أيـام على الأقل في الظروف الملائمة. وهو ما كان تجار الرّقيق من العرب يعرفونه تماماً ويعرفون كيف يستغلونه على أكمل وجه، ويؤكـد هـذا الكلام العديد مـن رجال البحريّة، فمـا بالكم إذا ما نجحـت حيلة واحدة مـن القصص التي كان اليمنيون العرب يخبرونني بها. فقد كانت هذه التجارة مسـالمة

ومشروعة وأصبحت الآن بمثابة مغامرة خطيرة للتجّار الذين يجلبون العبيد، حتى لأولئك الأكثر جرأة وشجاعة بينهم.

كما كانت المعاملة السّيئة التي يتعاملون بها مع حمولتهم من البشر تزداد بالضرورة مع ازدياد الخطورة المصاحبة لنقلهم. وقد سمعت من أحد البحارة اليمنيين قصة ستوضح لكم كل ذلك، إذ أنه كان يبحر في سفينة شراعية تحمل على متنها اثنين من السّود أو العبيد، اللذين كانا يعملان لمدة خمسة أشهر على متن تلك السّفينة الشراعية، وقد كانا يعلمان أنهما عندما كانا في وضع جيد فقد كانا سيرفضان الحصول على حريتهما فيما لو عرضت عليهما.

هاهي ذي السّفينة «مسقط بابيلا» *Mascat Babeela* تطوف الخليج العربي من بوشهر Aber Shir إلى بومباي، وفي اليوم التالي لعبورها مضيق هُرمُز بهدوء وسلام، شاهد بحّارتها بارجة حربية بخارية إنكليزية تبحر نحوهم وعرفوا أنها تقترب منهم في حركة هجومية. كان من شأن هذين الأسودين أن يُدينا طاقم السّفينة، الأمر الذي كان يعني الخراب والدّمار لكل فرد من أفراد الطاقم، وهكذا فقد قتلا ورُميا في البحر، وهنا أبدى محدّثي أسفه على الضرورة التي اقتضت فعل ذلك، إذ أنهما كانا بالفعل رجلين قويين جداً ويصعب قتلهما، وألقى باللوم على الإنكليز الشياطين، الذين قاموا بالهجوم حسب اختيارهم، لكنهم لم يقوموا باحتجاز المركب، ولا شك أن الملازم والمترجم عندما صعدا على سطح السّفينة وجدا كل شيء في موضع مرضٍ تماماً بعد نصف ساعة من انتهاء ذلك المشهد المثير.

مع ذلك يوجد هناك أشرار بين تجار الرّقيق العرب ولا أنكر ذلك، ولا ينكر ذلك السّود الذين كانوا عبيداً يوماً ما. أما سائق العبيد، فقد كانت شخصية غير معروفة في الشرق، إذ كانوا يقومون بحماية العبيد من أي نزوة قد تعتري أياً من أسيادهم القساة، ذلك لأنهم كانوا بضاعة ثمينة يمكن بيعها والاستفادة منها. وكان الرّجل الذي يؤذي أو يسيء معاملة عبده، كمن يقلل ويخفض من قيمة حصانه عن عمد، والشيء الذي يعرفه العرب جيداً وبصورة أكيدة أنه يتوجب عليهم مراعاة مصلحتهم المباشرة، وكذلك

كان العبد ذاته، الذي كان يمتلك الحسّ والتمييز بين الخير والشر بصورة بدائية، ولديه غريزة المحافظة على نفسه من الأذية الجسدية إلى حدّ بعيد، وربما كان من خلال هذه الحاسة يرتفع من مصاف المتوحشين لبرهة قصيرة (وهي حالة لم يكن له بها يدٌ بأي حال) ليصبح عضواً نافعاً في المجتمع وعاملاً قويّ البنية سهل الانقياد، وهو الموقع الذي وضعته فيه الطبيعة على ما يبدو.

إنني على علم بكثير من الإساءات التي كانت تمارَس في البلدان التي يعيش فيها العبيد، ومن الواجب علينا إيجاد أفراد آخرين من عائلة ليڤنغستون التي كانت مجموعة من العمال والبنائين قبل محاولة إيقاف تلك التجارة، حيث أنّ أيّة خطوة نحو ذلك ستكون بمثابة استدعاء للشرطي العالمي من تلك السّواحل المُفعمة بالمرض، وفي تلك الأيام التي كان فيها العمال كالدواء في سوق جزيرة العرب، وعندما كان نقلهم يتم بطرق أكثر اعتدالاً وأقل وحشية. إننا اليوم نعارض التقاليد اللاأخلاقية والعادات الهمجية التي تميّز بين الأعراق وتفرّق بينها، وهي عادات ربما كانت غير ضارّة بالجميع، بل إنها بالفعل كانت مفيدة للآلاف، وقد تكون أمراً جديراً بالقتال من أجله في أيام الإسلام القديمة. أما التأثير الوحيد لها فكان يتمثل في تقديم شكل دائم ومرعب وجديد من تجارة الرّقيق، إن لم يكن ذلك قد حدث فعلياً، فضلاً عن صرف آلاف الجنيهات والمئات من الأرواح الغالية عند قيامنا بها.

ولنأمل الآن أن يتخذ أولو الأمر موقفاً مسؤولاً حيال هذه المسالة، وإصدار مرسوم جديد خاص بالعبودية، ليتم تطبيقه على الحالات الشاذة في تلك القضية، وألا يلاقي نفس مصير سابقه الذي خبا بريقه بسرعة. ربما كان من الواجب أن تتخذ إنكلترا دور المراقب الدولي، وعندئذ وكما يقول السّود أنفسهم: «إذا أردت فعل أمر ما فأفعله»، لاحتلوا جزيرة العرب، ولنسفوا التركيبة السّائدة وأصلحوا العالم، دون أن يستمرّوا بإبداء أيّة شفقة نحو القراصنة السّارقين من مُجمل تعداد 180,000,000 من المواطنين المسلمين.

* * *

عليّ أن اعتذر عن اندفاعي وإسهابي في هذا التوبيخ الذي طال أكثر من اللازم، وأعود بكم بهدوء إلى الموضوع الأساسي لقصتي.

بالإضافة إلى أولئك العبيد، كان هناك العديد من السّود الأحرار والعمال الذين يمتلكون أكشاكاً في الأسواق. وكذلك فإن خُدّام الكعبة كانوا من الخصيان السّود، وهم الذين يتحملون مسؤولية حفظ النظام بين المصلّين وتقديم المواد الخاصة بإنارة المصابيح للمتطوعين الذين لم يرغبوا القيام بأيّ من هذه الواجبات، أما الكعبة ذاتها فكانت تُغسل مرة كل سنة من قبل أولئك السّدنة وحدهم. كانوا يتمتعون بنوع من القداسة نتيجة حيازتهم لهذا المنصب، فكانوا يحملون عصياً طويلة يقومون بها بحركات في مواجهة الحجّاج صعبي المراس، فكانوا بمثابة موظفين صغار يؤدّون دورهم بواقعية. وكان هناك كذلك مجموعات متفرّقة من الحجّاج السّود من معظم أرجاء البلاد الإسلامية[1].

كان العجم يتحرّكون ويمشون في مكّة تحفّ بهم الرّيبة وتحوطهم نظرات الشك، وذلك بسبب معتقداتهم الغريبة، التي كانوا يخفونها ويحافظون على سرّيتها، فكانوا يصلّون في جماعات خاصة بهم. وأعتقد أن الكثير منهم جاؤوا براً والعديد منهم على الخيول التي جلبوها معهم. كانوا يتحلّون بالضرورة بسلوك جيد عندما يكونون في مكّة، وكان يبدو عليهم الهدوء والميل إلى المهادنة، كما أنهم تميّزوا بقدرة جيدة على المساومة وعقد الصّفقات كغيرهم. ولا يوجد الكثير من العجم المقيمين في مكّة، على الرّغم من وجود الباعة الجوالين والمضاربين في مجال الأحجار الكريمة والصّقور، وكذلك باعة الفاكهة المجففة المتجولين.

أما المغاربة وهم عرب شمال أفريقيا، فكانوا جماعة من البدو المشاكسين المحبّين للخصام والشجار تميّزهم رائحة قويّة، وربما كان ذلك بسبب أساسي لإهمالهم تعاليم دينهم، وبالأخص الوضوء. وهناك المشعوذون المغاربة (وهم أصحاب سمعة

(1) وبالأخص العكّامون (الجمّالة) الذي كان لإيمانهم البسيط والمتطرف دور في دخول معتقدات غريبة إلى الدين الإسلامي. (كين)

سيئة في الشرق) وكان هناك الكثير ممن يؤمنون بتلك الألاعيب السّحرية التي برعوا بممارستها، وبالأخص بين الهنود. وحتى أنا خضعت لعملية طرد أرواح شريرة، من أجل علاج بثرة كبيرة ظهرت في جبهتي، وكان ذلك على يد عجوز متسكّع من أولئك اللصوص، والذي زكّاه لي المحارب الثالث.

كان علاجه مجموعة من حركات يضرب ويعصر بها جبهتي وكتفي، بينما كان يتلفّظ بنفس الوقت ويتمتم بتعاويذ مبهمة بعينين مُغمضتين والكثير من الإيماءات، ويرسم إشارات غامضة بأدوات غريبة. وكان يكتب اسم الله ومحمّد على قطعة صغيرة من الورق، ثم يغمرها بمحلول من الماء والملح (وهذا حسب تقديري)، وقمت بعد ذلك بغسل البثرة به. لا بدّ هنا أن أذكر أنه ربما كان ذلك مصادفة أو أنها كانت نتيجة عجيبة، أن الانتفاخ قد خمد دون فتحه بعد ثلاثة أيام، وعندها توجّب علي أن أدفع دولاراً واحداً حسب الاتفاق.

من الواجب عليّ الآن أن أذكر شيئاً عن الشّوام، إذ أنهم كانوا مختلفين عن العديد من الجنسيات الأخرى من حيث أنهم قدموا من سوريا. مع العلم أنني لم أزر دمشق على الإطلاق، ولكن بإمكاني أن أتخيل السّكان هناك حيث كانوا خليطاً متفاوتاً من الأجناس والأعراق، كما هو الحال في مكّة ذاتها. ولا يفوتني أن أذكر أنه من بين السّوريين كان الحرفيون الذين يشحذون السّيوف، حيث كنت أرى عدداً منهم يمارسون مهنتهم في أسواق مكّة خلال موسم الحج. وقد جلبوا معهم ماكينات كبيرة لشحذ السّكاكين الكبيرة من سوريا يحملونها على ظهورهم، وكانت كواهلهم تنوء بها.

أما البدو في مكّة فإنك تحسّ أنهم في عالم آخر، إذ تراهم يمشون بخفّة وعلى وجههم تكشيرة ونظرة المتفاجئ المستغرب، ثم يعودون إلى الشجيرات وهم يسبّون ويلعنون الجنود الأتراك بألفاظ شديدة السّوء. وكان هناك أصحاب الأرواح الخبيثة أو البنغاليون الذين كانوا يصلون إلى ذروة عصبيتهم عندما تقع أعينهم على البدوي في الصّحراء، أما في السّوق فقد كانت الحشود تمرّ بجانبه بأمان نسبي دون خشية، وأنا أعرف تماماً ما هو البدوي عندما يكون في بلده.

أمـا التتـار والبخاريـون، فهم من أعـراق تتمتع بقوّة البنية وبأجسـام طويلـة القامة، ويميّزهم خليط من التقاطيع الرّوسية مع خدود حمراء، وهم يقطعون كامل رحلة الحجّ على الأقدام من أبعد البقاع في آسـيا الوسـطى، وتستغرق رحلة بعضهم خمسة أو ستة أشهر. وهم يقومون بكافة الشعائر حتى البسيطة منها بكل دقة والتزام، ولا يمكن رؤية أحـد منهم يركب الحمير في تلك المناسـبات كما يفعـل الحجّاج الآخرون. ويمكنك أن تميّزهـم من خلال ألبسـتهم الصّوفيـة الطويلة حتى في أكثر الأيـام قيظاً وحرارة في الصّحراء، وهم لا يقلون اتساخاً عن غيرهم.

أخيـراً وليس آخـراً، فإننا نجد بعض الرّعاع القادمين من الصّين، والسـاحل الغربي لأفريقيا أو من روسـيا وبعض الدراويش غيـر المتحضّرين القادمين من بقاع لا يعلمها إلا اللـه. ولا يمكننـا أن نحصـر أولئك الدراويش فـي خانة المتسـولين المحترفين أو الحجّاج المعوزين، بل إنهم بكل بساطة شحاذون سيئو الصّيت يتسوّلون باسم الدين. وكانـوا يمضـون حياتهم في الصّلاة والعبادة، ويعيشـون بشـكل كامل على الإحسـان والصّدقات، وليس لديهم بيت أو مأوى، وكان الضرب أو الإسـاءة إلى أيّ منهم يعتبر بمثابة عمل خارج عن الدين. كما كانوا يرتدون ملابس متميزة غريبة الشـكل حسـبما استطاعوا ويتصرّفون بطريقة شنيعة مؤذية، وكان معظمهم يتصنّع الجنون.

أمـا الدراويش من السّـود فقد كانوا متسـلحين بتعاويذ وتمائم وحبـال علقوا عليها أشـياء مختلفة من عظام الأصابع والأحجار والأقمشة البالية، كانت تعود على الواحد منهم مقدار وزنه من تموينات سفينة كاملة. وكان جميعهم يحملون عصا ونصف حبة مـن يقطين يمدّونها إلى الأمام وفي كل الاتجاهـات للحصول على الصّدقات. أما من كان يجرؤ على رفض تقديم شيء مهما كان ضئيلاً فكان يعتبر شخصاً سيئاً. ويمكن أن نصف أولئك الدراويش وأشباههم بكلمات قصيرة بأنهم كانوا من المهجنين الجرب.

وبمـا أننـا قد وصلنا إلى قاع السّـلّم الإنسـاني فإننـي أنتقل إلى وصف مـا تبقى من الحياة الحيوانية في مكّة.

* * *

الفصل الخامس

الحياة الحيوانية والنباتية في مكّة

لا يوجد للجمال سنام، أو أنه ليس كذلك بالضبط، فإن الجمل في الحجاز ذو سنام صغير جداً هو عبارة عن نتوء بسيط يبرز في أضلاع الظهر، مكسو بالصّوف أكثر من بقية أعضاء الجسم حيث يوضع القتب عليه، وهذا الجمل يعمل بكل كدّ في ظروف شديدة السّوء. أما القتب فهو عبارة عن حقيبة طويلة أو كيس خشن الملمس بسماكة وسادة كبيرة وبضعفي طول ظهر الجمل. وعندما كان يوضع على ظهره فهو يُلفّ على طبقتين فوق الذيل، وكانت النهايات تربط على الكتفين من خلال قطعة خشبية تم تصميمها وفق نفس المبدأ كما هو الحال بالنسبة لقتب الظهر. ويتميّز هذا المخلوق الأخرق الحرون بالغباء والعجز لدرجة يرثى لها، وبطباع متوحشة شيطانية. وعندما يتم تحميله بالبضائع يصبّ جام غضبه، وهو يغمغم مخرجاً كتلاً من الزبد، مع جأرة عالية يحسده عليها أسد يزأر باختناق.

لا أستطيع اليوم أن أتذكّر كيف كان شكل الجمل، لكنني لا أستطيع أن أمحو من ذاكرتي صورته وهو يعضّ أو يحاول أن يعضّ شيئاً ما، فقد كانت عملية لا يمكن القيام بها إلا بمثل ذلك التركيب العجيب من الأسنان التي يمتلكها. لم يكن ليفوّت أية فرصة لعضّ أي شيء يستحق ذلك، وقد كان يرى كل شيء حوله يستحق العضّ إلا البدوي، ومع أن بعضاً منها كان يتجرأ ويجرّب أن يختلس عضة صغيرة ماكرة من سيّده، فإنها كانت تقابل بمعاملة وحشية تفوق الوصف. ومن النادر أن يرى المرء أباعر بغير تقرّحات متسلخة أو التهابات تغطي أسطح أقدامها بسماكة إنشات، وغالباً

ما تموت تعباً وإعياء.

ومع أن البعير يشـرب عـادة بكل حرّية لمرتين في اليوم فيما إذا سُـمح له، فإنني قد ركبت تلك المخلوقات لمسيرة ثلاثة أيام مـع التنقل بين مصدر مياه إلى آخر، وكانت معاناتهـا ظاهـرة بوضـوح للعيان. وقد لاحظـتُ أن بعض الطرقات، أو ما كان يسـمى مجـازاً بالطرقـات، فقـد كانت مجـرّد أراض منبسـطة غير محـدّدة المعالـم، رسـمتها جماجـم كثيـرة جففتها الشـمس الحارقة لمئـات من تلـك الحيوانات علـى الجانبين كليهمـا، وكثيراً ما كنت أقوم بسـحب عظامها الكبيرة عن تلـك الطرقات. كان الجمل الذي يسير ضمن قافلة يقطع مسافة تصل لما يقارب ميلين ونصف في السّاعة، محملاً بحمولة عادية (ربع طن)، وكان من الممكن استئجارها بمبلغ دولار ونصف في اليوم الواحد، وقد تختلف هذه الأجرة حسب الظروف، أما السّعر المتوسط للجمل فيتراوح بين 30 دولاراً وصولاً إلى 60 دولاراً، وفي بعض الأحيان كان السّـعر يصل إلى أرقام خيالية لبعض أنواعها الممتازة.

اسـتخدمت الحكومـة التركية الجمال المصريـة والتي كانت أصغـر حجماً بثلاث مـرات ولكنهـا أقوى مـن أقرانها الموجودة فـي الحجاز، مع أنني علمـت أنها تختلف فـي قـوة تحمّلها. ويمكنـك أن ترى في الحجاز عـدداً كبيراً من الجمـال قد لا تراه في أي مـكان آخر من بلاد الشـرق التي زرتُها. ويمكننـي أن أفترض بدقة قدر الإمكان، أن عددها لا يقل عن ستين ألفاً مجتمعة في سهل جبل عرفات في يوم الجمع الكبير هناك.

لاحظـتُ أن أرض الحجـاز تكاد تخلـو من الخيول، إذ كنت تجـد القليل منها فقط عـدا تلـك التي تركبهـا القـوات التركية. إنهـا تُعرف بالخيـول العربية صغيـرة الحجم شهيرة السّمعة والتي تتميّز بجسارتها وأصالتها. لم يكن أحد يعتني بها، وغالباً ما كانوا يضعون لها حدوات سـيئة الصّنع، ولم يكونوا يقومون بتشـذيب وحفّ حوافرها على الإطلاق، وبالتالي فقد كانت تعاني من تشوهات دائمة ظاهرة فيها. إلا أن تلك الطبيعة والطريقة في التعامل منحت تلك الجياد العربية أقداماً غريبة متميزة، عند رسـغ قدمها حيـث تلتقي بالأرض. ولم تكـن تنتضي أيّة حدوات بالمعنـى الحقيقي، وهو أمر نادر

لا يراه المرء سواء في الشرق أو في الغرب، بل مجرّد قطعة منبسطة من الحديد بفتحة صغيرة في منتصفها، وعندما تزيلها كنت تجد أن حوافرها في حالة سيئة من الاهتراء والتلف.

وهناك بعض الخيول الجيدة التي يمتلكها عرب أثرياء من مكّة، وليس غريباً أن يدفع السّيد المكّي في حصانه مبلغاً يصل إلى مئة دولار. إلا أنني شاهدتُ قلة قليلة منها فقط يمتطيها البدو، ولا بدّ أنها كانت متوحشة وقاسية إلى حدّ بعيد لتتحمّل تلك المعاملة التي كانت تلاقيها منهم. وإنّ الصّفة المميّزة للخيول في الحجاز بشكل عام هي قدرتها على الخبب والهرولة أو القفز، فضلاً عن أنها تمتاز بمزاج وحساسية معتدلة وأعصاب ثابتة مع خفّة وبراعة في التمدّد كما لو أنها جمل، وذلك بعدما كانت تُترك واقفة لوقت طويل.

أما الحمير في الحجاز، فهي كائنات غريبة عن تلك البلاد، ولا أظن أنني شاهدتُ مثلها في أي مكان آخر، فقد كانت شديدة الاختلاف عن مثيلاتها المصريات. ومن الجائز القول أنها كانت تحتلّ مكاناً مرموقاً من حيث نوعها، فهي شديدة القوة بشكل مفرط، ومع هذا الفارق فقد كانت سهلة القياد سريعة الاستجابة، إلا أنها كانت كمعظم الحمير، لا ينقصها العناد أحياناً. وهي تمتاز بلون أبيض مع علامات وبقع سوداء ظاهرة بوضوح. قد يصل سعر الحمار الجيد إلى ثلاثين دولاراً، وثمّة قوافل منها تسير ليلاً بين مكّة وجدة بعد الغروب، وتصل قبل طلوع الفجر، لتقطع مسافة تتجاوز الأربعين ميلاً، وهي محملة بالرجال أو البضائع الثقيلة.

ويقال إن الحمير تستمر لثلاث سنوات في هذا العمل، وعندما لا تصبح قادرة على الاستمرار، كان يتم تقديرها وتحال لتصبح حميراً خاصة بركوب الأشخاص كمكافأة للعمل الذي قامت به. وقد كان هناك نوع أسود صغير منها، لكنه ليس شائعاً مثل ذلك النوع الأبيض. ولم أشاهد في الحجاز أيّ حمار بجلد خشن أو من اللون الرّمادي الشائع.

أما البغال فهي حيوانات ممتازة، ومن النادر أن يتجاوز ارتفاع أنثاها الأربعة عشرة

شبراً، بينما كان البغل يتجاوز ذلك الارتفاع. وقد علمت أن أحد ذكورها في المدينة قد وصل ارتفاعه إلى ارتفاع حصان، لكنني لم أشاهده عندما ذهبت هناك. وقد رأيتُ بعضها في مكّة وكانت كبيرة الحجم فعلاً.

لم أرَ أبقاراً أو ثيراناً من أي نوع كان، لكنني علمت أنها موجودة. وأعتقد أن قلة وجودها يعود إلى الوصف الملائم لها بأنها من الماشية الهزيلة قليلة اللحم، وأتخيّلها وهي تتمايل في مراعيها الرّملية بين الأحجار وشجيرات الكشمش الميتة، ويزيد عليها قليلاً الغنم والماعز التي كانت حيوانات أقرب إلى الغباوة والانقياد، إذ كان يمكن جرّها ليلاً في طرقات مكّة المعتمة المضاءة بالشموع، للاستفادة منها واستغلالها.

هناك أنواع عديدة مختلفة من الأغنام والماعز في الحجاز، وتميّزت بعض أنواع الغنم بوبر قصير وقرون ملساء فكانت تشابه الماعز، بينما تميّزت بعض أنواع الماعز الأخرى بصوف كثيف وقرون ملتفة كالأغنام، وبالتالي فقد كان الفارق الفعلي الوحيد الذي يميّز الغنم هو تلك الكتلة من الدّهن التي تحيط بأصل الذيل، والتي لم يكن غريباً أن يصل وزنها إلى ستة أو ثمانية پاوندات. كانت أسعار الغنم أو الماعز تتراوح حسب حجمها وحالتها من دولار واحد وحتى خمسة دولارات.

لقد كان يتم وسم جميع الحيوانات الأليفة، وكانت الخيول والأغنام توسم بشكل معتدل، أما الجمال والحمير فكانت في بعض الأحيان توسم من الرّأس إلى القدم وبأكثر الأدوات غرابة وأكثر الطرق إيلاماً، ممّا يرجع إلى الأذهان تلك الأيام الغابرة التي كانت تعذّب فيها الحيوانات، وقد شاهدت مرة بدوياً يمضي أكثر من ساعة يعالج فيها جلد جمل بأداة حديدية متوهجة.

أما الكلاب الشاردة فهي كثيرة العديد في مكّة، حالها في ذلك حال القسطنطينية أو أي مكان آخر في الشرق، وبصرف النظر عن كثرة عددها وعن الحرارة الشديدة فضلاً عن ندرة المياه، فإن داء الكَلَب كان غير معروف تقريباً في تلك البلاد. وقد تناهى إلى سمعي إشاعات غامضة عن وجود كلاب الصّيد في المدينة، لكنني لم أصادف أياً منها على الإطلاق.

أما القطط فحدّث عنها ولا حرج، وقد تميزت بآذانها الكبيرة ورأسها صغير الحجم.

ولأحدثكـم عن القرود في هـذه البلاد، والتي كانت دون اسـتثناء أكثر المخلوقات الصّغيـرة التي يمكـن مصادفتها غرابة وطرافة، فقد شـاهدت في جبـل النّور مجموعة مؤلفة من خمسـة من القرود وكانت تشـبه الكلب في شكلها، وبدت أليفة ووادعة إلى حدّ بعيد، مع أنها كانت محترسـة ويقظة جداً فكان إمسـاكها أمراً شـديد الصّعوبة. أما تلك القصص التي يرويها العرب عن ميلها للسّرقة وحبها الشديد وولعها بالتقليد فهي تفتقـد إلـى الدّليـل، إلا إذا منحت تلك الحيوانـات البرية بطبيعة الحـال قدرات فكرية خارقـة، وقـد سـاد اعتقاد على مسـتوى العالم بأجمعه بـأن القرود كائنـات قادرة على الـكلام، لكنهـا لا تفعـل ذلك خوفاً مـن إجبارها علـى العمل، مع أننـي أعتقد أن تلك الفريـة لا يمكـن إثباتها بدليل قـوي، بل بمجرّد قصة لأحد البحـارة ذكر لي أنه قام مرة بوضع قرد حي في الفرن لتحميره، حتى سمع صراخه يقول: «هل يمكنك أيها الإنسان الفاني أن تتحمل هذا العذاب؟؟».

لكنني سمعت قصصاً عن تلك الطبيعة الذكية لتلك الحيوانات وقدرتها التي لا شك فيها على الكلام والتحدث في العهود الغابرة الماضية، وجاءت القصة الأسطورية عن ذلك الشـيخ العربي لتثير تلك القضية وذلك التسـاؤل عن قدرة القرود على التحدّث، وهو الأمر الذي لا تقوم به في يومنا هذا.

تقول القصة: جلب الشـيخ علي اثني عشـر قرداً إلى سـاحته – وقد تعتقد أن الشيخ والقـرود كذلـك كانوا الجدود الأولى لكل الشـيوخ والقرود (وهو الأسـاس المفضل لأي مـن الحـوادث التاريخية الموثقة تماماً في الشـرق) – على كل حال ذهب الشـيخ علي إلى أول تلك القرود وأشـار بيده إلى صخرة أمامه ووجّه كلامه إليه بهذه الطريقة تقريبـاً: «والآن، أريـد منك أن تحمل تلـك الصّخرة بعيداً، وإلا فإنك سـتضطرني لأن أقطع عنقك أيها القرد، هيا، تحرّك، وأظهر لتلك السّيدات مهارتك ورشاقتك، الحمد للـه، هيـا، الله أكبر». إلا أن ذلك الحيوان الماكر بقي شـارداً وغير مُصـغٍ وبدا عليه أنه شـارد البـال، وهـي حركة تفعلها القـرود عادة. فقال الشـيخ: «أعتقـد أنَّ كل ذلك كان

مجرّد كذبة معقولة، بسم الله» وقام بقطع رأسه، وهكذا استمر الحال معها جميعاً إلى أن وصل إلى القرد الثاني عشر، وكانت قردة حاملاً تركها حتى النهاية، فما كان منها إلا أن قامت ومشت بالحجر حتى نهاية المطاف دون أن يطلب منها ذلك، وشرحت أنها الآن القردة الأخيرة من المتبقية من جنسها، فلم تجد أمامها من بدّ من الاعتراف أنها تستطيع الحديث، ولكنها أقسمت بأن ذلك السّرّ سيموت معها.

قال الشيخ: «فلتنهش الكلاب لحية جدّتك الكبرى». ردّت القردة: «بالتأكيد»، إلا أنها لم تعلّم أياً من ذريتها القدرة على الحديث. وأتساءل الآن فيما إذا كانت تلك القصة حقيقية، إذ أنني شاهدت عدداً كبيراً من قرود البابون الصّغيرة في مكّة التي كانوا يحتفظون بها كحيوانات أليفة، وكانوا في بعض الأحيان يربطونها في مداخل البيوت فكانت تؤدّي عملها وكأنها بواب أمين أو حارس حريص، ولا تسأل عن التسلية التي كنا نحظى بها لمنظر أحد تلك الكائنات الصّغيرة وهو يعترض سبيل غريب. وإنني لأظن اليوم أنها كانت الموضة الرّائجة في القدس أيام سليمان.

وكذلك فإن هناك الكثير من الجرذان والفئران.

أما النسور فهي تعيش في تلك البلاد، وقد حاول بدوي مرة أن يبيعني أحدها وكان ذا جناحين كبيرين بالفعل، كما كانت هناك أنواع عديدة ومختلفة من الصّقور.

بينما كنت ترى طيور الحدأة والعقبان تحوم في دوائر كبيرة في السّماء في كثير من الأماكن المأهولة بها، وكانت تتشارك تناول الجيف المتوافرة بكثرة مع الغربان الرّمادية والسوداء.

وكذلك كانت الدّواجن متوافرة بكثرة، وكنت أشاهد العشرات من طائر السّماني عندما يجلبها أبناء البدو إلى السّوق وكانوا ينخسونها ويضربونها بعيدان كانوا يحملونها.

أما اليمام فكان بأعداد كبيرة جداً ربما كانت تفوق ما يمكن أن تراه في أي مكان آخر. وكان مرآها يجلب السّرور فكنت أسلّي نفسي أحياناً بعدّ بعض أسرابها الصّغيرة

ومقارنتها بتلك الأسـراب الأكبر عدداً. يمكنني أن أقـدّر أعداد تلك الطيور الموجودة في الحَرَم بخمسـة إلى سـتة آلاف، وقد تميّزت بالوداعة الشديدة والألفة بحيث كانت تتناول طعامها من أيدي الناس بكل حرية، وكان السّـبب وراء عدم خوفها هو أن تلك الطيور كانت تعتبر مقدّسـة إلى حدّ بعيد، أكثر مـن أي من الحيوانات الأخرى في مكّة (باسـتثناء السّنونو على ما أعتقد) وكانوا ينظرون إليها كإحدى ممتلكات الحَرَم، وكما أعتقد فإنهم كانوا يحرّمون قتلها[1].

كنـت أذهب أحياناً إلـى الحَرَم لأطعم تلك الطيور مثلمـا كان يفعل الحجّاج الذين كانوا يشـترون سـلالاً من الحبوب الممزوجة والمتكسـرة لهذا الغرض، وما إن تغادر الرّصيف حتى تجد نفسك محاطاً من جميع الجهات بعاصفة من اليمام تدوّم حولك، ويصبـح الهواء المحيط ثقيلاً مـن كل جهة، وتُحجب عنك الرّؤية بشـكل كامل بغيمة مـن تلك الطيور، وترى الحبوب تتطاير بخفة من السّـلة التـي تحملها عندما تتخاطفها الطيور برشـاقة وسـرعة، وتشـعر بحركة ملابسـك التي تتماوج نتيجة الحركة السّريعة لرفرفة أجنحتها، مع دويّ يصمّ الآذان، وما أشـد سـعادتك عندما تفرغ السّـلة ويصبح بمقـدورك الهـروب مـن هذه الفوضـى ومن تدافـع الطيـور وتقافزها السّـريع فوقك، ويمكنـك مشـاهدة الأرض حولك على مسـافة ياردات مفروشـة بارتفـاع طبقيتين أو ثلاثة بأجسـام هذه الطيور، وعندما تنتهي الحبوب فإنها تنتشـر في السّاحة أو تنتقل إلى الأسواق المجاورة.

وقد رأيتُ بين هذه الطيور عدداً من الأنواع اللافتة للنظر تشابه تلك الأنواع الشائعة في بلادنا، إذ شـدّت انتباهي بشـكل خـاص إحدى فصائلها بعد وصولـي بفترة قصيرة إلى مكّة تشـبه jacobin، والتي شـاهدتها فيما بعد في نفس السّرب، إذ أنني كنت قادراً علـى تمييزها ومعرفـة أعدادها. افترضت في البداية أن هـذه الطيور متميزة وفريدة من

---

(1) سمعت أن السّبب في هذه المعاملة لا يعود لأي صفة تميز هذه الطيور، وأظن أنها حصلت على تلك الميزة مثلها مثل الحيوانات الأخرى التي كانت تعيش في الحَرَم، وكذلك فقد تآلفت طبيعتها ببساطة مع الظروف الملائمة السّائدة في ذلك المكان. (كين)

نوعها، لكنني تأكدت لاحقاً أن كل أنواع الحمام التي يمكن مصادفتها في المنطقة هي من الأنواع البرية، وبالتأكيد فإنك ستجد في كل بيت مجموعة من الطيور في غرفة ما (شاهدتُ في إحدى تلك الغرف خمسة أعشاش تقريباً فيها بيض أو أفراخ، في كوات مرتفعة في الجدار كانت مخصصة على ما يبدو لهذا الغرض) وكانت أي محاولة لإدخال أنواع جديدة مقيمة ضرباً من العبث، إذ أنها سرعان ما تضيع بين الأنواع كثيرة العدد الموجودة فعلياً.

شاهدتُ بعض الأنواع التي تميّزت بخطوط مفردة على الأجنحة والذيل، لتتحوّل إلى مجرّد بقع على ريشة أو ريشتين من جسمها، أو كانت تختفي تماماً، بينما كانت مسحة خفيفة بلون الفراولة تظهر عندِ الظهر وهي شائعة بينها. وكان من الممكن مشاهدة بعض حركات الشقلبة الغريبة في واحدة من حماماتنا، وربما كانت تلك وسيلة تستخدمها للهبوط بصورة مفاجئة أثناء طيرانها السّريع. لا بد أن هذه الطيور قد حافظت على شكلها ووضعها الحالي لقرون عديدة، وأن التنوّع كان يحدث بصورة نادرة نتيجة دخول فصائل غريبة بينها في فترات متباعدة، وربما كانت قد تطوّرت بشكل طبيعي في ظل الظروف المعتادة التي تعيش بها تلك الطيور.

أما طيور السّنونو فكان يُنظر إليها بكثير من الاحترام ويسمح لها ببناء أعشاشها في الحَرَم. ولقد كان القوس الرّائع المبني على الطراز العربي القديم الذي تكوّنت منه بوّابة إبراهيم بارتفاع يقارب خمسين قدماً، ملطخاً بصورة كاملة بالطين الذي كانت تلك الطيور تستخدمه لبناء أعشاشها التي بدت كعناقيد طينية. كان ذلك الاحترام الذي تتلقاه طيور السّنونو نتيجة اعتقاد مفاده أن السّنونو كانت أداة حماية مكّة في مواجهة هجوم جيش أبرَهة الحبشي في العام الذي ولد فيه محمّد . ويذكر المعتقد أن الله قد أرسل تلك الطيور، حيث حمل كل واحد منها ثلاثة أحجار صغيرة واحدة في منقارها واثنتين في مخالبها، وألقتها على رؤوس الجيش الحبشي، فكانت تخترق أجساد الرّجال والفيلة وترميهم أرضاً من خلال معجزة،ولم يتبقَ من الجيش الغازي إلا رجل

واحـد فقط هـرب إلى بلده، ونقل الأخبـار إلى ملكه، وما إن انتهى مـن ذلك حتى قام أحد طيور السّنونو الذي ظل يتبعه من علٍ منذ خرج من مكّة، وألقى عليه الحجر فقتل في مكانه.

فـي اعتقادي فإنه من الجائز أن يكون هناك تفسـير لذلـك، هو أنه من المعروف عن طائر السّـنونو أنه يقوم بإسقاط كتل من الطين الذي يحمله لبناء عشه، وهذا هو السّبب في نشـر الذعر والرعب وانتشـار تلك القصة الخيالية، لا سيما وأن ذلك الاعتقاد له ما يبرّره ويصلح كأساس متين لهذه القصة التاريخية المنتشرة في الشرق، وقد وقعتُ على ملحوظة مرفقة بكتاب سيد أمير علي «حياة محمّد» (ويليامز ونورغيت Williams & Norgate، لندن 1873)[1].

ويمكنني أن أضيف إلى الملحوظة في أسفل الصّفحة 116، أنه لو قدّر للجيش الهندي المدرب على يد الإنكليز أن يكون في مكّة غداً، فلن يبقى في بحر أسبوع واحد فقط أيّ رجل منهم يقدر على القيام بمهمة حراسة عادية، وذلك بسبب الأمراض والأوبئة التي تشتهر بها مكّة، والتي ألمحت إلى ذكرها لكم سابقاً.

ومـن بعد ذلك تطور ذلك المعتقد إلى شـكله الحالي وتم تسـجيله وإثباته كحقيقة تاريخية خلال حياة محمّد.

يمكنكم مشاهدة السّنونو الرّمادي الصّغير الأليف يغرّد بفرح على عتبة نوافذكم هنا كما يفعل في أيّ مكان آخر.

كذلـك فمن الممكن مشـاهدة بضعة أنواع أخرى صغيرة مـن الطيور من نوع صائد الذباب تطير في الصّحراء.

---

(1) تقدم هذه الحادثة مثالاً جيداً على أن الأساطير تجد لها أرضاً خصبة بين الأمم غير المتعلمة. فالذي دمّر الغزاة كان وباء قاتلاً، ربما كان الحصبة؛ ومن الغريب أن كلمة الحصبة ترمز كذلك إلى الحصباء أو الحصى الصغيرة، وهكذا فإن أصل الأسطورة أن الجيش قد أُهلك بحجارة أمطرتها السّماء، يمكن متابعته بسهولة. (كين)

أما الأفاعي فهي منتشرة في كل البلاد، ولكن ليس بأعداد كبيرة، كما أن بعضها سامّ جداً. لقد لدغت واحدة منها أحد أفراد جماعتنا في إصبع قدمه وهربت، وقد وصفها الرّجال حسب شكلها بأنها حية صفراء مرقطة ببقع سود، طولها يقارب 18 إنشاً. وقد شارف الرّجل على الهلاك بسبب اللدغة، وبقي فاقد الحس والشعور لثلاث ساعات، ولم يتعافَ من اللدغة إلا بعد مرور عدّة أسابيع.

وبالنسبة إلى السّحالي فهناك بضعة أنواع كبيرة منها تعيش بين الصّخور، وهي بلون أصفر وتتردّد أحياناً على البيوت، وقد كانت مصدر تسلية وقلق لي عندما كنت أشاهدها تصطاد الذباب على السّقف.

أما العقارب والعناكب الذئبية الكبيرة والعناكب العادية وحشرة أم أربع وأربعين وكافة الكائنات الزاحفة الأخرى فقد كانت متوفرة بكثرة.

وكذلك الصّراصير فهي كبيرة الحجم تصل لإنش ونصف، ويمكن أن تصادفها جالسة في أي زاوية ممكنة أو أنها تمر بجانبك بكل تشامخ مع نظرة احتقار وهي ترفرف بقرون استشعار بطول ثلاثة إنشات.

تمرّ أسراب هائلة من الجراد عبر البلاد في كل الأوقات بأعداد كبيرة دوماً، وقد كان العرب يأكلونها، حيث كان الأطفال يبحثون عنها ويعتبرونها غنيمة كبرى. وقد كان يشترون ما قيمته نصف پنس منها من الرّجال الذين يصطادونها من الشوارع ويضعونها في السّلال كما هو الحال بالنسبة للرّوبيان، التي كانت تقاربها إلى حدّ بعيد من حيث شكل أجسامها، ونسبة الحجم الكبيرة بين أرجلها وسلسلة ظهرها، ناهيك عن طعمها، الذي يشابه نكهة السّمك وغني بالدّهون. حاولتُ أكلها مرة، لكنني لم أستطع أن أحبّها، بصرف النظر عن كونها غير شهية. وقد علمت أن العرب يصطادونها من خلال إشعال نار في الأعشاب والنباتات الجافة التي كانت تطير فوقها أو التي تهبط عليها، وهكذا فقد كانت تختنق وتتساقط بكميات هائلة، وعندما يمسكونها يطهونها بالطريقة نفسها دوماً من خلال سفعها بالنيران التي كانت تسقط فيها وتدخينها بدخان تلك النيران.

كذلك كان من الممكن شراء نحل العسل من الأسواق بما يقارب خمسة قروش للرّطل.

أما بالنسبة للفراشات فلم أصادف إلا القليل منها في مناطق الأدغال (؟)، بينما كان هناك أنواع من العثة سيئة السّمعة وهي من أسوأ الأنواع التي يمكن رؤيتها في المدينة.

وقد انتشرت في مكّة أنواع كثيرة من الذبابات التي تقتات الجيف، لكنها لم تكن لتقارن بأي حال بالأنواع الكثيرة المنتشرة كالوباء في مصر[1].

أما البعوض فكان مزعجاً، مع أن هناك أماكن كثيرة يمكنه أن يعيش فيها سوى مكّة، وهكذا فإنني لن أجهد قارئي العزيز بمعرفة سلالاته وأنواعه.

كما أن هناك العديد من اللافقاريات آكلة اللحم، واللحم البشري خصوصاً، تجوب المكان، ولم يكن هناك أماكن كثيرة يمكنها تناول طعامها فيها.

وبهذا أنتهي إلى حدّ ما من وصف معظم الحياة الحيوانية المحدودة في مكّة، ولا أعتقد أنني نسيت أن أذكر مخلوقاً واحداً صادفته هناك.

* * *

من ناحية أخرى، لم تكن الحياة النباتية محدودة مثل الحياة الحيوانية، فعلى الرّغم من أن المظهر العام للبلاد لم يكن إلا أراضيَ صخرية جرداء أو صحراء رملية، فلم تكن هناك أيّ منطقة خالية تماماً من القليل من النباتات. في بعض الأماكن وجدت السّاڤانا الكبيرة التي تكوّنت من أعشاب قاسية وكأنها أرض محروثة فيها بعض بقايا الحصاد المتناثر هنا وهناك، وفي أماكن أخرى كنت تجد أدغالاً صغيرة من نباتات الوزّال، أو عيداناً من القش الخشن (وهي لم تكن في الحقيقة تمتّ إلى نبات الوزّال أو القش بأيّة صلة عند معاينتها عن قرب، لكنها كانت تشابهها في المنظر العام فقط). وكانت كلها تشكل مراعي ممتازة للجمال، إذ أنّ الجمل يجترّ كميات كبيرة من أشواك الصّحراء،

---

(1) وقد كانت تلك الذبابات تنقل أمراضها إلى الغرباء في مكّة مسببة قروحاً تظهر في الأماكن المكشوفة من البشرة. (كين)

وقطع الحديد التي كانت تستخدم لتوشية الخناجر، وعندما كانت تحظى بوجبة من الورد البري الأبيض في شهر ديسمبر فإنها تعتبرها بمثابة وليمة فاخرة وأطباق شهية تتناولها بنهم كبير.

يمكنك أن تجد هنا وهناك في بعض المناطق الصّخرية شجيرات قزمة صغيرة الحجم، بما يصلح لأن يكون طعاماً كافياً لقليل من الأغنام والماعز. ومن بينها نبتة الأبسنثين، وهي واحدة من النباتات التي يفضلها الفقراء والدّراويش المتسخون، وهي تستحق الذكر بسبب عطرها الرّائع واخضرارها المنعش البهيج. كما تنتشر في كامل المناطق الرّيفية المحيطة بقع وأماكن خضراء خصبة، حيث يمكن أن ينمو أي شيء هناك، من القمح إلى البلح إلى التفاح أو حتى البرتقال، وتتمّ حراثة هذه المناطق بعناية وانتظام فتنتج أصنافاً متنوعة من الفاكهة ترسل إلى السّوق.

أما البطيخ والرّمان فيمكنني أن أقول إنها ربما كانت الأفضل في العالم، إذ أن أحد أنواع الرّمان ينتج حبات شديدة النعومة والسلاسة يمكن تناولها بكل استمتاع. وهناك صباغ الملابس أخضر اللون الذي ينتج بمجرّد عملية بسيطة تتمّ على قشور الرّمان تلك، ولا يعتبر ارتداء هذا اللون في مكّة حصراً على أبناء قريش، وهم من نسل قبيلة محمّد، كما لا يمكن النظر إليها باعتبارها علامة رحلة الحجّ الثالثة للحاج، كما ذكر بعض الكتّاب.

أما الخضار فكانت قليلة، مع أن كل أنواعها كانت تنمو هناك، باستثناء البطاطس والملفوف.

كذلك هناك نبتة الأكاسيا الشوكية ونبتة الطرفاء التي تستخدم في التدفئة، وبعض الشجيرات الصّغيرة، كما كانت العوارض والدّعائم الخشبية التي تستخدم في الأسقف تصنع من جذوع شجرة النخيل، بينما تصنع من ورقها وسعفها شرائح رقيقة تستخدم لإكساء السّقوف.

لا أخفيكم فإنني أشـعر بأنني أقوم بعمل غير مسـبوق عندما أؤلف كتاباً، مهما كان صغيـراً. وعندمـا أصل الآن إلى التمـور في جزيرة العرب، فإنني أقرّ بأنه ليدهشـني أنه ليـس بإمكاني أن أضيف أي أمـر جديد عليها قد لا يعرفه الناس، إذ أنها المادة الغذائية الرّئيسـية فـي مكّة، وهي تبقى جنباً إلى جنب مع الخبـز، ومن النادر أن أرى أحداً يأكل الخبز دون تمر، وغالباً ما كنت أرى التمر يؤكل دون خبز؛ فالتمور هي روح الحياة هنا.

هنالك أنواع كثيرة منها، ومهما كانت جودتها فإنها أقل ندرة بقليل عن وجودها في لندن. ففي الأيام الغابرة كنت تجد شـوارع مكّة مفروشـة تقريباً بنوى التمر، ومما يؤلم القلب اليوم أن ترى النسـاء العجائز والمتسـوّلين الهنود البائسين يجمعون تلك النوى ويبيعونها، إذ أنها تباع بقيمة معقولة عند جمع كميات كبيرة منها، لا سـيّما وأنها الغذاء الأفضل والأرخص الذي كان بمقدور البلاد أن تتحمّل ثمنه كعلف للنوق الحلوب أو الأغنـام، وبعد نقعها لعدة سـاعات في المياه فإنها تصبح سـهلة المضـغ. بينما يتم فرز النـوى ذات الألـوان الأفضل والحجم الأكبـر بعناية لتباع ومن ثـم توضع في مخارط خاصة لتتحول إلى مسابح جميلة الشكل - لا تنتج مكّة أي شيء بنفسها بل تعتمد على المصادر الأجنبية حتى في تمورها .

ولا يفوتنـي أن أذكر أن معظم الحدائق والبسـاتين كانت ترى باتجاه الطائف، وهي بلـدة تبعد مسـيرة ثلاثة أيام نحو الشـرق من مكّة، مـع أنني لم أزرها. ولكـن يقال إنها منتجع مكّة حيث يمضي فيها العديد من أثرياء مكّة شـهري أغسطس وسبتمبر (موسم الطائـف)، حيث «يعيشـون على تناول العنب والعسـل بين نسـمات عليلـة باردة» كما سمعت ذلك منهم. وعلاوة على ذلك تستهلك جزيرة العرب كميات كبيرة من الفاكهة والخضار تستوردها من مصر، أما الخشب فتستورده من بورما.

علـى الرّغم من أننـي لا أميّز بين حرف الألف والعصا (بيـن الصّارية والمدفع) في علـم الجيولوجيـا، فإننـي أقول إنه يجـب على المـرء أن يكون أعمى لكـي لا يلاحظ التغيرات المتسـارعة الرّائعة التي تجري على سـطح الأرض بـكل وضوح أمام عينيه. وإذا كان القـارئ العزيـز يتذكـر فإننـا في طريقنا إلى مكّة مشـينا ما يقـارب 28 ميلاً من

السّهول الرّملية بدءاً من البحر حتى بداية المنطقة الصّخرية. وإن هذه الحدود تمتد صعوداً وهبوطاً طوال ساحل الحجاز، وتصل وسطياً إلى ما يقارب الثلاثين ميلاً.

لقد سافرت في أوقات متعددة لما يقارب الأربعمئة ميل في هذا الجزء من البلاد، ورأيت أن طبيعتها ومناخها كان مناخاً ساحلياً جافاً. أما عندما يدخل المرء إلى هذه الصّحراء الكئيبة من الأجزاء الداخلية من البلاد، وقبل أن يقطع الأميال الخمسة الأخيرة بعد الوصول إلى الحدّ النهائي من الصّخر، فإنه يجد نفسه بين جزيئات متحللة من قشور لحيوانات صدفية متحجّرة قديمة، قبل أن يدرك ما يحيطه من طبقات من الأصداف البحرية المتعفنة التي حولتها أشعة الشمس الحارقة إلى اللون الأبيض.

أما إذا ابتعد بجمله عن تلك الطريق المتهالكة، فإنه يسمع صوت انسحاق وتكسّر تحت قدميه كما لو أنه كان يمشي على فناجين شاي متكسرة. ومع تقدمه في السّير في هذه الأرض القاحلة المهجورة، فإنه يجد في المكان المحيط به وفي كل مكان تقريباً دلائل وعلامات مشابهة، مثل الحصى المصقولة بعناية فائقة عندما كانت المياه تسيل في مجازات هائلة الحجم، أو يشاهد حصيّات صغيرة مشابهة لها، مع أصداف صغيرة الحجم تصلّبت على شكل صخور متكتلة، بينما توضعت فوقها طبقة أخرى ممتدّة لأميال من رمال متحركة مغبرّة تحرّكها أقل نسمة هواء. وفي القاع يجد المرء طبقة متموّجة طويلة من الطين الخفيف الناعم بسماكة إنشين أو ثلاثة، والتي كانت بالأمس حمأة زلقة صفراء اللون عند هطول زخات من المطر عليها. أما تحت شمس اليوم اللاهبة التي تصبّ شواظ حممها فوقها فقد أصبحت كأنها في فرن للشواء، وتصلبت كقدر ثم تشقّقت وبدت كأنها أوانٍ من الخزف الصّيني، مع كل القطع الصّغيرة المتفككة من طبقاتها والتي جفّ بعضها وتشكّل وكأنه أنابيب تصريف.

تعاني الجمال كثيراً وتشقّ طريقها بصعوبة في هذه الأماكن، إذ أن هذه الطرقات عندما تكون رطبة تصبح زلقة، فتمشي الجمال عليها بكل جهد وهي تمدّ أقدامها بغير انتظام فتقع منزلقة عليها وغالباً ما تلتوي مفاصلها بصورة مؤلمة، أما عندما تكون الطرقات جافة فإن الطبقات المتجعدة الجافة تتكسّر تحت وطأة ثقلها فتجرح أقدامها

بقسوة. وفي الحالتين كلتيهما، إذا أصبحت عرجاء وغير قادرة على اللحاق بالركب، كان يتم ذبحها إنقاذاً لها.

ومع اقترابك من البحر تصبح الأصداف أكثر قسوة بشكل ملحوظ، فترى أن عروق اللولؤ لم تُسحب منها، وقد يعترض طريقك قطع من الطين الأسود الجاف يغطيها مسحوق ملحي أبيض متكثف، تذكرك فوراً بحبات الثلج المتجمدة. حتى في هذا المكان يمكن أن ينمو شيء ما، إذ يمكنك أن تشاهد في كل مئة أو مئتي ياردة نبتات خضراء صغيرة ترتفع إنشاً أو اثنين، أو طبقة من نبات البيقة المكسوة بأزهار بنفسجية. وسرعان ما يصيبك الخوف وتنظر تحت قدمي جملك، لكي تحيل بصرك عن وهج شديد يخطف الأبصار ويسفع العيون بشكل مؤلم، فترى الأرض ممتدّة باتساع أمامك لا يحدّها سوى مرأى أعمدة دوارة من الرّمل تتطاير بسرعة هائلة في أفق وهمي لا نهاية له. تكثر هذه الزوابع في أكثر الأيام حرارة، وعندها يصبح الإزعاج لا يطاق بحيث تفقد أدنى اهتمام بها. أما إن شاهدتها في المساء فإن حركاتها السّريعة الخاطفة وأشكالها المتغيرة قد تجعل منها مصدر فرجة ممتعة حقاً، وربما تتاح لك الفرصة لتتأمل في قول الشاعر:

أمام عيني الحالمة

تتسع الصّحراء برمال راحلة

وسماء ممتدّة بلا حدود

فأحلّق عالياً تحملني نفحة

بخيوط ذهبية ناعمة

سرعان ما تجتمع عمداناً عالية

تعصف بالنفس وجلاً ومهابة

تحملك نحو حضن شمس بعيدة

عبر سهول فسيحة بلا نهاية

ويجري عمود النور حاملاً ظلّه بحنوّ

لم يبقَ منه إلا سرابٌ عابث مزهو.

لونغفيلو،

لا أستطيع أن أقسم أنني وصلت البحر، إلا عند بلوغي جدّة فإني لم أشعر بالماء حقيقة في أي مكان آخر، وعندما أصبحت على مقربة منه انبسطت أمامي رماله بترحاب وامتزجت بسلسلة صخرية لتشكّل خلجاناً ضحلة عند تراجع المياه، بطريقة أوحت إلي بأنه لا يوجد أي فاصل بين الماء واليابسة. في مثل هذه الأماكن يتشكل السّراب بصورة أكثر ديمومة واستمرارية بأشكال عجيبة غريبة لا مثيل لها تضع المرء في حيرة أمام ما يراه.

إن الكثير من تلك الترسّبات السّطحية على السّاحل لا ينتمي إلى علم الجيولوجيا بصلة على ما أخشى، وهو ما دفعني للرّحيل من مكّة. أما طبيعة الطبقات الجيولوجية - واعذروني على تعبيري - فقد تكوّنت من صخور متوضّعة على طبقات منتظمة فوق بعضها البعض ذكرتني في الحال بالعناصر المتعدّدة التي قد تجدها في طبق من اليخنة الاسكتلندية. لقد تشكّلت منها التلال الموجودة في مكّة، ولا أعتقد أن هناك عناصر وتراكيب معدنية أو پلوتونية (بركانيّة) جوفية أو متحوّلة أو ثائرة معروفة محتملة، لن تجدها في أي عينة مجلوبة من تلال مكّة. ويا لسعادة أي عالم جيولوجي بالغوص في محتوياتها وكشف كنهها. وفي شريحة كبيرة من تلك الأرض الحانية، سيجد مزيجاً مفتتاً متكسراً من العظام الناتئة، تكشف عن لبّ ذلك العالم ونخاعه، أو ربما يمكن أن نطلق عليها اسم الهيكل العظمي للجبال، وسيجد حوله أينما اتجه أكواماً وأكواماً من النتوءات الصّخرية العارية تتساقط وتتفتت إلى قطع صغيرة أمام أعين الناظر، وتتكدس هذه الكتل في أشكال رائعة غريبة. أما جوانبها فقد اكتست بشرائح من هذه الكتل التي كانت تتباعد مفسحة مكاناً لأنقاض وكتل جديدة تسهم في رفع مستوى الأرض المنبسطة، زاحفة ببطء وثبات نحو الأعلى كأمواج المَدّ العالية.

ومن بين كل بلاد العالم التي زرتُها فإنني لم أصادف أيّة ظروف أكثر ملائمة لتفتت وتكسّر الصّخر، وذلك بسبب تتالي هجمات الحرارة والبرودة العالية المفاجئة في ذلك المكان من جزيرة العرب. كما أنني لم أرَ أبداً (حتى في حالات الزلازل) الطبيعة في أشد حالات نشاطها كما رأيتُها في ذلك المكان، وهي تسحق تلك الكتل الصّخرية الجبارة إلى قطع صغيرة. لقد أمضيتُ ليلة على تلك الصّخور، ولا بدّ لي من أن أذكر هنا، أنني سأستغرب كثيراً إذا علمت أن يعقوب نفسه لم تراوده الكوابيس لو كان في موقفي ذاك. لقد جلستُ متكئاً على إحدى تلك الصّخور في ليلة شديدة البرودة فكنت أسمعها بأذني تتشقق وتنفلق حتى أنني شعرت بالغبار المتطاير منها يتساقط على وجهي.

وفي إحدى المرات، وأنا جالس على تلّة ترتفع ما يقارب مئة وخمسين قدماً وربما تبعد ميلاً واحداً عن مكّة ويمرّ من منتصف قاعدتها طريق يسمى الدّرب السّلطاني، إذ لاحظتُ أن هناك على السّهل أدناها تركيبة صخرية جعلتني أقف مشدوها وناظراً بفضول شديد. لقد كانت هناك على جانب الطريق المواجه للتلة، اعتباراً من النقطة التي يلامس فيها الطريق التلة وصولاً إلى النقطة التي يغادرها فيها، كومةٌ حجرية لمسافة تمتدّ لما يقارب 400 ياردة، وقد كانت مرصوفة بعناية شديدة التناسق كما لو كانت رصيفاً لطريق إنكليزية سريعة، ولكنها بأحجام هائلة متناسبة بارتفاع يقارب 15 قدماً و50 قدماً عرضاً. وبينها وبين التلة رأيت طريقاً منخفضة شقتها أقدام الجمال فأصبحت ناعمة وكانت تتسع بالكاد لجملين محمّلين يمران بعضهما جانب الآخر.

وسرعان ما تخيّلت الطريقة التي تكوّنت بها تلك الكومة الحجرية. فلقد كان البدو أثناء مرورهم وهم يقودون جمالهم يلقون عن ذلك الممرّ بأحجار ذات حجم محدّد كانت تقف معترضة طريقهم، إذ كانت على الأغلب تتسبّب في جرح وإيذاء أقدام الجمال في حال أنها داست عليها بشكل غير متوقع، وبهذه الطريقة تشكّلت هذه الكومة العملاقة، ولأثبت صحّة توقعي فلقد تجشّمت عناء دفع بعض الأحجار نحو الطريق، وعندما وصل البدوي الأول منحني صحّة إثبات نظريتي عندما قام

بجمـع كل الأحجار المتسـاقطة التي كانـت أكبر من حجم البندقة ثـم رماها جانباً. أما بالنسبة للطريق، إذا جازت تسميته بذلك، فأظن أنه قد شُقّ في عهد الوجود التركي في الحجاز، وبالتالي فمن الممكن أن التلة وكل الأشياء المحيطة بها قد طُمرت بما يعادل عُشر كتلتها الكلية على مر مئات السّنين.

مـن بين العديد مـن الأعمال الرّائعة التي تقوم بها الطبيعـة على جميع الأصعدة في هذه البلاد، شدّ انتباهي مرأى العاصفة الرّملية المتشكلة من ذرّات الغبار والرّمال التي تغيّر وجه الأفق لعدة سـاعات، من خلال عملية سـحق وسحن تلك الصّخور والرّمال التي يملأ عجاجها الجو بكثافة شديدة عند هبوب أدنى نسمة هواء إلى أن يصبح الجو مشـحوناً بضباب أصفر اللون. عندها تتجمّع الكتل الحجرية الأكثر صلابة في الوديان وتصبح ذات سطح مدوّر بسبب تأثير حتّ المياه التي تفعل فعلها بها.

لقـد رفعـت عاصفة مطرية وادي مكّة لمسـافة سـتة إنشـات (وسـأقدّم لكـم وصفاً مفصـلاً عنهـا في حينه). كما أنني شـاهدت رابية من الرّمل ترتفـع بحوالي مئة قدم في الصّحراء المكشـوفة ولم أجد لوجودها تفسـيراً معقولاً، إلا من خلال نظرية متينة هي أن نويّات مركزية قد تجمعت فوق بقعة خصبة من الأجساد الميتة.

أعتقد أنني تحدّثتُ كثيراً عن تفسير المعدّل غير الاعتيادي الذي جرت عليه الأمور مـن حيث التغيّرات الجيولوجية التي طرأت على طبيعة الطبقات السّـطحية في البلاد، وربمـا كان ذلـك لتحضيركم للموافقـة على أن جزيرة العـرب المباركة، لم تكن بتلك البلاد الرّائعة على الإطلاق. فإذا عدنا على سبيل المثال لخمسة آلاف سنة في الماضي، وبعد مرورها بالمراحل الأولى من التغيّرات الطبيعية التي يقول علماء الجيولوجيا إنها مراحل تشـكل ونشـوء التربة الناعمة من الصّخور التي انحدرت نحو الطبقات الأدنى المتميـزة بوجود كثيـف جداً للمياه، وربمـا كان ذلك غير متوافق مـع المبادئ العلمية السّارية في جزيرة العرب، فهل كانت البلاد ذات طبيعة غنية بالوديان الخصبة؟ يمكننا أن نحكـم على ذلك مـن خلال مدى الإنتاجية والوفرة التي تميز أي مكان لا تكون فيه المياه عميقة جداً تحت الرّمال والأحجار حتى في يومنا هذا.

لا يمكنني أن أحدّثكم عن مدى إيماني العميق بأن الحجاز منطقة شديدة الغنى بالمعادن، ومع عدم معرفتي بعلم المعادن، فإن رأيي بالتالي لن يساوي الكثير. إلا أنني بطبيعة الحال أعلم أن البدو ينقّبون ويجلبون الذهب وأن هناك سوقاً ومبيعات كبيرة للأحجار النفيسة في مكّة. علاوة على ذلك فإن جزيرة العرب هي أرض ضمّت شعوباً مغرقة في القدم، ناهيك عن أنها كانت أرضاً للكتب المقدسة القديمة، فلماذا إذن كل هذا الشك بكتب العهود المعاصرة؟ من ناحيتي فإنني أعتقد أن الحدائق والبحيرات في جزيرة العرب قد طُمرت خلال المسيرة الطبيعية عبر الحقب التاريخية تحت أنقاض من جبالها. كما أن التفسير الأكثر شيوعاً الذي يأخذ في الحسبان الفروق بين جزيرة العرب المعاصرة وبين جزيرة العرب أيام سليمان، والتي أكثَرَ مِن وصفها القدماء معتمدين على افتراضات أنهم كانوا يخدعهم عمداً المصريون والفينيقيون الذين كانوا يتاجرون بثروات الهند، هذا التفسير يبدو واهياً وشديد الضعف بالنسبة إلي.

* * *

إن الدّولار الذي يطلقون عليه اسم «ريال»، والذي كنت أقايضه بأسعار مختلفة، مع الجنية الإنكليزي (الذي يسمونه الجيني) والليرة التركية، هي العملة الرّسمية في البلاد: مع أن أيّاً من العملات المعدنية الذهبية والفضية المعروفة هناك كانت تُصرف بكل سرور، فإن الدّولار الأكثر شيوعاً وتفضيلاً كان «دولار ماريا تيريزا النّمساوي» وقد لاحظت أن تاريخه يعود إلى العام 1790 تقريباً وبدت معظم القطع المتوافرة منه جديدة، حتى أنني شككتُ بأنها قد صُكّت في ذلك التاريخ وأنها ربما تُصكّ حالياً في مكان ما. أما العملة النحاسية الوحيدة فقد كانت الليرة التركية وأجزاءها. وعندما كان الحجّاج يجلبون معهم العملات الذهبية والفضية كانوا يجدون صعوبة كبيرة في فكها إلى أجزاء أصغر، وبالتالي كان يحق لأصحاب المحلات أن يرفضوا البيع في حال قُدّمت لهم عملات تساوي ثلاثة أمثال المادة التي يتم شراؤها، وهكذا كان صرافو الأموال يتقاضون معدلاً ثابتاً بنصف ليرة مقابل الدولار.

أما المتاجر فكانت مماثلة للطراز السّائد في الشرق، مع واجهة واطئة تقابل الشارع،

تُعـرض فيها أصنـاف من العينات عن الأغراض، وكان التاجـر يجلس خلفها في غرفة تضم أكواماً من البضائع. بينما لم يتبع السّـوق النهج ذاته الذي كانت عليه بقيّة البلدان في الشرق، في أن جميع المحلات والمتاجر التي تزاول نفس النشاط كانت تجتمع في مكان واحد، فغالباً ما كنت تشاهد التاجر بالبضائع الأوروبية، وتاجر الأثاث، والخبّاز، وصانع الأسـلحة أو أي شـي آخـر متواجدين في نفـس المكان، أما الجـزارون فكانوا الوحيدين الذين امتلكوا سوقاً خاصة بهم.

ومع كل الأمور الأخرى فلقد كانت النزاهة والأمانة موجودة بأعلى درجاتها وأرقى صورهـا في مكّة، بينما لم تكن السّـرقات شـائعة كمـا يُتوقّع لها أن تكـون. ولا يمكن مشاهدة أيّة نماذج بغاء بين النساء على الملأ، وفضلاً عن حرمتها من الناحية الشرعية، فإن هذه الأمور لم تكن مقبولة فعلياً بين الحجّاج. بينما لم يكن الحصول على الخمور والمشـروبات المسكرة أمراً سهلاً بالنسـبة للغرباء الجاهلين بالقانون، مع أنني التقيتُ مرة بسمسـار مغامر مصري كان يحوّل ماء الكولونيا إلى أشـياء جيدة ويبيعها باعتبارها دواء للصّـداع أو أمـراض القلـب والتي يجـب تناولها عـن طريق الشـرب، إلى أن تم افتضـاح أمره فكُسـرت زجاجاته ورُميت مـواده الأولية في الشـارع بأيدي جمهرة من النـاس، بينمـا فرّ مالكهـا بحياته بأعجوبة. أما المياه فكانت سـيئة بالفعـل مع توافرها، ويمكن الحصول عليها في مقابل مبلغ معين.

في الحقيقة كانت الظروف الصّحية في ذلك المكان رائعة حقاً، بالنظر إلى أن وادي مكّـة كان عبـارة عن مجرور كبير فعليـاً، فلا توجد أي فتحـات لتصريف المجاري في الـوادي على الإطلاق وبالتالي فلم يكن هناك أي سـبيل آخـر إلا الآبار، وأنني لأعتقد جازماً أن مياه بئر زمزم تدين بالكثير من فضائلها إلى وجود النشادر فيها، لا سيما وأنها كانت في مركز المدينة وهي البقعة الموجودة في أدنى مستوى من الوادي.

وبصرف النظر عن القذارة المنتشـرة والظروف غير الصّحية والأوسـاخ التي تغلّف المـكان بصـورة تفوق الوصف، فإنني أعتقد أنه لم تكن هنـاك أوبئة خطيرة قد أصابت مكّة. وربما كان ذلك يعود إلى الجفاف والظروف الجوية المشمسة التي كانت تتسبّب

في جفاف الجثث بشكل عام والحيلولة دون تفسخها. وحقيقة أن أغلبية السّكان كانوا من الرّجال المتمتعين بالصّحة الجيدة تسمح لهم بالقيام برحلات طويلة بشكل مستمرّ، وكانت حالات الضعف بينهم نادرة جداً. وربما كان للحالة النفسية عند الحجّاج تأثير فلم تكن لتسمح لهم بالمرض، ذلك لأن الإيمان يصنع الأعاجيب، وبالتالي فقد كان عدد المرضى في مكّة قليلاً جداً.

أما السّبب الرّئيسي الآخر وراء ذلك فهو أن المجاعات التي تنذر بحدوث الأوبئة، لم تكن لتصيب مكّة نظراً لعدم وجود عدد كبير من أبناء الفئات الدنيا الذين يعيشون في فقر مدقع. وبالرغم من آلاف المتسوّلين الذين كنت تشاهدهم، فإنهم كانوا متسوّلين في سوق خيرية كبيرة يتوافر فيها كل شيء وكانوا يحصلون على مؤونة وافرة من الثروة التي تهبط مع الحجّاج كل عام. وليس من المستغرب أنّ المسلمين يدينون بالفضل في نسبة الوفيات والأمراض المنخفضة بينهم إلى الموقع الوسطي والمركزية العجيبة للمكان أو «مكّة البلد الحرام».

ومن ناحية أخرى فقد كان المناخ يتميّز بزخّات ثقيلة من المطر من حين لآخر في أشهر الشتاء ونادراً ما كانت تستمرّ لأكثر من بضع ساعات. بينما كانت درجات الحرارة تتغيّر وتتفاوت إلى حدّ بعيد، فقد قضيتُ ليلة أرتجف برداً وأنا أسمع اصطكاك أسناني وأرى زُرقة أصابعي التي كادت تفقد الحسّ، ولكني في عصر نفس ذلك اليوم كنت أتقلّب تحت حرارة النهار الجافة حتى تشققت شفتاي. كثيراً ما كنت أتمنى لو كان عندي مقياس حرارة الذي كان سيُظهر بالتأكيد تلك التقلّبات شديدة الغرابة. وقد أصبحت لدي قناعة تامة أن درجة الحرارة في الظل كانت تتراوح بين 40 إلى 100 درجة فهرنهايت خلال أربع وعشرين ساعة.

يدلّ تاريخ مكّة أنها قد نالت نصيبها من الفيضانات والحرائق والحروب، وكانت رحلة الحجّ ومعظم الطقوس المرتبطة بها عادات موغلة في القدم بين العرب في أيام محمّد الذي كان يبيّن أنها تحدث لأسباب سماوية وهكذا فقد أدرجت ضمن العقيدة.

الفصل السّادس

الحج

كان الجمعة 14 ديسمبر من العام 1877 هو يوم الوقوف على عرفات، حيث يُدعى الحجّ الذي تصادف وقفته يوم جمعة «الحجّ الأكبر» وبالتالي فقد كان يحضره أعداد كبيرة جداً أكثر بكثير من السّنوات العادية. وفي يوم 13 من ديسمبر اجتمعت كل الأمم في صعيد واحد حتى كاد وادي مكّة الصّغير ينوء بهم، وامتلأ تماماً فلم يبقَ فيه مكان لقادم جديد. هذا كل ما أستطيع أن أصف به ذلك المشهد. وخلال أربع وعشرين ساعة غادر ذلك الجيش المكون من مئتي ألف من الأشخاص الأشدّاء يحمل كل واحد منهم أفكاره ومهمّته كممثل لبلده، حتى لم يتبقَ منهم رجل واحد ومضوا سائرين ما يقارب 11 ميلاً نحو الشرق، ليخيّموا في سهل عرفات بالقرب من الجبل.

إن هذه المسيرة لم تنقصها الفوضى فقد كان كل واحد منهم يشقّ طريقه بشغب (إذ كانت رحلة مجازية تحاكي رحلة هجرة محمّد من مكّة) وبالتالي فإن أقلّ اسم يطلق عليها أنها كانت حالة من الارتباك والفوضى العارمة. وقد اتسمت تحضيراتنا كالعادة بعشوائيتها وعفويتها، وسرعان ما أصبحت الجمال جاهزة على الأبواب بعد صلاة الفجر، إلا أن السّاعة قد قاربت الحادية عشرة قبل أن تصبح الخيام والأمتعة والتموينات مثبّتة بإحكام في مكانها على ظهورها، وهكذا فلقد نسينا بعضاً من أهم الأغراض مثل زجاجات المياه، زيّ إحرام جديد للحجّاج.. الخ، وهكذا فكان ينبغي علينا شراؤها في آخر لحظة. كان زيّ الإحرام الذي ارتديناه عند دخولنا مكّة للمرة

الأولى مجرّد أثواب قطنية بسيطة، بينما اكتشفنا أنه كانت هناك أزياء إحرام عصرية، تبيّن لنا لاحقاً أنها لم تكن سوى قطعتين من مناشف الحمام خشنة الملمس.

امتطينا الجمال عند الباب واستغرقنا قطع الميل الأول ما يقارب السّاعتين أمضيناها في الشوارع بين جموع البشر، حتى وصلنا لمرحلة كادت الهوادج فيها تتشابك وتتمزّق. كنت تسمع من شاغليها من النساء الصّراخ والدّعاء، أما الرّجال فكانوا يسبّون ويلعنون ثم يعودون للدُّعاء، بصرف النظر عن أهمية حفظ اللسان في مثل هذه المواقف والمناسبات التي تستلزم السّكينة. وكنت تسمع الصّيحة التي علت فوق كل الأصوات، تردّدها ألسنة الجميع بتواتر كبير ودائم «لبّيك»، والتي قمت بتردادها بعد أن أضفت لها نغمة خاصة تميّزتُ بها عن الآخرين.

وعند وصولنا الطرقات الضيقة انحشرت الهوادج بعضها مع بعض ولم نستطع أن نحقق أيّ تقدّم لعدة دقائق، ولكن مع اندفاع الجمع في اتجاه واحد وجدنا أننا قد خرجنا أخيراً من المدينة إلى طرقات واسعة مفتوحة وتمكّنا من السّير في خط مستمر مستقيم من الرّجال والحيوانات التي انسابت خارج مكّة نحو مِنى، وهو وادٍ يبعد خمسة أميال شرق مكّة. بلغناه في الثالثة عصراً، وما إن وصلنا حتى جُهزّت لنا غرفتان في الطابق الأرضي في منزل على مقربة من منتصف الوادي مواجه الطريق الرّئيسي الذي يفضي إلى عرفات، وهنا قضينا ليلتنا. شعرت بالطريق المتجه إلى مِنى أنه صاعد باطّراد، ومررنا بجسرين حجريين ورأينا بعض الصّدوع بين التلال، وربما كان ذلك أفضل الأمور التي شاهدتُها على طريق شقها الإنسان في كل هذه البلاد، كما مررنا ببئرين كبيرين مملوءين تماماً بالمياه.

تمتدّ قرية مِنى في أرض هي أقرب للسّهل منها للوادي بمساحة ثلاثمئة ياردة عرضاً ونصف ميل طولاً، تحيطها حوافّ صخرية حادة ترتفع حوالي ثلاثمئة قدم، وقد بُنيت عدّة منازل واطئة على جانبي الطريق المؤدية إلى عرفات. انتشرت في صفوف على طول الطريق أكشاك ملأى بالتموينات فيها الشاي والتبغ. كان المكان في هذا الوقت أشبه بمعرض، ومن نافذة غرفتنا وقفتُ أنظر إلى الحشود تمرّ في زيّ أبيض موحّد، إذ

أن النساء لم تكن ترتدي زي الإحرام لكنهن يرتدين البياض.

لـم يمـرّ وقت طويل حتى رأيتُ جلبةً عظيمة في منتصف الطريق تدلّ على أن شـيئاً ما قد حصل، فتوجّهتُ بسـؤالي إلى أحد أصحاب الأكشـاك التـي تبيع التمور بجانب نافذتـي وأخبرني بأن الشـريف قادم، وخـلال دقيقتين أو ثلاث ظهـرت طليعة موكبه. وحسـبما أذكر فلقد مرّ الموكب أمام نافذتي بالترتيب التالي: أولاً جاءت طليعة حرس الشـريف وقدّرتُ عدد الجمال التي مرّت بما يقارب المئة. كانت دون قتب وكل منها يمتطيـه اثنان من البدو المسـلحين، بينما سـار في المقدمة رجلٌ يحمـل رمحاً ووراءه رجـل يحمل بندقيـة ضخمة ذات فتيل. لقـد كانت بحق المجموعـة المنتقاة من البدو بملابسهم الأكثر غرابة وطرافة التي سنحت لي الفرصة لتكتحل عيناي بمرآها.

أما رواحلهم فقد كانت تسـير متلاصقة وكأنها قطيعٌ من الغنم ملأ الشـارع بأكمله، وكانـوا يدفعـون النـاس أمامهـم نحـو المحـلات والأكشـاك، وكان الأولاد الحفـاة يتراكضون بجنون هنا وهناك بثيابهم الرّثة، وبدا أنهم يتدافعون باهتياج شـديد حتى أن اسـتعجالهم والفوضى التي أثاروها قد مكّنتهم من شـقّ طريقهـم قليلاً، فأعاقوا حركة الموكب. وأقول هنا إنني لم أشـاهد في حياتي جنوداً أكثر وحشـية وقسـوة، في مشهد يمثـل كل الشـدّة والعنف، مع أدواتهـم الحربية بألوانها الكامـدة والرّماح الطويلة التي تصـل حتى 25 قدماً يعلوهـا مجموعة من ريش النعام التـي كان البعض يحملونها. ثم شـاهدتُ خلف ذلك الجمع المختلط فرسـاناً يركبون جمـالاً يعزفون على آلات نفخ موسـيقية تشـبه المزمار بتوقيت دقيق ولكنهم كانوا يصدرون نغمات شـديدة الارتفاع تسـبّب ضجـة هائلة، فكانت تلك الموسـيقى ملائمة تماماً لذلك المـكان والزمان. لم تكن سـيئة على أي حـال، وربما كانت فرقة مزامير القـرب الإيرلندية التي تعزف على بضع آلات فقط سـتصدر صوتاً مشـابهاً للصـوت الذي كان يخرج عن فرقة الشـريف الموسيقية تلك.

جاء بعدهم بعير المقدّمة، وقد ألبسـوه حلة قرمزية اللون موشّاة بالذهب قيل لي إنه يحمل شـيئاً خاصاً بالكعبة، وكان كل ما شـاهدته منه هيكل يشـبه البيانو بارتفاع أربعة

أقـدام مغطى بقمـاش أحمر وقد تدلّت أجراس عديدة من مقدّمتـه تصدر أصواتاً عالية مع كل خطوة يخطوها ذلك البعير. ثم تلاه حشدٌ مختلط من المشاة المسلحين، فكانوا يحملـون البنادق التـي تعبّأ من مؤخرتها والمسدّسـات ذات الطواحين وبنادق صغيرة ورماحاً وسـيوفاً وأي شـيء من شـأنه أن يقتل، من الخناجر حتـى الفؤوس. ثم تلاهم اثنا عشـر حصان مرافقة مزخرفة بحلقـات الذهب والفضة، يتبع بعضها البعض تتبختر بانتظام بلون كستنائي جميل وبدا أنها بحال جيدة. لقد كانت حيوانات جميلة الصّورة مكتنـزة بالعضـلات كل واحـد منها يفوق الآخر جمالاً ورشـاقة، ولن يمـل الناظر من متابعتهـا أو يقـدر أن يحيد ببصره عنها، حتى لو أمضى سـحابة نهاره في متابعتها تسـير على ذلك النحو.

وعقب ذلك جاء الشـريف نفسـه، راكباً على حصان رمادي بدا أنه أكثر ارتفاعاً من تلـك الأخرى التي كانت تسـير فـي المقدّمة، مع عنـق وأطراف شـديدة الدّقة، توحي للناظر برشـاقته وخفة وزنه وسرعته، فكان يخبّ بكل هدوء وبكثير من اللامبالاة دون أن يلقي بالاً إلى الحشـود من حوله أو يكلّف نفسـه عناء إدارة رأسـه الجميل نحوهم. يا له من منظر رائع أن أشـاهد تلك الحيوانات تسـير بسلاسـة وتتواثب برشـاقة، والتي كان حصان الشـريف بينها بمثابة واسـطة العقد، يسـير بكل جدّ وكأنه لا يشعر بالحمل علـى ظهـره وبدا كأنـه لا يحمل أي همّ لأي مشـكلة أخرى. كان الشـريف يرتدي زي شـيخ بدوي بعباءة زرقاء فاتحة مشـغولة بالذهب عند الكتفين والياقة، مثبتة من الأمام بسلسـلة سـميكة وأهداب من الذهب، وكان يضع على رأسـه شـماغاً بدوياً من حرير خالص يثبته عقال مصنوع من وبر الجمال حول قمة رأسه.

بدا الشـريف رجلاً نحيلاً متماسـك البنية تظهر عليه ملامح القـوة، وبطول أقل من المتوسّـط، وقد تميّز بتقاطيع داكنة جداً حتى بالنسـبة للبدو. لقد بدا كأنه أسـود اللون، أما رأسه فكان صغيراً مشابهاً لشكل الرّصاصة بتركيبة عجيبة من التقاطيع، بغض النظر عن تعابير الذكاء والدّهاء الشديدين التي كانت تشعّ منه. وقد كان شارباه ولحيته شعثاء قصيـرة، وأظن أنه كان دون الأربعين من عمره، مع صعوبة تقدير عمره بدقة فقد يكون

بيـن الرّابعة والعشـرين والأربعيـن أو ربما أكبر فيما إذا كان يسـتخدم الصّباغ، كما هي العادة الشائعة بين أهل مكّة.

على بعد عشـرين ياردة تقريباً تبعه أولاد أخيه أو أولاده (فقد أخبروني بالأمرين كليهما دون تأكيد). جاء الأكبر أولاً وهو شـاب جميل الصّـورة بتقاطيع بلون الخيزران في الرّابعة عشـرة مـن عمـره تقريباً، وتـلاه الأصغـر وكان مـن الواضح أنه أخـو الشـاب الأول وكان عمره ثماني سـنوات يمتطيان كلاهما صهوتي جوادين بلون كسـتنائي ويلبسـان زياً مشابهاً لزيّ الشـريف. وبعدهم جاء عـدد هائل من الأتباع، حملة الصّولجـان والعلامات المميزة لمناصبهـم. كان بعضهـم راكبيـن أو راجليـن مع مرافقين مسـلحين يمشـون علـى الأقدام وبعضهـم يرتـدي ملابس الإحرام وبعضهم يرتـدي أثواباً من القطن. وعلـى البعد بحوالي خمسـين ياردة في الخلف كان هناك عدد من الضباط الأتراك الرّاكبين وقد ارتدوا أزياءهم العسـكرية مفسـحين الطريق أمام الپاشا، الذي كان الشـريف يأخذ الصّدارة قبله، وأظن أن ذلك كان حسـب الطبيعة الدينية للمناسـبة. وقد انتشـر على كلا جانبي الطريق صف طويل مـن المماليك (كان يطلق اسـم مملـوك على أي من الجنود الفرسـان الأتراك في الحجاز) مرتدين أزياءهم ومسلحين بالبنادق الطويلة وبنادق وينشستر Winchester وبنادق قصيرة، وقـد كان هنـاك رجل في المؤخرة يحثّهم على التقدّم فكان يمشـي بخفـة من الخارج نحو الأمام ويعيد ترتيبهم في نسق واحد إلى أن يجد نفسه في المؤخرة من جديد.

كان الصّـف يتألـف من خمسـين حصانـاً على كل مـن جانبي الطريق، بينهما سـار الپاشـا في عربة مكشوفة لامعة يجرها حصانا جر أوروپيان بلون كستنائي، وقد ارتدى الحوذي ومساعده زياً خاصاً أنيقاً. أما الپاشا، وهو رجل أنيق شائب الشعر، فقد ارتدى بزّة سـوداء بتفصيلة متميزة، فبدا في منتهى الأناقة وحُسـن الهندام. يا للفارق الشاسـع بينهم وبين محيطهم، وحدثتني نفسي أن هذه الأمور لا بد أنها تعود لعصر آخر أو حالة وجوديـة أخرى. لقـد أعادتني تلك العربـة والحصانان اللذان يجرانهـا بنقلة بعيدة في الزمـان والمكان عن الحالة التي كنت أعايشـها. أتبعت تلـك العربة بمدفعين ميدانيين نحاسـين تجرهما البغال وجماعة من المشـاة تحمل أسـلحتها المتأرجحة وقد برزت

حرابها منها، وقد ارتدى جميع الضباط زيّهم العسكري، أما الجنود فقد ارتدوا ثياب الإحرام. وهكذا انتهى الموكب الذي استمرّ مسافة ميل كامل، وتابعوا بكل حشودهم من الرّجال والحيوانات مع كتائب القوات التركية المتعاقبة في مسيرة استمرّت حتى السّاعة الثانية صباحاً. عندها استلقيتُ على بطانية في زاوية من الغرفة، بينما كان الأمير ومعه تسعة أو عشرة من خدمه الكبار مستغرقين في نوم عميق.

* * *

في الصّباح لم أتمكن من الاستيقاظ إلا على حركات عنيفة تلفّ البطانيات والسّجاجيد فنهضتُ على الفور، لأجد نور الشمس قد ملأ المكان وأنّ صلاة الفجر قد فاتت منذ زمن طويل. حدّثتني نفسي لو أن أصحابي عاشوا بسلام وتسامح بين بعضهم البعض ونسوا كل الأحقاد، ونفضوا عنهم غبار ذنوبهم الماضية في ذلك اليوم، لكنت تغاضيتُ عن كل شيء وتركته يمضي. ردّدتُ مرّات عديدة «أستغفر الله» من كل قلبي وقد غمر كياني أسف وندم عميقان، فقمت بالوضوء وأدّيت الصّلاة شاعراً بجو الصّفح والسكينة التي عمّت المكان من حولي، فما كان منا إلا أن انكب الواحد منا معانقاً الآخر، مستذكرين ومعترفين بكل تلك الإساءات الصّغيرة التي قمنا بها تجاه بعضنا، وانطلقت عبارات التسامح والغفران مشفوعة بدموع غزيرة.

في البداية اعتمدت على ذاكرتي لاستعادة تلك الأمور السّابقة، لكن صحبي ذكّروني بعدة مناسبات قمت فيها بالإساءة إليهم دون قصد أو خلاف ذلك. لقد تجلّى الصّدق والإخلاص في حديثهم وغسلوا كل أدران صدورهم فباتوا أنقياء بعضهم تجاه بعض. أما أنا فقد لاحظت أن هناك بعض الأغراض المفقودة من صرّتي ومنها سكين جيب وزوج من الجوارب، وقد ضربتُ عن ذلك صفحاً بكل اللياقة الممكنة بالطبع. في هذه الأوقات كان من المفترض بنا أن نعيش بسلام وتسامح مع عالم من المؤمنين الحقيقيين، وأن نصعد بقلوب صافية وضمائر مرتاحة إلى عرفات، ومع أن الحشود كانت ما تزال تتقدّم متدافعة طوال الليل، فلم يبدُ أن عددها قد قلّ أبداً.

أذكر أنني شعرتُ بكثير من الضيق في صباح ذلك اليوم الذي كان يُفترض أن أحوز

فيه على لقب حاج، وشـهدتُ مشـهداً لا يحظـى به إلا عدد قليل جـداً من الأوروبيين (ربما شخص واحد فقط في كل جيل). لكنني شعرت بنوع من الاكتئاب والإحباط إذ كان من المفترض بي أن أصل إلى تلك النقطة الشـائكة، ربما لأنني لم أتغلب بشـكل كامـل على تأثيـر الأفيون بعد. حاولتُ الخروج من تلـك الحالة في الانهماك بعمل ما والمسـاعدة فـي إنـزال الحمولة عن الجمـال، وعندما كنـتُ أتحرّك جيئـة وذهاباً أمام المنزل حاملاً أكواماً من الأغراض، تخيّلت مرتين أن امرأة تحاول أن تلفت انتباهي من سـاحة المنزل وفي المرة التالية التي مررت جانبها سـمعتها تتلفظ باسمي، إنها الليدي ڤينوس Venus قد هبطت إلي مرة واحدة.

لقد كنت أمرّ في تلك الفترة بأوقات عصيبة وبالتالي فقد مسحت من ذاكرتي تماماً، ويمكنكم التأكد أن عبارتي «السلام عليكم» و«الحمد لله» قد خرجتا في تلك اللحظة مـن صميم أعماق قلبـي، عندما ظهرت أمامي من خلال صدفـة عارضة. أخبرتني أنها تقيـم في نفس المنزل الذي أقيم فيه مع صديقـة لها وكانت تلك تدفع نفقات مقعد لها علـى الجمـل أثناء الحج، كما أخبرتني أن الولد عبد الله قد ذهب مرتين إلى منزلي في مكّة ليسأل عني، لكنهم أخبروه أنني ذهبتُ إلى جدّة. لـم تسنح لنا فرصة كبيرة للحديث ولكنـي ألححتُ عليها لأعـرف برنامجها في الأيام الثلاثة القادمـة، واتفقنا على اللقاء في الحَرَم في نهاية ذلك الأسـبوع. وسـرعان ما طرقت أسماعي ملاحظات وتعليقات قاسية من الرّجال الواقفين بقربنا فكان يتحتّم علينا توديع بعضنا بسرعة.

بـدأ اجتماعنـا فـي حوالي السّـاعة الثامنة صباحـاً، في هودج مُسـدل الغطـاء تماماً بحيث لا يمكنك أن ترى منه إلا القليل خارجاً وربما اسـتطعت مشـاهدة رأس الجمل الذي يحملك ورأس الجمل الذي خلفه. وهكذا فقد شـعرتُ بانتعاش كبير بعد لقائي بالليدي ڤينوس، وفضلت أن أمشي بجانب الجمال وأختلط بالحشود ومنحت مقعدي علـى الجمل لأحد رفقائي. وعندما مررنا بوديان بين تلال صخرية في أرض مكشـوفة نسـبياً، سـمح ذلك للجماعة بالتفرّق على طرقات أكثر اتساعاً، وهكذا لـم يعد الضغط كما كان عليه في اليوم السّابق.

بعـد سـاعة من مغادرتنـا مِنى، رأيـتُ أحـد الأحصنة النافقـة على جانـب الطريق. كنـت أعرف ذلك الحصان فقد كان أحد خيـول العربات الممتازة الذي رأيته في اليوم السّـابق يجرّ عربة الپاشـا، كان عنقه محزوزاً، وهي العـادة المتّبعة عندما يصبح مرض الحيوان غير قابل للشفاء. ومع أنه بدا وكأنه مات قبل ثلاث أو أربع ساعات فإن جلده أصبح قاسـياً وجافاً. ما أسـرع ما تفعل رمال الصّحراء الجافة والهواء الحارّ فعلهما في امتصـاص الرّطوبة. في الحقيقـة فإن الطريق من مكّة إلى عرفـات لا يتجاوز بأي حال العشـرة أو الأحد عشـر ميلاً، ومع ذلك فقد بدأت الحيوانـات بالتهاوي على الطريق. وقـد عددتُ بين مِنى وعرفات ما يقارب أربعة عشـر جملاً نافقـاً، وانتبهتُ للعديد من القبـور الحديثة التي حُفرت في الليلة السّـابقة، وربمـا كان أصحابها من الرّجال الذين قطعوا آلاف الأميال، وقضوا عند عتبة هدفهم قبل أن يصلوا إليه.

كان الشـيخ المسـؤول عن الجمال الذي يسـير في طليعة قافلتنا، والذي اسـتأجرنا منـه الجمـال التي يملكهـا هو أو بعض أقاربـه، يتحدّث القليل من اللغـة الهندية، وهو إنجازٌ غير مسـبوق بالنسبة لبدوي. لقد كان شخصاً فريداً من نوعه إلى حدّ بعيد، وكان أبعـد ما يكون عن تلـك النماذج المجرمة الرّعناء. كان أفضل مـن ذلك، إذ أن البدوي النّموذجـي يتميّز ببنيتـه النّحيلة الضئيلة وقصـر قامته الظاهـر، ولا يمكنك أن ترى أيّ مثيـل لسـاقيه الناحلتين في أي مكان آخـر، بينما كان ذلك الرّجل طويـل القامة مفتول العضلات وبلحية مكتملة، لكن سـيماه وتصرّفاته كانت لبدوي دون أدنى شك، وكان نشـيطاً يذكّـرك برجال البحر. أعطى أوامره إلى الذيـن اعتبرهم تحت أمرته بكل ثقة لا يحملها إلا الضباط الأكفاء، وكان يتنقل متقافزاً هنا وهناك بكثير من النشاط كما لو كان كبير الملاحين على مركب بحري أمريكي.

لقد تميّز بلمسة عفوية تغلف حركاته وتصرفاته وكذلك كان أصحابه، فما كان مني إلا أن اخترت له اسـماً معمودياً هو «شـيخ البؤسِن»[1] Shaykh the Bo'sen أو «شيخ

(1) العبارة الإنكليزية اختصار لكلمة: boatswain أيّ فتى المركب، البحّار. وهكذا تُلفظ بلكنة البحّارة العاميّة.

المركـب». ولم أكن لأسـتغرب أن أراه وهو يرتدي بنطالاً، وهـي القطعة التي يعتبرها البدو غير ضرورية أو أنها حلّة جديرة بالنسـاء. مشـينا سـوياً لمسـافة ليست بالقصيرة، فـكان ينـدب ابنه الذي كان في التاسـعة من عمره والذي وقع عـن جمله ومات. وبعد أن تبادلنـا القليـل من الأسـئلة والمجاملات الشـرقية، طلب منـي أن أعطيه واحدة من السّـجائر التي كنت أدخنها، ومن ثم سـألني عن الهند التي سـمع أن سكانها لم يكونوا جميعاً من المسلمين.

لاحظـت بين الأسـلحة التي كان يحملها في حزامه سـكيناً مسـتقيمة طويلة، الأمر الذي فاجأني إذ أنني شـاهدتها من قبل، فأشـرت له إليها وسـألته مستفسراً أهي جيدة؟ فمـا كان منـه إلا أن سـحبها فوراً وحملها بـكل إعجاب هاتفاً: «إنها روجـرز». آه، لقد كان ذلك أسـوأ من عـدم معرفتي بالليدي ڤينـوس. إنها حقاً سـكين روجرز Roger's المنقوشـة بلا أدنى ريب، لامعـة وبراقة بكل مهابة، تدفع إلى الذهن طعم شـريحة من اللحـم. قلت: «إنها روجرز». ردّ «أين روجرز؟» متعجباً من جهلي، ألا أعرف سـكين روجرز عندما أرى واحدة منها؟ وأشرت له إلى الحروف والعلامة المنقوشة عليها في مكان خفي منها وشـرحت له أن كل السّـكاكين التي تحمل تلك العلامة كانت تسـمّى روجـرز، فمـا كان منه إلا أن حرّك رأس النصل الفولاذي بأصبعيه بحركة سـريعة وبدأ يقوم بحركات تشـابه قطع الرّقبة وهو يردّد: «بسـم الله، الله أكبـر» «أيها الكفّار..» فلم يعد لديّ أدنى اهتمام بمتابعة الموضوع.

وكمـا علمت لاحقاً فإن سـكاكين روجرز في الحجاز لم تكـن كلها من ذلك النوع بالضـرورة، بل كانت أيّ سـكين تحمل حروفاً إنكليزية، حتى لـو كانت صناعة محلية من المعدن الجيّد فإنها ستحمل ذلك الاسم، إذ أن تلك الكلمة استخدمت على نطاق واسـع كرمـز للفـولاذ من النوعيـة الجيدة. وأعتقد أنه ليس من السّـهل أن تجـد أيّاً من المكيين يستطيع أن يفسّر كيف حُرّفت الكلمة أو على ماذا كانت تُطلق أصلاً.

كان هنـاك العديد من الكلمات المسـتخدمة الأخرى تحرف بنفس الطريقة، فكلمة «إنكليـزي» تُطلـق على كافة أنواع الأغراض المشـهورة أو المتميّـزة بجودتها دون أي

اهتمام بمكان صنعها، وحتى التجّار أنفسهم، ربما على سبيل الملاطفة أو جهلاً منهم (ومن الصّعب أن تميّز بين الحالتين)، كانوا يطلقونها على كل المصنوعات الأوروپية أو المصرية أو التركية، متجاهلين الصّناعات والماركات المتميزة في مانشستر أو لندن. وما أسرع ما يذكر لك البدوي كلمة فرنسي أو إنكليزي دون أن يكون لديه أدنى فكرة عن معنى أو أهمية تلك الكلمة.

وصلنا حوالي السّاعة الحادية عشرة صباحاً إلى سهل عرفات، وهي منطقة رملية واسعة ومكشوفة تبدو شيئاً ما أدنى ممّا حولها ومساحتها تقارب أربعة أو خمسة أميال مربعة. في الجهة الشمالية الشرقية من السّهل انتصب «جبل عرفات»، وهو تلة صغيرة ترتفع حوالي مئتي قدم وقد تشكّلت من كتل كبيرة من الغرانيت الرّمادي، تماماً عند سفح الجبل الجليل الشهير «جبل الرّحمة».

فقمنا بنصب خيامنا (واحدة للأمير والرجال، والأخرى للأميرة والنساء) على بعد حوالي ثلث ميل جنوب التلة. وما إن انتهينا حتى قمت بتحديد علامات واضحة لتمييز الخيمة، وانطلقت وحيداً إلى قمة جبل عرفات. لقد كان المنظر من هنا .....، آه، أعتقد أنه لن يمحى من ذاكرتي حتى وأنا على فراش الموت. لقد كان مشهد السّهل المنخفض يذكر بالمدرّج، حتى أنك تخال نفسك معتلياً خشبة مسرح عظيم فترى أمامك جمهوراً عريضاً لمسافة أميال على مد نظرك، وقد اكتمل المشهد بخلفية داكنة كاسفة رسمها جبل الرّحمة لتثير في النفس مهابة عظيمة. يا له من مكان وزمان يصلح لخطبة. لقد خرجنا جميعاً إلى العراء لنسمع الخطبة في ذلك اليوم، وقرّرتُ أن أستمع إليها، فجلستُ على التلة بانتظار الظهر إذ أخبرتني الليدي ڤينوس أنها تبدأ حينذاك.

حانت مني نظرة إلى الحشود الهائلة، فبدت بحراً رمادياً متماوجاً من رؤوس سوداء وأثواب بيضاء يمتد من جوانب التلة؛ أناسٌ كثيرون لا حصر لهم على مسافة ميل ونصف. فكّرت لحظتها في تلك البلدان التي قدموا منها وفيما جلبهم إلى هنا، ولم يسعني أن أمنع شعوراً بالخشية والرّهبة اجتاحني، وثار في نفسي سؤال واحد: هل يمكن أن يكون كل ذلك بلا فائدة، وأن كل ذلك الإيمان هو عبث؟ فإذا كان كذلك،

فمن الأسهل أن يفقد الإنسان إيمانه في كل شيء مماثل.

عند الظهيرة تركت موقعي عند قمّة التلة، ومشيت بجهد في محاولة لمعرفة مكان وقوف الخطيب، وتطاولتُ بقدر ما استطعت أن أرى. لقد بدا أنه يتوجّب على الحجّاج الصّعود إلى التلّة لصلاة أو اثنتين، وعندما بقيت ربع ساعة أو نحوها عدت إلى السّهل، لكن الأذان لم يُرفع لصلاة الظهر فقد كان الحجّاج يصلون جماعات بجانب خيامهم ويحسبون الوقت بأنفسهم. قلت لنفسي: لا صلاة ظهر اليوم، وأمضيتُ الوقت في معاينة جبل عرفات. كان على قمّته مجموعة من الأعمدة تحمل نُصباً حجرياً بارتفاع خمسة عشرة متراً، وبعض الجدران الحجرية الواطئة تفصل سطوح الصّخر الحجرية بعضها عن بعض، في داخل وخارج تلك الحجيرات وعلى كامل التلة اجتمع حشد هائل من البشر، وفي الحقيقة فقد غطوا التلة بكاملها، حتى أصبح التنقل من مكان لآخر أمراً يكاد يكون مستحيلاً، حتى عند محاولة تسلق الجدران والقفز من صخرة إلى صخرة.

وعلى جوانب التلة كان هناك عدد من المنصات الحجرية منحوتة أو مقطوعة من الصّخر، وكانت هناك طريق حلزونية محفورة من الأسفل نحو الأعلى تألفت في معظمها من سلالم صخرية. عند أدنى التلة كان هناك ما يشبه الشرفة من الحصباء تشكل طريقاً بين التلة وبين خزّان كبير من المياه عند قاعدتها. رأيت عدة خزّانات من هذا النوع (كما يسمونها في الهند) على بُعد يقارب مئة ياردة عن الأول، وكانت جوانبها مزدحمة بالحجّاج دوماً طوال النهار لكي يقوموا بفرض الوضوء.

وقد شاهدتُ رجلاً يدخل الخزان بجسمه وسرعان ما انزلق عن الحافة الحجرية نحو المياه، ولاحظت الناس المتحلقين حوله وقد انفجروا بالضحك. انتظرتُ فترة طويلة عند التلة حتى اقترب وقت الظهر ومع ذلك فلم أسمع أيّ أذان، ولم يكن هناك خطيب، إلا رجل عربي عجوز كدر لم يكن يرتدي زي الإحرام. كان يجلس وقد شبك قدميه على جدار بارتفاع ستة أقدام ليلقي خطبة على حشد لم يكد يسمعه حتى على بعد عشرة ياردات، فهل كان هذا الشخص هو الخطيب الذي قطعنا كل هذه المسافة

لنستمع إليه؟ أشكّ في ذلك. من المحتمل أنه بسبب الزحام والضجيج ربما قد فاتني سماع خطبة المفتي، وبالأخص أنني لم أتجشّم عناء سؤال أي من الغرباء الذين لم أعرف أحداً منهم والذين لم يكن أي منهم يصلح ليكون المراسل الخاص للحجّ حتى في تلك الأيام.

مع أفول العصر أصبح الزحام عند التلة عظيماً، وازداد الضغط أكثر فأكثر حتى كنت تشعر أن كثافة البشر تحملك نحو الأعلى فعلاً، بينما كان الأشخاص في المناطق الأعلى يتحمّلون العبء الأكبر في النزول نحو الأسفل. وقد صعدت العديد من النساء فكان مصيرهن السّحق، بينما قضى العديد من الأشخاص دوساً بالأقدام ودُفعوا نحو صُدوع الصّخور. أما أنا فتمكنتُ من شقّ طريقي وخرجت من بينهم وشرعت في البحث عن خيامنا. لقد كنت أُدفع عبر السّهل مدة ربع ساعة كاملة أو نحوها قبل أن أخرج سالماً من ذلك الحشد الهائل، إلى أن أصبحت أرى الأرض من حولي وقد انتثرت فيها الخيام والجمال هنا وهناك. عندها لفظني الحشد الهادر قطعة واحدة سليمة، فحانت مني التفاتة نحوهم فرأيت الرّجال يخلعون القطعة العلوية من ملابسهم ملوحين بها فوق رؤوسهم وهم يصرخون بأعلى صوتهم «الله»، «محمّد» وكلمات أخرى. بدا أنها كانت تنطلق وفقاً لإشارة محدّدة سلفاً، وكان ذلك مع حلول أذان العصر حسبما أذكر. استمرّ ذلك الصّراخ لدقائق عالياً وهادراً كأشد ما يكون ثم خفت بالتدريج. وكانت تلك الغمامة البيضاء من قطع الملابس التي تلوح في الأفق، تهبط وتعلو من جديد بعدما بدأت عند جبل عرفات وانتهت في السّهل. استمرّت تلك الفواصل من الصّوت المرتفع والسكون بصورة منتظمة حوالي نصف السّاعة، ثم تحولت إلى هدير وجلبة عظيمة.

وصلت تلك الحشود الهائلة إلى ذروة الإثارة من العواطف الجيّاشة، وكان الناس يظهرون أشد العواطف تأثيراً، وغلبت على بعضهم حالة من الهياج والاضطراب الهائل؛ لقد تحوّل المكان إلى حالة كاملة من السُّعار المطبق الرّاعد. غمرني شعور غامض من الخوف وربما الرّعب بصفتي مراقباً خارجياً غير مكترث لهذه الأحداث،

وشـعرت بأنني كنت العاقل الوحيد بين ثلاثمئة ألف من المجانين الممسوسين. لكني بأي حال شـاركتهم الصّراخ ولوحت بالقطعة العلوية من ملابسي ورحت أتراكض هنا وهناك فأصبحت واحداً من ذلك الحشد الغريب، إلى أن سمعت هدير إطلاق مدفعَي الپاشا، وكانت تلك الإشارة إيذاناً بفك الخيام والرحيل، وتذكيري بوجوب العودة إلى جماعتي.

سرعان ما كانت الخيام تقوّض والجمال تتحرّك ليتغير وجه ذلك المعسكر العظيم بشـكل كامـل وحـدث كل ذلك فـي دقائق معـدودة. وجـدت صعوبة بالغة فـي إيجاد أصحابـي، وقـد وصلتهم عند كانوا يتأهبـون للرّحيل. لـم تكن هناك أيّـة مفاجأة لديهم لضياعـي عنهم وهنأوني على حظي الكبير وتمكّني من العثور عليهم. هكذا كانت كل الأمور جاهزة للانطلاق، إلا أن الشريف والپاشا مع موكب آخر من المدينة مرّا بجانب معسكرنا، وبالتالي فقد انتظرناهما ليمرّا ونلحق بهما، وهكذا أمضينا الوقت في إطلاق النـار مـن كل أنواع الأسـلحة التي كانت لدينـا وفي إطلاق صواريخ الألعـاب النارية. كانـت النـار تطلق من البنادق التي تُعبأ من أخمصها دون تجشّـم عنـاء إزالة الطّلقة من غلافها، وقد أطلق الأمير وحده ما يقارب خمسين مشطاً من الرّصاص وقد أربكه قليلاً وجود هذا العدد الكثيف من البشر حوله في السّهل، لكنه كان يطلق الرّصاص عالياً من مسدسه نحو البعيد.

لا أسـتطيع أن أعطي وصفاً دقيقاً لعدد الأشـخاص القتلى أو الجرحى نتيجة ذلك، علـى الرّغم من أنني أعلم أنه قد أسـقط الكثيرين في أماكـن بعيدة. كما أُطلقت النيران من المدفعين الصّغيرين مرّة بعد مرّة بأسـرع ما كانت تتم تعبئتها بحشـوات صغيرة من مسـحوق البارود الناعم دون أن يتم مسـحها، وتوجّه نحو نقطـة خالية فكانت عند كل رشقة تفرّق وتخلي أحد الصّفوف من الحشود الذين كانوا يتراكضون مبتعدين. سرعان مـا كان ذلـك الفـراغ يُسـدّ بمجموعة جديـدة بلمح البصر، لكـن أحداً لم يتأذَّ حسـب اعتقـادي. كان أحـد الأشـخاص يطلق النار بشـكل متكرّر مـن بندقية فتيـل بكمية من البارود في ماسورتها يمكن مشاهدة اشتعالها بوضوح على بعد عشرين ياردة في ذلك

الغروب. وارتفعت صواريخ كونغريف Congrave الكبيرة وأخرى أصغر متطايرة من كافة أنحاء السّهل وأشك أن عيدانها المتساقطة لم تتسبّب بالأذى لهذه الحشود. فعلى الرّغم من أن تساقط عيدان الصّواريخ الصّغيرة كان يحدث على دفعات غير مباشرة وبالتالي لم تكن غير مؤذية، فإنني أظن أن عمود صاروخ بطول 12 قدماً بعد إطلاقه لمسافة 3000 قدم، ما زال قادراً على التسبّب بالضرر حتى ولو لم يهبط بشكل مباشر.

يجدر بي القول مع معرفتي بحقيقة أن البشر هناك يعيشون متوالية من الصّعاب والمخاطر ما أن تنتهي حتى تسلمهم لأخرى، فإنني لم أرَ حادثاً واحداً بأم عيني. لكنني سمعت لاحقاً أن هناك عدداً كبيراً من الأشخاص قد حظوا بشرف الشهادة (عندما يموت أحد المسلمين فإنهم يقولون أنه قد ربح أو فاز) في تلك السّاحة وفي ذلك اليوم بالذات. وقد شاهدت أحد الموتى يُحمل أمامي، والذي علمته لدهشتي أنه قد مات نتيجة ركلة من جمل. في تلك الليلة خيّمنا على مسافة ميل ونصف قبل أن نصل إلى مِنى، في مكان يطلق عليه اسم «مُزدلِفة» وقمنا بجمع ثلاث وستين حصاة صغيرة لنستخدمها خلال الأيام الثلاثة التالية في رمي الجمرات أو رمي الشيطان في مِنى، إذ يتم جمع هذه الحصيّات الصّغيرة عادة في هذه البقعة بحيث تكون ذات حجم معيّن (لا يزيد عن حجم الخردقة) وقد شاهدتُ العديد منها وأمضيتُ سحابة تلك الليلة في جمعها وفرزها، فقد كان من المفترض أن تكون كلها من ذات الحجم.

لقد تميّزت تلك البقعة، شأنها في ذلك شأن مشاعر الحجّ الأخرى، بوجود العديد من الشعائر الدقيقة المرتبطة بها والتي يتوجب على الحاج ممارستها بدقة أكبر أو أقل حسب وجوبها. وقد كانت تختلف حسب درجة علمه وإيمانه. أما نحن فأمضينا معظم ليلتنا في الصّلاة خلف أحد الشيوخ الغرباء في صلاة عفوية طويلة جداً وكان معنى الآيات التي قرأها هي أن الذين يؤمنون ويسمّون أنفسهم بالمسلمين، يجب أن يحملوا رسالة الإيمان في وحدة وسلام،.. وأن من ينصر الله سيمنحه النصر على أعدائه، والكثير من هذا القبيل كما لو كنا في صلاة مسيحية، فكنا نردّ عليه بكلمة آمين بكل قبول وخضوع.

* * *

جـاء صباح اليوم التالي قارسـاً شـديد البرودة، فباشـرنا الرّحلة قبل بزوغ الشـمس بساعتين متوجّهين صوب مِنى لنكون أول الواصلين هناك. وبعد أن أدّيتُ صلاة الفجر فـي مِنى متوضئاً بمياه دافئة، غادرتُ مباشـرة إلى مكّة بعد ذلـك راكباً على ظهر حمار برفقة صاحبه، إذ أنني كنت متشوقاً للوصول إلى البلدة التي كانت سابقاً مسرحاً للحياة والحركة، والتي علمت أنها ستكون مهجورة. لم يكن هناك أي شيء غريب في ذلك، إذ أن استعجالي للذهـاب قبل وجبة الإفطـار كان ليبدو أنه يعود لبعض من الحماسـة الدّينية المفرطة. وقد كان الأمر الأنسـب الذي يمكن فعله هو الذهاب إلى مكّة بأسرع ما يمكن بعد الحجّ وممارسة نفس الطقوس التي تمّت بعد الوصول للمرة الأولى إلى «المدينة المقدسة»، ونزع لباس الإحرام.

كان الطريـق إلـى مكّة غير مزدحم بالحجّـاج العائدين الذين مـررتُ بالقليل منهم، وكانـوا قد خرجوا مبكرين سـائرين على الأقـدام، فتجاوزناهم بسـرعة إذ كنا راكبين، ووصلنـا إلى مكّة لاحقاً بعد مغيب الشـمس بقليل. شـاهدنا عند أطـراف البلدة بضعة أكشـاك لبيـع القهوة قد فتحت أبوابهـا ومررنا بمجموعتين أو ثلاثة من البدو والسّـود. وعندما وصلنا إلى البلدة كانت شـوارعها قاعاً صفصفاً، ولم أرَ فيها أي كائن حي على الإطلاق، وكانت جميع المحلات مغلقة، وأبواب البيوت ونوافذها كذلك. كان لذلك وقـع غريب في نفسـي بعد كل ذلـك الزحام الذي ألفتُه لعدة شـهور. ومـع اقترابنا من الحَرَم صادفنا بعض المتسـولين الجالسـين وقد افترشوا جوانب الطريق، وكانوا بحالة مـن الوهن والإعياء الشـديد فكانـوا أضعف من أن يلتحقوا بالحجّـاج، وبدا أنهم أبعد مـا يكونون عن الحيـاة بل إن بعضهم كان ميتاً فعلاً. لقد ألقـوا علينا التحيّة بطريقة تثير الإشـفاق، وتوسـلوا أن نعطيهم بعض الطعام، ومن المؤكـد أن الجوع قد عضّهم بنابه الضروس، ونال نصيبه منهم. بينما لم يكن الحال كذلك بالنسبة للكلاب الشاردة التي كانت تتجوّل بينهم بحرّية مخيفة في محاولة لقضم أرجل من ماتوا منهم. وسـرعان ما تخلصـت من منديلي الـذي حملت فيه بعض التمر والخبز كـي أتناوله كوجبة خفيفة، لأسـاهم في إطالة حياة واحـد أو اثنين من أولئك البؤسـاء المنهكين. وقد تعلّق واحد

من هؤلاء بحميرنا عندما كنا متوجهين نحو الحَرَم.

لم أجد سوى مجموعة مكوّنة من ستة من المغاربة عادوا لتوّهم من عرفات خلال الليل، وكانوا الحجّاج الوحيدين الذين سبقوني. كان بعض القيّمين على الحَرَم من العرب، الذين بقوا لتغيير كساء الكعبة، والذي يتم عادة تغييره في مثل هذا الوقت من العام، يضعون اللمسات الأخيرة. كان ذلك الكساء يأتي من القاهرة، حيث من المفترض أن تتم حياكته بواسطة سبعمئة من العذراوات. بعد تأديتنا للصلوات والطواف أدّينا السّعي على حميرنا، الأمر الذي لا حرج فيه للضعفاء. وقد استطعنا تأدية تلك الشعيرة بكل إخلاص، نظراً لاندفاعنا في أدائها، ولا بد أن التعب قد نال منا في النهاية.

بعد ذلك تجولنا في الشوارع الموحشة وتركنا رواحلنا تسير على غير هدى. لقد كان هنالك سحرٌ خاصّ لتلك الشوارع والزواريب الخاوية المقفرة والتي كانت فيما مضى مكتظّة بالمارة، حتى أن صديقي كان يشاركني الرّأي نفسه وعنه اقتبست عبارته الشهيرة: «إنها أشبه ما تكون بمدينة أشباح». أثناء مرورنا بشارع ناءٍ ضيق لم أطرقه من قبل، اصطدمتُ بجسم غريب كاد يطيح بي عن راحلتي، ففوق مستوى الرّؤوس كانت تبرز لوحة سوداء كبيرة مكتوب عليها بالأصفر عبارة «نُزُل للسّكن».

قلت لصاحبي: «جاك، فلنعد أدراجنا». فقد شعرت كأني رأيتُ شبحاً. ولكن، صحوتُ من الصّدمة بشكل يكفي لملاحظة الموقع الذي كنا فيه، وذلك للرّجوع إليه مستقبلاً والتحري عن الأمر. رجعت أفكّر وأتأمّل طوال الطريق الذي عاد مجدّداً ليمتلىء بالحجّاج، إلى مقرنا الحالي في مِنى. ولا أخفيكم فرحتي عند العودة لنزعي ثياب الحجّ والتي لم تردّ برد الليالي ولا شمس الظهيرة التي كانت تسفع رأسي الحاسر الأجرد سفعاً. ذهب معظم أفراد مجموعتنا إلى مكّة، لكنهم عادوا قبل الظهيرة لشراء ونحر الأغنام التي يجب على كل ذي سعة أن يذبح منها حيواناً واحداً على الأقل في ذلك اليوم، والتي يتوفر الكثير منها في البلاد في تلك المناسبة. تتّخذ تلك المراسم شكل مهرجان واحتفال أكثر منها مذبحة، برغم أن كل الأغنام والماعز التي يتم ذبحها

كانت عبارة عن ذكور فتية، ولا أعتقد أن ذلك شرط أساسي إنما هو تقليد ناتج عن استبقاء الإناث للولادة وإنتاج الحليب.

اشتريت خروفاً أسود صغيراً بدولارين اثنين، وقمتُ بذبحه في نزلنا بالطريقة المعتادة لذبح الحيوانات، باستثناء توجيه رأسه نحو القبلة، قائلاً: «بسم الله الرّحمن الرّحيم» عند قطع حنجرته. ولكم تعطي تلك التسمية في فم الجزاء المحمّدي رهبة في أذن مستمعها، لذلك لا بدّ من التخفيف قليلاً من لهجتها. بالإضافة إلى العديد من الخراف والماعز من النوع الفاخر، قام الأمير بنحر جملين فتيين ليصار إلى توزيعهما على أتباعه من البدو والفقراء. تمّ نحر تلك الأضاحي في طرف القرية الشرقي، حيث تمّت تهيئة ساحة مستوية تبلغ مساحتها نصف فدّان خصيصاً لذلك الغرض، مع قناة تحيط بها لجريان الدّم.

كان الكثير من الحجّاج يأتون إلى تلك السّاحة بأضحياتهم ليتمّ نحرها، على اعتبار أن معظم قطعان الأغنام كانت تتخذ من تلك المنطقة مقراً لها. وبالنسبة للجمال فقد كان عقرها يتم على الشكل التالي: يتم النزول بالجمل أرضاً على ركبتيه قرب القناة مع ربط رجليه بشكل لا يمكّنه من الحركة. بعد ذلك يمسك أحدهم برأس الجمل ويعمل آخر برقبته سكيناً كسكين البحارة، قرب كتف الجمل، ومن ثم يتم فتل الرّأس حتى ينفصل تماماً عن الجسم مع الرّقبة. يتم قطع الرّأس دون تحريك لبقية الجسم، مع إحداث شق في الجلد باتجاه منتصف الظهر. كان ذلك العمل يجري على قدم وساق طوال النهار.

في ذلك اليوم أيضاً قمنا برمي الحصوات الإحدى والعشرين التي كانت في حوزتنا، سبعة منها تم رميها على ثلاثة مواضع في القرية. كان أول تلك المواضع في أقصى الشرق، وهو عبارة عن مسلّة ترتفع تسعة أقدام عن الأرض، يحيط بقاعدتها جدار واطئ، تتجمّع في داخله الحصوات بعد رجم المسلّة. والثاني في وسط القرية، شبيه بالأول لكنه أكبر منه. أما الثالث فكان في أقصى غرب القرية. وهو عبارة عن جدار حجري عالٍ على يمين طريق يطلّ على الناحية الغربية، وفي داخله نصبٌ حجري هو الذي يتم رجمه.

لقد كان من الصّعوبة بمكان الاقتراب من تلك النُّصُب الثلاثة نظراً لاكتظاظ الناس، حتـى أن بعـض الناس الأقل قوة مـن الآخرين، كانوا يرمـون بحصواتهم من بعيد فوق رؤوس الناس. وما تلك الشـعيرة إلا إحياء لذكرى إبراهيم عندما رجم الشيطان بإلهام مـن جبريل، عندما كان الشـيطان يوسـوس له في تلك المواضع الثلاثـة. وفي اليومين التاليين أعدنا رمي الحصـوات. وبتقديري فقد تجمّع في أحواض تلك المسـلاّت ما يقارب الثلاثة أطنان من الحجارة قبل مغادرتي لِمِنى. ولا بد من تفريغ تلك الأحواض مرة كل عام، وإلا سـتمتلئ خلال موسـمي حج. وكان الاعتقاد السّـائد بين الناس أنها تُنقل إلى المزدلفة بواسطة الملائكة.

لم يحصل لنا في بقية أيامنا التي أمضيناها في مِنى ما يستحق الذكر، سوى استمتاعنا بشـيء مـن اللحوم التي نُحـرت والتي رُمي المئـات منها حتى أن عشـرات من الطيور الجارحة وأسراب الذباب تجمعت حولها.

وكان الماء نادراً في تلك المنطقة، وكان يُجلب من أماكن نائية عن القرية.

* * *

الفصل السّابع

في مكّة بعد موسم الحج

عدنـا فـي اليوم الرّابع بعد الحـجّ إلى مقر إقامتنا القديم ضمن جـدران الحَرَم، وفي صباح اليوم الخامس انطلقتُ للبحث عن نُزل الإقامة آنف الذكر. ولما اتّخذتُ سبيلي بيـن المعمّمين والمُلتحين من أهل الشـام والعجم والمغول والعـرب، بدا ذلك وكأنه حلـم، ولما وصلـتُ للافتة عينها اعترتني نفس الدّهشـة في المرة الأولـى. قبالة النزل كان هنالـك دكان تبـغ، ذهبتُ إليه متظاهراً بالشـراء، ودخلتُ في جـدل مع البائع على صـرف روبيـة، في نفـس الوقت الذي كنـت أكوّن فيه صـورة عن الموقـع المقابل له، مجتنباً الاقتراب منه بشكل مباشر. في النهاية توصّلت إلى تسوية مع البائع بشأن صرف الرّوبيـة، متعمداً ارتكاب غلط في الحسـاب لصالح البائع لأكسـب ودّه وأسـأله عمّن يقطـن في ذلك المنزل المنشـود. عندها، خرج رجل طويـل عريض، يبدو من ملامحه بأنه عربي حنطي البشرة، وجاء يتمشى صوب الدكان وهو يصفّر بمرح. كان ذلك كافياً.

- قلت له: «صباح الخير».

- «يا لله، هل تتحدث الإنكليزية؟».

- «نعم».

- «صباح الخير».

وقفنـا لبضعة لحظات ننظر إلى بعضنا البعض، وظننت لوهلة أنني أروق لصاحبي، حتى أنني كدت أفصح عن هويتي، عندما قال بنبرة توحي بالجواب:

«لا يمكن أن تكون إنكليزياً، أليس كذلك؟».

فأجبته بلهجة نصف هندية: «نعم، أنا رجل إنكليزي. وأتحدث الإنكليزية بطلاقة».

بدّدت تلك الكلمات، بالإضافة إلى تنهيدة راحة تنم عن سعادة بالغة، كل الشكوك بيننا. برغم ذلك قال: «عادةً ما يغير الرّجال الإنكليز ديانتهم ويصبحون مسلمين ويأتون إلى هنا ليطّلعوا على عاداتنا عن كثب، ثم يعودون إلى بلادهم ويأخذون بتأليف الكتب عنـا. والآن هنالك ثلاثة منهم تحيط الأغلال بأعناقهم وقد تم إلقاؤهم بين المرتفعات الصّخرية».

لم أخبره بأنني أعتبر تلك الكلمات محض كذبة. بعد ذلك تمشّـى معي بقية النهار، وأنـا أتحـدث إليه إنكليزية مكسّـرة. لقـد كان من ماليزيـي رأس الرّجـاء الصّالح، من المسلمين الذين يتحدثون الإنكليزية، والذين يأتي منهم كل عام إلى مكّة ستة أو سبعة حجّـاج. لقـد عاش لبضعة سـنوات في مكّة، وأخبرنـي بأن قومه قد لقوا معاملة سـيئة عندمـا بدأوا بالقدوم إلى الحج، حيث سـمحت لهم السّـلطات بالإقامـة في مكّة على شـرط عـدم تحدثهم سـوى العربيـة التي لا يتقن أقلهم منها سـوى عشـر كلمات أو ما يقـارب. وفي حال رآهـم عربي وهم يتحدّثـون أيّة لغة أخرى، فله الحرية أن يشـبعهم ضرباً، دون أن يجرؤ أحدهم أن يردّ شـيئاً ممّا يتلقى. كان ذلك في أيام الپاشـا السّـابق المتزمّت، والذي ينتمي للجيل الأول الذي كان يطبّق أحكام القرآن حرفياً.

استشـهد علـى ذلك بالكثير من المتسـولين الذيـن تراهم في الشـوارع وقد قطعت إحـدى أطرافهم، سـواء منها القدم أو اليـد، وما ذلك إلا نتيجة لتطبيق أحكام السّـارق عليهم بواسـطة الپاشـا المذكور. إن قطع الأعضاء فكرة رائعة لعقـاب المذنبين، إذ أنه يصيبهم بعجز دائم نكالاً بما كسـبت أيديهم. لكن تلك الشـدّة نادراً ما يتم اللجوء إليها فـي ظل النظام المعتدل الحالي. والآن فـإن الماليزيين الآتين من رأس الرّجاء الصّالح قد تجاوزوا وطأة الشـدائد تلك، حتى أن صاحبي أخبرني إنهم مرتاحون جداً في مكّة ويكسـبون المـال. لازم صاحبي في صباه مدرسـة إنكليزية، وبإمكانـه أن يقرأ ويكتب الإنكليزيـة جيـداً، لكنه اعتـرف لي بأنـه ينقصه الكثير. بعـد ذلك بدأ بالاستفسـار عن

أصولـي التي أنحدر منها، وعمّا كنت أعمله، فأخبرته بأني كنت تابعاً لواحد من الهنود الأغنياء، وأعطيته اسماً وهمياً، لأن صحبة من يعرف الكثير عنا لن تكون صحبة ممتعة، كما أن أسـوأ المسـلمين حقاً وفعلاً يتظاهر عند انعدام الأخطار كأكثر المتعصبين حنقاً وحقداً. وللتخلص من صديقي عمدتُ إلى حيلة لم تثبت فشلها يوماً. فقد بدأت أغالي بتقييم سلسـلة سـاعته، مبدياً إعجابي بخواتمه، مشـبهاً إياه بقـارون، ومقارناً بعد ذلك غناه واسـتقلاليته بفقـري وإعوازي. لم يحتـج الأمر بعد ذلك لكثير ذكاء من الشـرقي ليتكهّـن بما هـو آت. لذلك تظاهر بأن لديه عملاً يجب عليه القيام به، وبعجلة من أمره ألقى علي السّلام وانصرف.

التقينـا بعـد ذلك عدة مرات، لكنـه لم يهبني مقابلة طويلة بما يكفـي لمتابعة حديثنا الأول. في إحدى المرات أخبرني بأنه قد اسـتورد مؤخراً ماكينات خياطة، لكن عندما رآهـا أحـد الملالي Moulahs قال بأنها من صنع الشـياطين الإنكليـز، وأراد أن يعرف فيما إذا كان بإمكاني أن أدلّه على مشترٍ لها.

فـي ذلـك اليوم تم افتتـاح الكعبة للذين لم يكونـوا في مكّة خـلال رمضان، واكتظ الحَـرَم بزائريـه. كان كل جزء من مكّة دائـم الاكتظاظ. ولربما كنت قـد أوحيتُ لك يا قارئـي بذلك في بداية القصـة، وكلما أتيت إلى منطقة في مكّة غير مكتظة بالزوار لا بد أن أذكر ذلك كونه ظاهرة غريبة؛ على كل حال، فعندما أقول مكتظة يجب على القارئ أن يفهم من قولي أنها مكتظة بكل معنى الكلمة.

كان كل جـزء مـن الحَـرَم مكتظاً بالرّجال دون النسـاء، على اعتبار أن الكعبة سـيتم افتتاحهـا لهـم في اليوم التالي. ولقد استغرقتُ سـاعتين بانتظـار دوري للدّخول، لأن الحجّـاج كانـوا يدخلون أفواجـاً وجماعات عبر سـلّم دَرَجـي يتمّ الإتيان بـه وإعادته بواسـطة الخصيان في الحَرَم، الذين تراهم مسـتلقين حوله بعصيهـم عندما كنا نجاهد للدّخـول. تسـنّى لـي الدخول أخيـراً. لم يكن هنالك مـن مدخل للكعبة سـوى الباب الـذي حُملـت إليه في الزحمـة. كانت الحـرارة شـديدة والجو لا يطـاق. اتخذت في الحـال سـبيلاً لي إلـى الخارج كغريـق يخبط خبط عشـواء في الماء ليصل إلى سـطح

النجاة. تسنّى لي في الداخل أخذ نظرة وافية عن أرجاء المكان بلمحة سريعة، حيث لا يفترض بأي إنسان النظر إلى أعلى أثناء وجوده في الداخل، إذ شاع بين الناس أن الرّجل الوحيد الذي فعل ذلك خُطف بصره. ونظراً للظلام الدّامس الذي يلفّ أرجاء المكان، لا يُرى إلا السّتائر الحمر التي تتدلى على الجدران وتغطي السّقف، موشحةً بالذهب، بالإضافة للأساطين الثلاثة التي تحمل السّطح فوقها، والتي يضيء بينها عدد من المصابيح الخافتة متدلية من قضبان معدنية معترضة.

في اليوم الذي يتم فيه دخول النساء سمعتُ الأهازيج والزغاريد العربية بأبهى صورها، إن كان من النساء أو الصّبية، حتى أن مئات من النسوة الأخريات كن يردّدن صداها في أرجاء المكان طوال اليوم، حيث يرفعن أصواتهن بنبرة عالية لفترة طويلة مدخلين الإبهام الأيمن في الخد الأيسر، مع استمرار التحريك، أو يتم تكرار الصّوت بواسطة حركة اللسان. وبعض النسوة يضفين على الزغرودة نغمات موسيقية صدّاحة من حناجرهن العذبة.

بعد ذلك حان موعد لقائي مع «السيدة ڤينوس». كان الترتيب في ذلك اليوم على الشكل التالي: بعد صلاة الظهيرة، تمشي جيئة وذهاباً في الرّواق تحت نافذتي التي أجلس عندها وأرقب مجيئها، حتى يرى كل منا الآخر. كان الأمر بغاية السّهولة. انطلقتُ وراءها مسترشداً بخطاها. ولأن الزحام كان شديداً كان بإمكان كل منا أن يمشي ملاصقاً لصاحبه دون أن نبدو برفقة بعضنا البعض، حتى وصلنا إلى محل مجلّد مصاحف هندي، حيث أخبرتني أنه عليّ الانتظار قليلاً ريثما تدخل. بعد دقائق خرج طفل صغير يدعوني للدّخول، واقتادني إلى غرفة صغيرة في الخلف حيث وجدتُها جالسة هناك لوحدها وتركنا الصّبي لوحدنا. تحدثنا لبعض الوقت حول لقائنا السّعيد في مِنى، وسألتها عن صحتها التي كانت متردّية في السّنة الماضية، تماماً كما كانت عند قدومها مكّة لأول مرة منذ سنوات خلت (وكما أذكر فقد قالت إنها عشرون سنة).

أزاحت النقاب عن وجهها لبعض الوقت - الأمر الذي يعتبر عيباً كبيراً، والذي إن رآه أحدهم فليس لي إلا أن أعلن أنها زوجتي في الحال. لقد كان لديّ الوقت الكافي

لتأمل شكلها عن كثب. كانت قصيرة بعض الشيء، بحدود الأربعين من العمر. لا بد أن تلك المرأة كانت جميلة في شبابها، ولا يعني ذلك بحال من الأحوال أنها قبيحة الآن. لقد كانت تبدو بحال جيدة من كافة النواحي. وبالرّغم من أنها كانت شاحبة، فإن بشرتها كانت رائقة، وتعابيرها تفيض بالحيوية والسعادة. أستطيع في هذه اللحظة أن أراها في بالي وخاطري كما لو كانت أمامي بشخصها، بنفس الحزن والابتسامة الطيبة التي تلقت بها دعاباتي ونكاتي الأنجلو عربية، قائلةً: «تحدّث بالإنكليزية يا صغيري».

لقد كنت حقاً أشعر بالشفقة تجاه تلك السّيدة الإنكليزية التي تعيش بنفس الرّوتين لسنوات عديدة، ولا بدّ لي أن أفصح عن تأثري بابتسامة تلك الإنسانة الرّقيقة خاصّة عندما تمتلئ عيناها بالدموع قبل أن تستسلم وتبكي ملياً، ما يعطيها راحة ويفرج همها. لقد اكتشفتُ من أول لقاء تم بيننا أن نفسها تمتلئ أسىً كلما ذُكر ماضيها، لذلك فقد تردّدتُ في فتح أيّ موضوع عن الماضي، وبدأتُ بإخبارها عني، عن اسمي المسيحي، ولماذا أتيتُ مكّة، وما إلى ذلك من الأحاديث، كل ذلك بهدف إعطائها شيئاً من الثقة بنفسها. وإذ بصوت يأتي من الخارج، الأمر الذي اضطرّها لإرخاء النقاب على وجهها. دخل صبي يحمل بعضاً من الشاي والحلوى كان قد أرسلها صديقها سيد المنزل. لقد شغلنا ذلك لوهلة، وبعد الشاي طلبت من الصّبي نرجيلة لسببين، أولاهما أني أرغب فعلاً بالتدخين، وثانيهما أن أستغلّ حجّة إعادة النرجيلة للخروج من الغرفة وإلقاء نظرة على الخارج. انتهزتُ هنا الفرصة لأسألها عن معرفتها بأهل رأس الرّجاء الصّالح، فأجابتني أنها عقدت صداقات مع بعض نسائهم قبل عام أو عامين، وبدأت بإرسال رسائل إلى بعض معارفها هناك الذين رأتهم في طريقها إلى الهند تذكر عناوينهم، لكنها لم تسمع شيئاً عنهم منذ ذلك الحين.

حين نجحت في جرّها للحديث عن نفسها، استطعت إبقاءها كذلك، وأغريتُها بإخراج كل مكنونات نفسها، لكن ذلك كان عملاً شاقاً. وحسب ما أذكر فقد أخبرتني بأن اسمها هو ماكنتوش، وأن والدها طبيب، وأنها أمضت شطراً من شبابها في

«ديفونشاير»، وأنها كانت في «لكنو»[1] وقت الحصار، وتم إنقاذها بعد ذلك بواسطة أحد قادة الثوار. لقد كانت تتجنّب الخوض في التفاصيل، لذلك لا أستطيع التأكيد فيما إذا كانت قد ذهبت بمحض إرادتها أو كأسيرة. لقد أخبرتني أنها عاشت لسنة أو ما يقارب مع ذلك الرّجل في الهند، قبل أن يفرّ من الإنكليز الذين وضعوا مكافأة لمن يأتي برأسه، لكنه ما إن وجد ملجأً في مكّة حتى أخذها معه، وتوفي الرّجل منذ ثماني سنوات خلت، تاركاً إياها تعيش في فاقة، فصارت تقتات من تطريز القلانس[2] التي تبيعها للتجّار في الأسواق.

كان هناك أحد التجّار الهنود الأغنياء، والذي كان ابنه يدير أعماله في الهند ويرسل له برسائل من حين لآخر، كانت تقوم بترجمتها له، فأعطاها غرفة صغيرة في مقصورة الحريم عنده في الدار. كان هذا كل الذي حصلتُ عليه مقابل أسئلتي الملحة، حتى أُجبرتُ في النهاية على التوقّف عن ذلك بدافع من الشفقة المحضة، فقد بدت بغاية الانزعاج والمضايقة، حتى كادت تنهار من الأسى. بعد ذلك طلبت منها قراءة بضع أجزاء من القرآن، بحجّة أني أرغب بتعلّم اللهجة المكّية، الأمر الذي راق لها. واكتشفت أنها تتقن بالإضافة للهندية اللغتين الفارسية والعربية، دون التركية. وتأسّفت لأن وضعها لا يسمح لها بإقامة علاقات مع الأتراك الذين بدا أنها تكنّ لهم شيئاً من الاحترام. لقد ذكرت لي أسماء بعض من الرّجال المقيمين في مكّة، قالت بأنهم ثوار أو متمرّدون، وأخبرتني عن المكافآت التي رصدتها الحكومة الإنكليزية لمن يأتي برؤوسهم، كما بدا أنها على اطلاع تام بآخر أخبار حصار «لكنو» وانفراج أزمتها. وساقت لي في معرض حديثها أن شاباً فرنسياً كان قد أمضى ثمانية عشر شهراً في مكّة، وتوفي قبل مجيئي بستة أشهر. سألتها عن سبب وفاته، فأجابت بالهندي: «الله أعلم، إنا لله وإنا إليه لراجعون، تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام».

---

(1) لكنو عاصمة ولاية أوتار پراديش في شمال الهند، فيها عدد كبير من المسلمين وتمتاز بتاريخها الإسلامي العريق، وبها جامعة شهيرة.

(2) القلانس جمع قلنسوة، وهي غطاء صغير للرأس يستعمله المسلمون في شمالي الهند.

بعد ذلك تلت علي القصة التالية:

«جاء شاب فرنسي إلى مكّة منذ سنتين خلت، وتوطّدت أواصر المودة بينهما، وصار يراها بنفس الطريقة التي أراها بها الآن. أخبرها بأنه مسلم راسخ الإيمان، وبأنه ذهب أولاً ليعيش في القسطنطينية، لكن والده الذي كان من كبار الأغنياء ضغط عليه كثيراً ليعيده، فاضطر إلى الانتقال للعيش في القاهرة. وهناك وجده أصدقاؤه الذين بذلوا الغالي والرخيص في سبيل إعادته إلى المسيحية. لقد بدا أنه مجرّد شاب تمّ القيام بعدد من المحاولات لإرغامه على العودة إلى فرنسا بالقوة، لذلك فقد اضطرّ إلى الفرار إلى مكان آخر في مصر، ولما تبعه أصحابه ما كان منه إلا الفرار إلى مكّة التي كانت بمثابة ملجأ آمن منهم كما قال لي. في مكّة وجد وظيفة في منزل تركي موسر، وكان يبدو أنه شاب على قدر كبير من الذكاء، إذ تعلم كافة علوم المصريين. لذلك كان الملالي Moulahs يكنون له الكثير من الغيرة، وخاصة بسبب الآراء والأفكار المميزة التي كان يبديها. وكما قالت السّيدة ڤينوس: «لقد كثّر أعداءه نتيجة لذلك. لقد كان يرفض الاعتراف بأنه فرنسي، ويدعو نفسه دائماً بالتركي».

سألتها إن كان معروفاً بأنه فرنسي، فأجابت:

«لقد كان مؤمناً حقاً»، وما عدا ذلك لم يكن أحد يعرف أو حتى يهتم ما جنسه وما حقيقته.

لقد أولت مقدرته الكبيرة في القراءة والطلاقة التي كان يتحدث بها التركية والعربية اهتماماً خاصاً، وكونه معروفاً ومكروهاً في نفس الوقت من قبل بعض الناس الذين لم يدّخروا جهداً في مضايقته، حتى أنه أوشك على الرّحيل. ودّعها قبل أن يتوفى فجأة، ودون أن يكون لديها أدنى شكّ بأن الأمر ليس طبيعياً وأنه لا بدّ أن تكون هنالك مؤامرة قد أودت به. تلك المؤامرة حسب ظنها عبارة عن شيء وُضع في فنجان قهوة ثم قُدّم له وشربه.

كان ذلك كل ما سمعته من السّيدة ڤينوس بشكل عام في أول لقاء مطول بيننا. وعند المغادرة نبّهتني إلى وجود علامة مميّزة أعلى نقابها أستطيع بواسطتها تميزها

عن النسـاء الأخريـات. رتبنا لموعد جديد في الحَرَم يمكننـا بموجبه اللقاء في أيّ يوم عند سـاعة محدّدة، وذلك حتى يتسـنّى لنا رؤية بعضنا قدر الإمـكان، علّي أخبرها عن خططي للمغادرة، ذلك أنني ضقت ذرعاً بأخبار السّفن المغادرة كل يوم من ميناء جدّة، وما هي إلا أربعين ميلاً حتى يصبح المرء في عالم آخر، خاصة أنني أعرف السّفن جيداً وأعرف الطواقم العاملة عليها الذين كانوا فيما مضى زملائي في المهنة.

صدقوني أنني كلما سـمعت العرب يتلفظون بأسـماء مهن قديمة معروفة مشوّهين إياهـا بطريقة مقـززة، حتى أنني لا أميزها إلا بصعوبة بالغة، كنـت أتخيل صوراً «بعيدة علـى قـرب قريبة على بُعد»، ترتفع فيها طاولة مكللة بغطاء أنيق تعلوها البيرة المثلجة. وكنت مسـتعداً حينها لأبيع خمس سـنوات من عمري مقابـل حفنة دولارات تحملني عبـر الصّحراء وتعيدني إلى الأجواء الأوروبية الأنيقة المرتبة. لم تكن السّـيدة ڤينوس قـادرة على مسـاعدتي، لذلـك لم يكن لـدي إلا الانتظار بعينيـن مفتوحتين. في بعض الأحيـان كان يخطـر علـى بالي أن أضـع أمتعتي على ظهـري وأن أتخذ سـبيلاً نحوها فـي هيئة بحّار رث الثياب، لكن الحجاز ليسـت بمسـتعمرات بريطانية، والمتشـرّدون (الغروبيـون)[1] يتعرضون لإطلاق النـار عليهم من وراء أية صخرة، لأن اللصوص لن يتركوا عابر سـبيل يمرّ وحيداً دون إطلاق النار عليه. صحيح أنهم لم يقوموا بضربه أو يتوقع منهم ذلك، لكن كل شيء محتمل الوقوع.

وبالرغم من أن أهل الحجاز يفتخرون بعدم قيامهم بسلب مؤمن «حيّ» على الإطلاق، فإن من يمتهن الغزو قد يطلب من ذلك المؤمن أن يمنّ عليه بشـيء، في نفس الوقت الذي يلعب فيه لعبة التلويح بسـيف حادّ قصير أمام بطنه، بطريقة تدفع حتى بالمؤمنين الصّادقين إلـى الصّدقـة والمنّ بالعطـاء. وحتى إذا تبيّن أن ذلك المؤمن يتمتع بشـيء من الشـحّ، فإن صاحبنـا الغـازي لن يتردّد أبداً فـي إردائه قتيلاً، ولضمان عدم إحساسـه بالحرمان فإن أبناء الغازي يقومون عادة بقطع رأسـه ويديه بكل عناية ورعاية. بالرغم من مكانتي الكبيرة لدى

(1) اسم متبع في المستعمرات يدل على المتشرّد الذي اعتاد الذهاب من مزرعة إلى أخرى فيصل وقت الغروب ليؤمن عشاءه ومبيته.

الأمير في الوقت الحاضر، فإنها سرعان ما تتضعضع في حال أظهرتُ أية رغبة في تركه أو حاولت مجرّد محاولة لعمل ذلك. لا وألف لا! لقد قرّرت حفاظاً على سلامتي، التي لا أزال أحظى بها حتى الآن، ألا أضحّي بها حين يمكنني الانتظار.

أعتقد أن الطوفان قد وقع في اليوم الثامن من الحجّ، بعد سبعة عشر عاماً من آخر زيارة له إليها، حيث ارتفعت المياه سبعة أقدام في الحَرَم. كانت السّماء هذه المرة سوداء قاتمة من جهة الشرق، وكانت السّحب سديمية دخانية، وكما لاحظت سابقاً فهي من النوع الذي يتبعه هطول مطر غزير. شهدت تلك الأيام تغيّراً كبيراً عن لون السّماء الأزرق لتصطبغ بالأسود القاتم. ولم تنفتح أبواب السّماء بماء منهمر على مكّة حتى السّاعة الحادية عشرة صباحاً. وبالرّغم من احتمال هطولها لبعض الوقت في مِنى وعرفات، ذلك أن السّيول الآتية من جهتها نحو وادي مكّة كانت عارمة، وسرعان ما طافت الشوارع في الشرق ومركز المدينة على ارتفاع بضعة إنشات من المياه. لم تقع أيّة حوادث خطيرة، إذ أن السّيل الذي اجتاح الشوارع كان نتيجة طبيعية لزخّات المطر المعتادة، وكانت الأكشاك في الأسواق تقف على جانبي الشوارع، حيث كان الناس يخوضون وسطها في السّيول التي تجتاحها.

حالما بدأ المطر بالتساقط، عدتُ إلى البيت ونظرت من خلال النافذة، فإذا بالرّياح بعد أن بدأت بالهبوب أخذت تعصف تجاه الشرق، مصحوبة بأمطار استوائية غزيرة، ليس أشدّ غزارة من الأمطار الاستوائية، لكنها من أشد أنواعها غزارة. وإذا بأعضاء مجموعتنا، مع استمرار الأمطار بالهطول، يأتون ملتمسين مأوى وهم يقطرون ماءً ليملأوا غرف المنزل. سرعان ما تجمّعت في الحَرَم بضعة إنشات من المياه، ليتم تجنيد المستخدمين، كما كنت أراهم دوماً، للحفاظ على نظافة الرّصيف حول الكعبة بواسطة كشط المياه إلى فتحات تصريف خاصة.

بعد ساعة من استمرار الأمطار بالهطول بنفس الغزارة، أصبحت الرّياح إعصاراً أو تكاد، حتى أن ستارة الكعبة كانت تطير يمنة ويسرة وكادت تتمزّق لولا كونها جديدة. في تلك الأثناء، أرسل الأمير بعضاً من مستخدميه لمحاولة جمع بعض المياه التي

تتدّفق حول الكعبة لأغراض شربنا. ومن خلال خروجهم ودخولهم أخبرونا بأن منسوب المياه في الشوارع في ارتفاع مطّرد، وسرعان ما أتوا بعد ذلك ليخبرونا بأن الطوفان إن بقي كذلك سيجتاح الحَرَم.

خرج بعض من جماعتنا لإلقاء نظرة، وبقيتُ أنا مع الباقين. وإذا بمنسوب المياه يرتفع عالياً بشكل مفاجئ دون أن يترك لنا مجالاً لأخذ احتياطاتنا. وصفها أولئك الذين رأوا المياه الآتية من صوب مِنى بأمواج عاتية؛ في حال صدق وصفهم، وفي حال مرورها على موقع السّلخ، فلعمري ستتلوث المياه. إنها تسيل الآن في مجارٍ طينية بعمق ثلاثة أو أربعة أقدام عبر كل الشوارع.

يرتفع أمام كل من مداخل الحَرَم حاجز حجري، من الواضح أنه مبني لغرض منع المياه من الدخول في ظروف كذلك الطوفان. اتخذتُ لي موضعاً فوق أحد تلك الحواجز أرقب السّيل العرم الذي يجرف في طريقه ركام الأسواق وأقفاص الدّجاج وكافة أصناف الفاكهة والخبز والسّلال الفارغة ودعائم وأسقف الأكشاك الخشبية، بالإضافة إلى الكلاب التي تراها تسبح هنا وهناك، والتي يرجعها التيّار القهقرى كلما حاولت الرّسو على بر. وفي وسط المياه كان العرب وداكنو البشرة يقفون ملتقطين ما يمرّ بهم ممّا يمكن الاستفادة منه.

اجتاح الطوفان معظم المحالّ التجارية، وسرعان ما ارتفع منسوب المياه بحيث لم يكن هنالك من وقت لنقل البضائع التي تحتويها، إذ أن الطوفان كان أسرع في نقلها خارجاً، حيث شرع أصحابها في التقاطها واسترجاعها بكل جرأة وشجاعة. أما المتاجر التي لم يصلها الطوفان فقد اكتظّت بالناس الذين وجدوا إليها سبيلاً، حيث عزلتها درجاتها عن الماء.

كان عمق المياه وقوتها يتزايدان باطّراد، وكان يبدو أن من عاودوا الغرق بعد إنقاذهم ليس عليهم إلا السّباحة.

لم يكن الطوفان قد وصل للحرم بعد، حيث أوى ألوف الناس تحت الأروقة، ولكن

في بضع دقائق، كانت المياه تتسرّب تحت أقدامنا باتجاه الحَرَم خلفنا. كانت بوابات الحَرَم الكبيرة مغلقة في ذلك الوقت، لكنها كانت تشتمل على أبواب صغيرة ضمنها، وكانت تُترك مفتوحة حتى يصبح دفق المياه قوياً لدرجة لا يمكن معها إغلاقها. كان الوقت قريباً من الظهيرة. بعد ذلك دخلتُ المنزل هرباً من العاصفة، لأرتدي ملابس جافة وأقضي بقية اليوم أنظر من النافذة.

لم تكن هنالك أيّة بوادر لتوقف المطر أو تناقص غزارته، واستمرّت الرّياح العاتية بالعصف وبنفس الاتجاه. لقد كانت المياه تجري إلى داخل الحَرَم من كل بوّابة، وكانت الأبواب الضعيفة وسيئة الصّنع بالكاد تصدّ شيئاً منها. كل ما هنالك أنها كانت تنقيها من الرّواسب والمخلفات الكبيرة، حيث يمكن للبحّار أن يشبّه الحالة التي وصل إليها الحَرَم ببحر هائج سحيق الأعماق، إلا أن لونه ليس بالأزرق القاتم المائل للخضرة، ولكن بلون حساء البازلاء الفاتح.

تغيّر اتجاه الرّياح فجأة نحو الغرب بحلول السّاعة الثانية بعد الظهيرة، لترجع ستارة الكعبة إلى مكانها لهنيهة قبل أن ترفرف وتطير باتجاه الرّياح الجديد. لقد استمرّت الأمطار بالهطول، واستمرت السّيول بالجريان حتى الثالثة بعد الظهيرة، عندما ودّعتنا الرّياح ببضعة نفحات عاصفة، وودّعتنا الأمطار بدفقة أو اثنتين كبيرتين.

بعد ذلك، توقف منسوب المياه في الحَرَم عن الارتفاع، وتوقفت المياه عن التدفق السّريع من الخارج. خلال تلك العاصفة الهوجاء كان الحجّاج يؤدّون شعيرة الطواف وتقبيل الحجر الأسود بأعداد أكبر من المعتاد في مثل ذلك الوقت من اليوم. وبالرغم من ارتفاع منسوب المياه إلى أعلى درجة وانغمار الحجر الأسود بالمياه، استمرّ العديد من الحجّاج بالطواف سباحةً حول الكعبة، غاطين رؤوسهم تحت الماء لتقبيل الحجر. لقد كان الجو أثناء العاطفة بارداً دون تفاوت في درجة الحرارة، ولكن دون زيادة عن الحدّ الطبيعي، وبقيت السّماء ملبدة بالغيوم حتى غروب الشمس. حينها حزمت الرّياح أمتعتها واتجهت نحو الشمال[1].

(1) بالرّغم من كون ذلك النوع من الرّياح نادراً في البحر المجاور، فإن الزوابع من مختلف

لقد استحال فناء الحَرَم الكبير بأكمله تقريباً بحيرة كبيرة، بعمق ثلاثة أقدام من المياه عند الرّواق الغربي، وستة حول الكعبة، وثلاثة إنشات عند الرّواق الشرقي، ليتبيّن بأن الفناء الذي كان يبدو مسطحاً في أوقات جفافه هو في الحقيقة شديد الميلان، وهذا ما كشفت عنه المياه المتجمّعة. لقد غمرتنا الفرحة العارمة عندما توقف منسوب المياه عن الارتفاع، إذ أننا كنا نخشى من انطفاء المصابيح كما حصل في الطوفان الكبير الأخير، الأمر الذي بدا حينها نوعاً من الشؤم أو سوء الحظ. بدأت المياه تغور بنفس السّرعة التي طغت بها؛ وعند صلاة المغرب بدأت بالانحسار من الأروقة عند الجوانب الثلاثة المرتفعة من الفناء، حتى أنه لم يتبقَ منها قرب الكعبة إلا ارتفاع قدمين عند صلاة العشاء (في التاسعة مساءً)، وجفّت أرضيات الأروقة تماماً.

أشرقت شمس اليوم التالي في سماء زرقاء صافية، لذلك عندما استيقظنا لأداء صلاة الفجر لم نجد سوى القليل من المياه المتبقية على أسطح الطرقات في مكّة؛ لكن المياه تركت في كل الأماكن التي كانت فيها طبقة تبلغ السّتة إنشات من الأرض الطينية القاسية كالفخّار. أما حول الكعبة فكانت سماكة الرّواسب تبلغ ثمانية عشر إنشاً. قبل أن تبدأ حركة السّير في الصّباح بدت الشوارع والطرقات الوعرة ممهّدة ملساء كما لو كانت مفروشة بالإسفلت لتوّها، وبدا فناء الحَرَم كشاطئ رملي في مياه ضحلة. لقد كان منتهى اللطف والنعومة على الأقدام الحافية. وفي ذلك الصّباح بالذات أديت شعيرة الطواف بمنتهى الخفة والسهولة أكثر من أي يوم مضى. وبعد انبلاج النهار تمشيت قليلاً في الشوارع، التي سرعان ما أثرت فيها الأقدام لتصبح طينية موحلة، ذلك أنه بالرغم من تماسك الطبقة فخارية القوام التي تركتها المياه خلفها في البداية، فقد كان هنالك كمّية وافرة من المياه فيها، لذلك عجنتها أقدام المارين عليها لتصبح عبارة عن طين أسود لزج، والتي قام المتسوّلون والمارّة بالتقاط كافة أنواع الحاجيات والأغراض منها.

الأحجام والقياسات تحدث يومياً في الحجاز. إلا أنه يبدو بأن تلك العاصفة التي تم وصفها أعلاه كانت عبارة عن إعصار زوبعي متوسّط الشدة، وكما هي العادة فقد تحركت من الجنوب الشرقي وفق مسار غير مباشر، بسرعات متفاوتة في بطئها، وتتراوح بين أربعة إلى خمسة أميال في السّاعة، بحيث تغطي دائرة يبلغ قطرها بضعاً وعشرين ميلاً. (كين)

وتـرى علـى الأرض هنا وهناك قدم كلب بـارزة من تحت الطيـن، ولربما جنباً إلى جنب مع سـلة خيزران بارعة الصّنع، أو بطيخة مهروسـة. ولعله من اللافت للنظر بيان عـدد البقايـا والأجـزاء المدفونة جنبـاً إلى جنب تحـت طبقة الطين تلـك، والتي تعتبر تقريبـاً نتاج كافـة عصور وأنواع الفن، بدءاً مـن أحجار القدّاحة أو آنيـة البدو الفخارية وانتهاءً بسكاكين الجيب ذات النصول الأربعة، والتي يعتبر ظهورها للعيان مجدّداً بعد كل تلك الأزمنة أمراً مثيراً للدهشـة. وفي شـرق البلدة تداعت آبدة أثرية للسّـقوط بعد أن كانت مهددة به وتلقت أساسـاتها صدمة، لتنهار فوق رؤوس أربعة أشـخاص، كما سـمعتُ لدهشـتي، وترديهم قتلى. بيد أني لم أسـمع عن خسائر بشـرية أخرى كنتيجة مباشـرة للطوفـان. ولا بدّ أن تلفـاً كبيراً قد أصـاب كافة الممتلـكات القابلة للتلف في الطوابـق الأرضيـة من القنطرة السّـفلية مـن الوادي. برغم ذلك لـم أعد أسـمع سـوى القليل جداً من الشـكاوى حول الخسائر المتكبدة، باسـتثناء المتسوّلين والناس الذين لا يملكون شيئاً ليخسروه، الأمر الذي حدا بهم لاتخاذه حجّة وذريعة لأعذارهم.

في اليوم التالي عادت الأسـواق بنمطها القديم لتنبض بالحياة وكأن شـيئاً لـم يكن. لقد كان شعار الناس ها هنا «دع الأيام تفعل ما تشاء»، وبعدم مبالاتهم الإيجابية فإنهم بالـكاد تطرّقوا لأحداث اليوم السّـابق فـي أحاديثهم الصّباحيـة. كان الطين الذي لطّخ الحَـرَم قضيـة أخـرى، وكانـت أعداد أخرى مـن المتطوعيـن تعمل علـى إزالته، حتى أن بعـض الموسـرين من الحجّـاج كانوا يحملون سـلالاً أو معاول، يـداً بيد مع جنود الثكنات. وبالرّغم من أعداد العمال الكبيرة فقد استغرقت إزالة كل الطين العالق ثلاثة أيـام، ووُضع في الطرقات في الجوار على شـكل أكوام كبيرة تسـد الطريق. حتى تلك الأكوام تمت تسويتها بفعل الخطوات المتوالية عليها، لتترك جزءاً من الشوارع بارتفاع وانخفـاض متبايـن فلـم تسـتطع الجمال المضـيّ قدماً في سـفرها حتى اتخـذ الجنود الأسـباب لتسـوية قمم التلال الطينية. وبالرغم من ملاسة خُفّ الجمل، أستطيع القول بأنها لا تستطيع الانتقال لأعلى أو أسفل تلة بالغة الارتفاع.

بعـد عـدّة أيـام من الطوفـان، كانت الميـاه في الآبار حمئـة طينية، وفـي حال بقيت

ساكنة طوال الليل فلن يبقَ منها إلا نصفها حتى الصّباح. تغيّر طعم كل المياه في الآبار، فصارت تشبه ماء زمزم، وحتى زمزم نفسها باتت أسوأ في الطعم. بعد يومين على الحادثة كان ثمّة رطوبة في الجو، ولم يبدُ على قطع الخبز التي يتم وضعها على الرّفوف دون تغطية لبضع ساعات، أنها قد تعرّضت للشي، فأصبحت صلبة كالمعدن. يمكن تلخيص أسوأ نتائج الطوفان بالأمراض التي خلّفها وراءه، فقد انتشرت على إثره أوبئة الكوليرا والحصبة والتيفوئيد لما يقرب من ثلاثة أسابيع.

* * *

هنالك بَون شاسع في مراسم الدّفن عند المسلمين من بلد لآخر، وبالطبع فإنها تتفاوت بتفاوت الظروف والحالات. ففي مصر والشام على سبيل المثال يتجمّع الناس حول النعش ويبدأون بالصّراخ والعويل، أما في المناطق الصّحراوية فكل ما يفعلونه هو تمديد الميت في قبره وإهالة التراب فوق رأسه واضعين بضع أحجار فوق رأسه لتمييز القبر. وفي مكّة اعتاد الناس على الإتيان بالنعش إلى الحَرَم قرب حجر إبراهيم، علّ الرّوح تسري عبر باب الكعبة، ثم يصلّى عليه صلاة الظهيرة قبل دفن الجثمان تحت بضعة شجيرات وعلى عمق بضعة أقدام مع توجيه وجهه نحو الكعبة. فضلاً عن ذلك، فإن المسلمين لا يستخدمون النعش على الإطلاق. وبالرغم من طول الكفن والتفافه، فإنه يُصنع في بعض الأحيان من مواد ناعمة، واللون الأبيض هو المستخدم عادة في تلك المناسبات.

بعد ثلاثة أيام من الطوفان، بدا لي بأن عدد الوفيات في ازدياد مطّرد، وبعد ذلك بعشرة أيام، أصبح عدد الجنائز التي تمرّ بالحَرَم كبيراً إلى درجة بات معها حدثاً يومياً لمدة ساعة قبل الظهيرة، حتى أنني عددتُ في أحد الأيام ثلاثاً وستين جنازة.

إن تلك الأعداد المتزايدة لا تنمّ إلا عن كون غالبية المتوفين لا أصدقاء لهم، أو أنهم لا يستحقون عناء حملهم إلى الكعبة مروراً بالطريق إلى المقبرة. كان يمكن رؤية الرّجال المصابين بالكوليرا مستلقين على أطراف الشوارع، دون أن يمرّ بهم سامريٌّ طيب. أما بالنسبة للمصابين بالحصبة والتيفوئيد في كافة مراحل المرض، فكانوا

يتمشّون بين الناس، ولربما يداً بيد، دون أن يتجنّبهم أحد أو يرى فيهم على الأقل شيئاً غريباً أو مستهجناً. كان هنالك في أحد المنازل التي زرتها ثمانية أشخاص مصابون بالحصبة في نفس الوقت، توفي خمسة منهم، وبالرغم من ذلك فقد بقي خمسة رجال أصحّاء آخرين يعيشون معهم وينامون في نفس الغرفة!

وإن كان هنالك أي سبب لاستغرابنا كبريطانيين بشأن العدوى، فهو كيف استطاعت مكّة أن تقضي على الوباء، إذ أن ذلك يُعتبر بمثابة معجزة بكل معنى الكلمة. لم أفهم شيئاً تقريباً ممّا حدث، ولا أعرف لماذا بالضبط، ولكن لم تكن لدي أدنى مخاوف بالرّغم من توقعاتي باعتلال بعض أفراد مجموعتنا، إذ أن معظمنا كان محتشداً في الغرفتين، اللتين أصبحتا موبوءتين بشكل كبير. بالرّغم من ذلك، وبالرغم من احتكاكنا بالناس المصابين والمحيط الذي يعبق برائحة المرض باستهتار بالغ، فإن أحداً منا لم يصب إصابة مباشرة بالمرض. يرجع كل ذلك إلى التدابير والاحتياطات الفاعلة التي اتخذها الأمير والتي تتمثل في الرّقى والتعاويذ التي نشرها في كل مكان من المنزل، بصرف النظر عن تكلفتها المادية.

أما بالنسبة لي فقد ارتديتُ تعويذة في عنقي، لكنها فيما بعد تشابكت مع حبّات العقد الذي كنت أرتديه، لذلك قطعت حبلها ورميت بها. وقبل ذلك فتحتها لأرى ممَّ صنعت. لقد كانت عبارة عن كرة من شمع العسل، بحجم كريّة الرّصاص من عيار 12، مع لفافة ورق صغيرة داخلها كُتب عليها بعض الطلاسم، إلا أنها كانت ممزّقة لدرجة لم تعد ذات نفع. بدأ السّعي نحو المقابر يأخذ الحجيج خارج مكّة، ليقلّ ازدحام البلدة بالتدريج، وبدأ الحجّاج بالمغادرة بالألوف، أما نحن فقد شرعنا في الإعداد للرحيل في أول قافلة إلى المدينة.

قابلتُ «السيدة ڤينوس» لثلاث أو أربع مرات في الحَرَم، وتحادثت معها كلما سنحت الفرصة، حيث كانت لقاءاتنا تتراوح من مجرّد تبادل بضع كلمات خلال العجالة التي كنا نتقابل بها، إلى حديث قد يستغرق عشرة دقائق أثناء مشينا سوياً تحت الأروقة. سألتني مرة إن كان بحوزتي كتاب أو أي شيء آخر مطبوع بالإنكليزية، فكما

قالـت لـم يكن لديها من ذلك سـوى بضعة وريقات من تقويم قديـم، وجدتها يوماً في طريقهـا في مكّـة، واحتفظت بها لقراءتها مـن حين لآخر. أرتني في أحـد الأيام كنزها الثمين، والذي كان عبارة عن خمس صفحات، على كل صفحة تمت كتابة تقويم شهر منفصـل. لم أنتبه للسـنة، وإنما للأحداث التي كانـت الوريقات تؤرخ لها: «عيد تتويج الملكـة» و«ذكـرى معركة واترلو». بعد ذلك أعدتها لها بحـذر، قائلاً إنه لا بأس بقراءة تلك الوريقات في ظلّ الظروف الرّاهنة، ولا أعلم ما سيكون حالها إن حظيت بكتاب ذي قيمـة وأهميـة؛ يا لها من مسـكينة! لذلك مـا كان مني إلا أن كتبت لهـا بالإنكليزية اسـمي المسـيحي وعنوانـي علـى وريقـة زرقـاء وقدّمتها لها، لأسـمعها وهـي تقرأها مباشـرة. وأخبرتها إن كتبت رسالة واسـتطاعت تقديمها لأحد الحجّاج العائدين على متن إحدى السّفن، فإن تلك الرّسالة ستصل بالتأكيد إلى وجهتها.

لقـد كان يراودهـا بصيص أمل بأن تجد أحداً تسـتطيع أن تعوّل عليه وتثق به، أو من يمكنه عمل ذلك، أو حتى من يعد بذلك. في المرّة قبل الأخيرة التي قابلتُها فيها كانت تبدو غريبة الأطوار، بل بالأحرى كانت نوبة هسـتيرية تعتريها. لقد كانت تعيد وتكرّر: «إنك لا تعلم أيها الفتى ما يعني لي لقاؤك، ولا تحسـبنّ أني سأتسـبب لك بأي أذى أو ضرر»، لقد كانت توقفني متمسـكة بذراعي بانفعال كما لو كنا نتمشى سوياً، حتى أنني كنـت في كل لحظة أتوقع حدثاً مـا: إذ أن التعبير عن نصف تلك العواطف المتقدة في لندن سـيجعلنا محـلّ أنظار الجميع. حاولـتُ أن أظهر لا مبالاتي قـدر الإمكان، باذلاً جهـدي في تهدئتهـا، حتى خرجت أخيـراً عن طوري وقلـت لها: «هـل ترغبين بإثارة ضجّـة ولغـط حولنا؟» بعد ذلـك أخبرتها بأني سـألتقي بها يـوم مغادرتنا إلـى المدينة فـي حـال حافظت على هدوئها ووجـدت مكاناً يمكنني فيه لقاؤهـا وحدها. بعد ذلك أسـرعتُ إلى المنزل، إذ أنني سـمعت وبوضوح أحد الماكرين يتلفـظ بالكلمة النابية: «نصراني!».

نظراً لرحلتنا إلى المدينة، بدأ الأمير بتقليل عدد حاشـيته وأتباعه، مسـرّحاً عدداً من الحـراس الطفيليـن الذين لا عمل لهـم ولا فائدة ترتجى من ورائهـم، والذين فرضوا

أنفسهم علينا بحجّة أو بأخرى. مع ذلك فقد استفدنا كثيراً من أولئك العالة والطفيليين، إذ أنهم كانوا مستعدّين لعمل أي شيء مقابل مردود ضئيل كانوا يتسوّلونه أو يسرقونه. كانوا لا يقاومون إغراء الأحذية الجديدة، حيث كانوا يخطئون - بشكل مقصود - بين أحذيتهم وأحذية غيرهم، داسّين أقدامهم في أفضل زوج على عتبة باب المنزل (حيث يتم ترك كافة الأحذية).

لقد كان حذائي من النوع الذي يروق لهم بشكل خاص، لذلك فقد فقدتُ زوجاً بعد وصولي إلى مكّة بقليل. وفي حال استمرّت الأمور على هذا المنوال فستكون كارثة، لذلك اضطررت لاتخاذ خطوات دفاع ذاتي كلما تغيّر حذائي، متمثلة بانتعال حذائي القديم وقيامي بزيارة كلما نمي إلى علمي اجتماع حشد من الناس، ثم المغادرة باكراً وانتعال حذاء آخر جديد غير الذي قدمت به. لذلك فنادراً ما كنت أرتدي زوج الأحذية نفسه لأكثر من أسبوعين. لقد كان حذائي عبارة عن خفّ أحمر جلدي دون رباط، معقوف نحو الأعلى من ناحية الأصابع، ومهترئ من الناحية الخلفية، ولم تكن هنالك من مشكلة في ملاءمته لقياس القدم في حال كان كبيراً نوعاً ما. تخلّيت عن ارتداء الصّندل الذي اعتدت على ارتدائه في البداية، وذلك بسبب اتساخ قدمي البالغ، وتعرضهما للتشوه إن استمرّيت على نفس المنوال، حيث يصعب عليّ حينها العودة إلى نمط الأحذية الأوروبي.

لقد كانت بعض الآمال تراودني في ذلك الوقت بأن يعطيني الأمير حرّيتي وحفنة دولارات، كما كان يفعل مع الآخرين. لم يخطر على بالي أبداً احتمال عدم وقوع ذلك، فقد كان يبدو عليه نسيان وجودي منذ عدنا من عرفات، إذ أنني بقيت طول الطريق بعيداً عن الأنظار، ولم أكن أدخل سوى لتناول الطعام والنوم، دون أن أظهر بمظهر المفيد أو المسلّي للأمير. كما أن بعضاً من أصحابي كانوا يتناقلون قصة مفادها أنني كنت أحاول الالتحاق بعساكر السّلطان. والحقيقة أن بعضاً من الملالي المتعصبين جمعوا ما يقرب من أربعمئة رجل للذهاب إلى تركية وقتال الرّوس، من خلال الإعلان عن الجهاد وادّعاء حدوث معجزات في حال قاتلنا بالسّيوف فقط، وجدنا بأرواحنا على الرّحب والسعة.

ثم قمتُ بالانضمام لمجموعة ذلك الملاّ على أمل الفرار معه. ولكن عندما أبدت السّلطات التركية رفضها القاطع لتلك المغامرة، ولم يُظهر الحجّاج الحماسة المطلوبة، افتقرت الخطة للأموال اللازمة لحملنا إلى ساحة الجهاد النائية. علمتُ بعد ذلك بأنه عند اندلاع شرارة الحرب بين الدّولة العثمانية التركية وروسيا، قام پاشا مكّة بفتح باب التطوع الذي تداعى له ثلاثة آلاف من الرّجال الذين يفتقرون إلى التدريب على القتال. لذلك تم إخضاعهم جميعاً لدورة تدريبية. وعند تلقي الأوامر من القسطنطينية التي كانت تفيد بشكر وامتنان السّلطان من عرضهم الذي قدموه، وأنه لا داعي للتضحية بأرواحهم، ولكن يكفي التبرّع بأموالهم، لم تتمّ الاستجابة لتلك الدعوة على الوجه المطلوب، حسب علمي. وباعتقادي فإن شائعات تركية قد سَرَت في الخارج على الأغلب، الأمر الذي كاد يتسبب بإشعال فتيل حرب أخرى. وعلى الأغلب فإن ذلك قد حدث بعد الحجّ تماماً، على الرّغم من أن الحديث الوحيد الذي سمعته عن ذلك كان «بعون الله سينتصر الأمير»، ولم يتمّ بعدها إيلاء أهمية كبرى للموضوع.

لقد تركت تلك الشائعات عن انخراطي في الجيش التركي تسري دون أدنى اعتراض منّي، وذلك كنوع لمعرفة شعور الأمير حيال ذلك (مع أني لا أعلم فيما إذا قد سمع بها أم لا، إلا أني أكاد أجزم أنه قد فعل). بعد ذلك أبطلت كل الشائعات. لاحظت أن كل صحبي قد أخذوا قسطاً من الرّاحة جانباً متظاهرين بمعاناتهم مما أسموه «حمّى برد»، وهي التسمية الأخرى لنوبة تعاطي الأفيون. لم يسبق بالنسبة لي تعاطي جرعة من الأفيون التي كانت أعراضها معروفة تماماً عند أصحابي، لذلك فإن الاستسلام لتأثيره سيقعدني عن الحركة، ويصيبني بحمى برد، لن يكون بمقدورهم شفاؤها. تمدّدتُ على فراشي، وأحجمتُ عن تناول طعامي، ولم أنم طوال اليوم، لأكفّ شرّي عن الآخرين الذين لم يكفّوا شرّهم عن غيرهم. وبالمناسبة فإن إحجامي عن تناول وجباتي المعتادة لم يكن ذا شأن بالنسبة لي البتة، إذ أنني قد مللتُ منها حتى أنني لم أعد أتناول شيئاً بشهية، وكنت أتوق إلى شريحة من الخبز الأبيض أو لحم البقر المقدّد بلهفة الذي يتضور جوعاً للطعام.

في ذلك الوقت كانت تحضيراتنا للطريق تجري على قدم وساق، حيث كنا نعمل على إعداد الكثير من صفائح المربّى (دون أن أمدّ لهم يد العون في تلك العملية)، وننظف ونلمع أسلحتنا. كم كنت أغتاظ من داكني البشرة أولئك، هم وأسلحتهم! فمنذ أربعة أشهر مضت كانت حركاتهم البشرية تدهشني، أما الآن فعندما وضع الأمير[1] الحربة في نهاية البندقية واستعرض مهارته في استخدامها متمايلاً يمنةً ويسرةً، متظاهراً بوجود عدو له أعلى شجرة جوز هند أو في منطاد، اعترتني رغبة جامحة في القفز وانتزاع البندقية من يده، ضارباً إياه بعقبها، حتى يؤدي أمامنا مشهداً هزلياً آخر، ومجبراً بقية الآخرين على إنشاد «ليحفظ الله الملكة» تحت قوة التهديد بالحربة. لو أني شرحت للجميع بأن خمس جولات في خمس عشر دقيقة لا تعتبر تدريباً جاداً بواسطة مارتيني - هنري، لأُخبرت أني لا أعلم شيئاً عن ذلك، ولتعطف الأمير حينها مفسراً تصرف عقب البندقية بأنه «اختراع للسّلطان التركي لفائدة الرّوس»، كما يدعوه.

لقد عشتُ ردحاً من الزمن مع أولئك القوم كواحد منهم، حتى أنني وصلت لمرحلة صرت فيها أمتعض من كل ما يمتّ لداكني البشرة بصلة. وقد حان الوقت الآن للخروج من ذلك الجو ولا أعتقد أنني مخطئ في ذلك. إن أسلحتهم بغاية الخطورة لمجرّد النظر إليها فكيف باستعمالها؟! خذ السّيف[2] على سبيل المثال، ترى أن النصال محدّبة للغاية، وتتميز باتزان سيء، حتى أنها أثناء الاستخدام تحتاج لنصف انتباهك لئلا تنقلب في اليد. وتشبه مقابضها مقابض الأبواب النحاسية القديمة، أو مقابض مقطعات الورق، وكانت بحجمها يكفي للإمساك بها ثلاثة أصابع، أما فكرة سنّ الرّؤوس فلم تكن قد خطرت بعد على بال حدّادي السّيوف في الشرق. أما بالنسبة لبقية الأسلحة العجيبة الغريبة، فيمكن رؤية مجموعة مشابهة منها في أي متحف للأدوات القديمة.

إن السّلاح الوحيد ذا الأهمية منها هو الخنجر العربي أو الجنبية والذي يحمله أكثر

---

(1) يستفيض كين بذكر هذا الأمير الهندي الذي سافر ضمن حاشيته، دون أن يسمّيه لنا.

(2) لا يمكن الوثوق إلا بالسّيوف الهندية فقط، وهي قريبة الشبه بالسيوف العجمية. (كين)

أفـراد مجموعتنا. تختلف صناعـة الجنبيّة في بعض أجزائها باختـلاف مناطق العرب، حيـث تُعرف بأسـماء المناطق التي يتم استيحاء شـكلها منها. إن الجنبيّـة المكّيّة هي أعرضها وأكثرها انحناءً، أما جنبية مَسقَط فهي تقريباً مستقيمة الشكل، وبنصف عرض نظيرتها المكية. ومعدن الجنبيّة بمنتهى النعومة ويتم صقله بواسطة طرق الحواف على البارد فوق سندان صغير يتم تصنيعه لهذا الغرض فقط، حيث يعتبر صقل الجنبيّة حرفة في حدّ ذاته. تمنح تلك العملية الخنجر أفضل حدّ أعرفه لحلاقة اللحى والشعر، مع أنه بالطبع لا أثر له عند استخدامه مع الأجسـام الصّلبة. وباستخدام خنجر جنبية مصقول حديثاً يمكن قطع جلد خروف ملفوف على بعضه بضربة واحدة.

فـي ذلـك الوقت في حال تعطلت أيّة بندقية فلن أقـوم بإصلاحها، لذلك أنه بالرغم من ازدرائهم لجهلي بشـكل عام، فإنني أثبتُّ جدارة بصفة ميكانيكي. لقد كنتُ مريضاً جداً حتى أنني لم أستطع الصّلاة، وإذا فعلت فإنني سأتيمّم، أي سأتوضأ دون استخدام ماء، الأمر الذي يُسمح به للمرضى مرضاً شديداً، أو عند فقد المياه. لقد استلقيتُ على فراشي ليل نهار، بالكاد أستطيع حديثاً لأحد ما، لكني كنتُ مهتماً بكل ما يجري حولي بالغ الاهتمام. كانت قصص السّرقة والمذابح التي تُرتكب بواسطة البدو تروى كل يوم بواسـطة أصدقـاء دمثين لـم يكونوا من مرافقينا. بالإضافـة إلى ذلك، فإن قصصاً طويلة عن مغامرات الصّحراء القديمة كانت تروى بواسـطة بعض الزوار الذين جاؤوا ليلهوا معنا، الأمر الذي كان يضع الأمير لنصف ساعة في جوٍ من البكاء والدّعاء، ليظهر على السّـاحة بعد ذلك «شيخ البؤسِن» (وهو نفسـه الذي كان دليلنا إلى عرفات)، ليفاوضنا ويرتـب شـئون حصولنا على عـدد الجمال المطلـوب، وليبدأ بعد ذلـك أعمام الأمير وأقاربه الذين يشـكّلون حاشـيته بالابتسـام والتملّق للشيخ الذي سـيخضعون لرحمته شهراً كاملاً في الصّحراء، وليعمدوا إلى انتقاده وذمّه وسائر قومه بعد رحيله.

كان بعـض مـن مجموعتنـا، ومـن بينهـم أول المحاربيـن، يخشـون خـوض غمار الصّحـراء نحو المدينة، وكانوا يتخذون الأسـباب لإقناع الأمير بإرسـالهم إلى وطنهم الهنـد مـع البضائع التي اشـتراها وكافة الأمتعـة التي لـم يكن بمقـدوره حملها معه عبر

الصّحراء. علاوة على ذلك، فإن رسائله إلى الهند ستحملها أيدٍ أمينة إلى هناك. اتفقوا علـى ذلـك ليقرّر الأمير تركهم يذهبـون إلى الهند. لقد كنت أفهم تمامـاً رغبته العارمة للتواصـل مـع أصدقائه، ذلك لأنه هـو وكل جماعته يدركون مخاطـر المهمّة التي هم مقبلـون عليها، حتـى أنا، مع أنني بالتأكيد لا ألقي بالاً لكل تلك المخاطر، وأشـكّ في حسـابات الهنـود المبالغ بها مقابل ما أعتقد بأنه فوائـد مقابلة، كنت أرغب بترك بعض الآثار خلفي قبل قطع مئات الأميال في جزيرة العرب.

بعد أن تمّ إنهاء آخر ترتيبات الأمير تلك، اتّبعتُ خطة أخرى، كان يبدو بأنها ستؤتي ثمارهـا علـى أتم وجه. لقد أخبـرتُ أول المحاربين أنه في حال قـرّر الأمير الاحتفاظ بخدماتـي، فإننـي أرغب في الحال في الذهاب إلى الهند لأنتظر عودته هنالك دون أيّ أجر أو مقابل، لكنه حين يعود فإني سـأصرّ أولاً على السّداد. وسأفسّر لهم موقفي بأنه بالرّغم من رغبتي العارمة باختتام حجّي بزيارة قبر رسول الله، فإنني الآن بغاية المرض حتى أنني سأصبح عبئاً على الأمير في حال سفري معه.

وكمـا توقعـت، فقد نما ذلك على الفور إلى سـمع الأمير، ودعاني إلى مجلسـه في مساء نفس اليوم وسألني فيما إذا كنت أفضّل الذهاب إلى المدينة أو العودة إلى الهند. لم يبدُ عليه الغضب بسـبب تلك القصّة، لذلك، وبعد بيان الأسباب والدّواعي، طلبتُ منـه السّـماح لي بـأن أعطيـه جوابي قبل يوم مـن الانطـلاق، عند تثبيت عـدد الجمال المطلـوب، وعندما أكون بحال أفضل إن شـاء الله للذهاب معه إلـى المدينة المنوّرة؛ وفي حال لم يتم ذلك، فسأرضى بمشيئة الله وقدره. «لك ذلك» قال لي الأمير، لأتخيل نفسي على الفور أتناول البيض واللحم المقدّد في بيت بحّار في بومباي.

عندما حان وقت تقديم إجابتي، أخبرتُ الأمير بأن حالي يزداد سـوءاً، إذ أني أشـعر بجفـاف دمي، وتعرّق رأسـي، وارتباك معدتي، وخوار قـواي، ولكن بعون الله، حالما أصبـح فـي بيته «البوابة الماسـيّة»، فإن هواءه النقـي وماءه العذب سـيردّان لي الرّوح؛ صحيح أن مكّة هي مدينة الخير والبركة، إنها هبة السّماء التي أتت في وقتها، وماؤها هو الخمر الحلال وهواؤها عبقٌ من ريح الجنة، فإنني أخشى كوني كثير الذنوب والخطايا

لأستخلص فوائد كل تلك الأعطيات العظيمة، ويبدو أن مناخ الهند سيلائمني أكثر. لم يكن من الأمير إلا أن قاطع تملقي وتزلفي قائلاً: «حسناً، ستذهب إلى «البوابة الماسية»»، لذلك كان علي الاستمرار في لعب الدّور الذي تقمصته جيداً، والتعبير عن الحزن والأسى والعودة إلى فراشي بمزيد من اللهفة.

في ظهيرة اليوم التالي، ذهب الأمير هو وكل جماعته خارج مكّة، وبالتّحديد إلى «وادي فاطمة»، حيث كان على قافلة المدينة أن تتجمّع قبل الانطلاق. وهناك كانت السّيول العارمة تفصل بيننا، مع أنه كان علينا تسلم الكثير من الرّسائل إلى أهلهم وأصحابهم في الهند في حال ذهبنا هناك. لقد شعرتُ أنني أبتعد عنهم وأننا لن نجتمع بعد ذلك، مع أنهم كانوا يثقون بي، لذلك كان عليّ القول بأن قدراً كبيراً من الأسف يغشاني. لقد كنت آسفاً لفقدي ثالث المحاربين، الذي نمت بيني وبينه أواصر صداقة وثيقة. وقد كان من المفترض أن ننطلق في نفس المساء نحو جدّة. حزمتُ أمتعتي على الفور، والتي لم تكن بذلك الحجم الكبير. والآن بما أني قد أتممت تجهيزاتي، أعتقد أنه لا ضير في أن أخرج وأقوم بشراء بعض التحف والهدايا التذكارية، كما فعل أصحابي.

هذا ما أخبرتُ به أول المحاربين، ولكن بالطبع ذهبتُ في الحال إلى الحَرَم للقاء السّيدة ڤينوس كما تواعدت معها. عندما وصلت هناك، لم أكد أمكث طويلاً حتى جاءت، وذهبنا سوياً كما كنا نفعل في كل مرة. في هذه المرّة تمشينا لما يقرب من الميلين على طريق مِنى، إلى منزل رجل عربي. دخلت السّيدة ڤينوس وبعد ذلك خرجت لتخبرني بأن الرّجل قد خيّب أملها وبأنه لم يكن في البيت، ونظراً لوجود النساء فقط في البيت، لم يُسمح لي بالدخول. لقد كان ذلك بالفعل خيبة أمل وكانت السّيدة ڤينوس المسكينة بغاية الأسى. مع ذلك تمشينا معاً عبر التلال، وكنا نسير بسرعة كما لو كنا نقصد مكاناً بعينه، بغرض لقاء وحديث.

لقد حدّثتُها بما جرى معي ذلك اليوم، وبالحظ الذي واتاني في الفرار، وطلبت منها رأيها الصّريح إن كانت ستأتي معي إلى إنكلترا في حال أتيتها لنذهب سوياً، فأجابت

على الفور: «نعم» بلهجة صبي صغير تطلب منه سيدة أن يأكل قطعة من الحلوى. لقد قلت لها: «بما أنك تتقنين العديد من اللغات فبإمكانك تدبّر أمورك المعيشية في إنكلترا». ذكرت لها خبر «المنزل الآسيوي» "Asiatic Home"، دون أن ألمح لها بأني أعلم شيئاً عنه، لكن خطر في بالي في تلك اللحظة بأنه مكان مناسب يمكن أن تجد فيه عملاً. كما أخبرتها بأن هنالك العديد من الأغنياء في إنكلترا، الذين سيقومون في الحال، فور علمهم بوجودها، بتقديم المال أو وسائل تحريرها، فأجابت: «ما هذه اللهجة التي تتحدث بها؟!!» (لقد أسفرت الأحداث عن الطريقة التي أتحدث بها. نعم لقد كنت أخشى من كوني قد تجاوزت الحدّ بالتفاؤل)، وهكذا دواليك؛ أعدها بأن تكون في إنكلترا في أقل من عام، وهي تشكّ في فرص تحقيق ذلك حتى رجعنا إلى الحَرَم.

وهناك اعترتها نفس اللهفة التي تملكتها آخر مرة، وتصرفت بنفس التصرفات الغبية (وأخجل أن أقول هذا) حتى أني شككتُ في أمرها وتذكرت مصير الرّجل الفرنسي. لقد ودّعتُها ثلاث مرات قائلاً: «السلام عليكم»، وتركتُها، إلا أنها تبعتني إلى بوابة الحَرَم، حيث كان علي العودة والحديث معها قائلاً بأن الناس قد لاحظوا سلوكها الغريب. في المرة الأخيرة التي عُدت فيها عملتُ على اقتيادها إلى الاتجاه المعاكس للحَرَم، قائلاً لها بعد ذلك: «الوداع» وهرعتُ من إحدى البوابات القريبة. بُعيد خروجي رمقتها بنظرة لأرى أنها تجلس مستندة إلى أحد الأعمدة ويقف حولها عدد من الصّبية ينظرون إليها. لقد كانت تلك المرّة الأخيرة التي أرى فيها «السيدة ڤينوس».

حالما وصلت منزلنا وتجاوزت الباب الخارجي، سمعت أول المحاربين في الغرفة الداخلية يرفع صوته بالاحتجاج بأن الأمر الذي ظنوه جُبناً منه لم يكن كذلك. بعد ذلك قابلت «شيخ البؤسِن» وهو خارج، حيث أخبرني بأنه قد أتى برسالة من الأمير يدعوني فيها مجدّداً أنا وأول المحاربين للذهاب معه إلى المدينة. لو أتت تلك الرّسالة بعد نصف ساعة فستكون قد تأخرت كثيراً. كان أول شيء قمتُ به هو العودة جرياً إلى الخارج حيث تركتُ السّيدة ڤينوس لأخبرها بما حدث، ولأرى إن لم يكن

بمقدورها مساعدتي. لكني عندما وصلت للمكان الذي رأيتُها فيه لآخر مرة كانت قد رحلت. نظرتُ إلى الشوارع المزدحمة لكني لم أستطع أن أرى أثراً لها. وتساءلت: ماذا سأعمل الآن؟ لقد تضاءلت فرصتي بالفرار في آخر لحظة بسبب نزوة أحد داكني البشرة! لقد كنت فظاً همجياً.

إن إحدى القواعد التي يتبعها المدخّنون هو اللجوء للغليون كلما امتعض أحدهم. لذلك لم يكن منّي إلا أن عبرتُ أحد الشوارع باتجاه مقهىً صغير، وطلبت نرجيلة وجلست أفكر وأتبصّر في الأمور. عند السّحبة الثالثة وجدتُ نفسي أضحك وحدي ضحكات هيستيرية، وعندما أنهيتُ تدخين نرجيلتي قرّرت الانطلاق نحو جدّة والفرار بواسطة الحمير. إن كان العرب يقومون بذلك، فلمَ لا أفعل أنا؟ مع أنني لم أكن بوضع مناسب لقطع خمسين ميلاً في اثنتي عشرة ساعة. بعد ذلك ذهبتُ إلى الحَرَم وتمشّيت حول الفناء وغيّرت ما كنت قد اتخذته من قرار. فكّرت بأنه يجب علي أن أشاهد قبر محمّد، وشهران آخران لن يضيراني، إلا أنني اتخذت قراراً مغايراً مجدّداً، فقد شعرتُ كم سئمت من التفكير بذلك، وبأني شاهدت ما يكفي من المشاهد. لذلك كان قراري الأخير الذهاب إلى جدّة ولاشيءسواها.

عندما ذهبتُ إلى أقرب بوابات الحَرَم من منزلنا، نزعتُ حقيبتي الصّغيرة التي كنت أعلقها حول عنقي لأتحقق من نقودي التي كانت تبلغ دولاراً وأربعة سنتات. أوحى لي الدّولار بإجراء قرعة، حيث سيكون جهة الطير لجدّة، والرّاحة، والنقاهة، ووجبة طعام، أما الجهة الأخرى وهي القلنسوة فستكون للمدينة المنوّرة، وقبر الرّسول محمّد، ومكابدة مشاق السّفر. رميت بالدولار لأول مرة فإذا بالقرعة ترسو على طرف القلنسوة. لكن لا بدّ من رميتين في ثلاث مرات؛ رميتُ به أخرى فإذا به الطير. ظن الناس في الجوار أن مسّاً من الجنون أصابني، لذلك ابتعدت قليلاً ورميتُ بالدّولار على الرّصيف فإذا به قلنسوة. إنها المدينة إذن.

والآن يا قارئي العزيز، عليّ أن أتركك وأعباءك قليلاً فيما حضر. فقد أصبحت

بقيّـة رحلتـي في الحجـاز واحدة من أغرب المغامرات التي تردّدتُ في أن أنشـر شـيئاً عنها، ولكن في حال اسـتجمعتُ قواي لعمل ذلك، فإني أعدُك بأني سـأقدّم لك رواية عـن قصة فرار تمّ بغاية الصّعوبة، وعن حوادث كانت أشـبه بالخيال حتى بالنسـبة لي، أنا الذي عشـت حيـاة مُفعمة بالمغامرات مُـذ كنت في الثانية عشـرة من عمري وحتى الخامسة والعشرين، في كل زاوية من زوايا المعمورة.



خاتمة

«السيدة ڤينوس»

لقد احتفظتُ بمخطوط الرّواية المعدّ للنشر للثمانية أشهر الأخيرة على أمل أن أتمكّن من إضافة قصة السّيدة ڤينوس كخاتمة، أو على الأقل لكي أتمكن من تأكيد تحرّرها للقارئ. لكنني الآن لا أكاد ألمح بصيص أمل في إماطة اللثام عن قصّتها لأنها من النوع الذي يجب أن يحظى ببالغ التركيز عند روايتها.

لقد حظيت السّيدة ڤينوس بفرصة للفرار، لكنها رفضت أن تستغلّها، بحيث لم يعد هنالك ما يمكن فعله من جانبها، وأعتقد بأن القارئ سيطلع أولاً بأول عن كل ما تمّ القيام به لأجل تحريرها من أسرها.

عند عودتي إلى إنكلترا، في شتاء عام 1878، رويت قصتي لعدد من السّادة الذين أقاموا لمدة من الزمن في الهند، أو مَن كانوا رحالة معروفين في الشرق، والذين من خلالهم تم إيصال خبر وجود امرأة إنكليزية في مكّة إلى الجهات الحكومية. بعد ذلك أرسلت وزارة الخارجية تعليماتها إلى القنصل في جدّة لإرسال أحد المسلمين إلى مكّة وإجراء تحقيق عن الأسيرة المذكورة. وبعد إجراء التحقيق إياه تبيّن لهم صحّة تقاريري عن وجودها وموقعها، لكنها كانت قد غادرت قبل ذلك بوقت قصير نحو الهند، برفقة العائلة التي كانت تعيش معها في مكّة. وبما أنها الآن باتت خارج نطاق سلطة القنصلية البريطانية، فقد أنيطت مهمة البحث عنها بمكتب الخارجية البريطانية في الهند، الذي باشر إجراء التحقيقات المطلوبة، ليتم إيجاد أثر لها في الهند والعثور عليها أخيراً.

حتى لو كانت سيدة إنكليزية فعلاً، فإنها الآن في ظل الظروف القاسية التي مرّت بها وكل الحزن والأسى الذي عانت منه لا ترغب بالكشف عن هويتها الحقيقية، مما يدعو إلى الشك بأمرها. لذلك فإن القاضي الإنكليزي الذي أجرى حديثاً لمدة ساعتين مع تلك السّيدة لم يقتنع تماماً بكافة التفاصيل التي روتها له. وعندما سنحت لي الفرصة لقراءة الرّسالة شبه الرّسمية لذلك القاضي حول ذلك الموضوع، فإني آمل ألا أكون قد تجاوزت حدودي بنقل العبارات التالية منها:

«تقرير شبه رسمي، من قاضي المنطقة التي تم إيجاد السّيدة فيها إلى السّلطات الخارجية البريطانية.

لقد عملتُ بناءً على اقتراحكم وتابعتُ التحقيقات من خلال زوجتي، لكن المقابلة المنشودة قد تأجلت لسبب أو لآخر، لذلك أرسلت باستدعاء محمّد______ بنفسي بتاريخ الثالث والعشرين من الشهر الحالي د______، والذي يبعد عني ما يقرب من أربعة وعشرين ميلاً، وقد أتاني في اليوم التالي. لقد أخبرته في الحال بما سمعته عن امرأة إنكليزية تحت الحماية، إن كان الحال كذلك فإني أطلب مقابلة بينها وبين زوجتي. لقد اعترف لي بالحقيقة صراحةً، وبالرّغم من قوله إنه لا يعرف شيئاً عنها فإنه لم يعترض على مجيئها إلى المركز وإجراء حديث مع زوجتي. لذلك، تمّ تحديد موعد في السّاعة التاسعة من الليلة الماضية، حيث أتت السّيدة حسب الاتفاق إلى منزلي وأجرت حديثاً سرياً مع زوجتي لمدة تربو على السّاعتين.

«وإنني أدرج لكم فيما يلي خلاصة قصّة تلك السّيدة. ليس هنالك من شك بأن هذه السّيدة هي التي ذكرها السّيد كين، لأنه باستثناء النقطة التي تُنكرها فيما يلي، وهي أنها امرأة إنكليزية تم خطفها من أصدقائها خلال ثورة، وأجبرت على اعتناق الإسلام والزواج من خاطفها، فإن كافة النقاط والمواصفات الأخرى التي ذكرها السّيد كين موجودة فيها. وبما أني احتفظت بكافة المراسلات مختومة وبعيدة عن أعين الناس، فمن المستحيل أن تختلق قصة وتخبرني بها. علاوة على ذلك، بما أنها قد باحت بأسرارها دون أي تحفّظ، فلا يمكن الشك بحقيقة قصتها، اللهم باستثناء الجزئية

التـي أنكرتها والتي قد تكون خجلة من الإفصـاح عنها، لذلك فقد تنصّلت منها خلال حديثها مع زوجتي.

«تتلخـص حقائق وأحـداث قصتها بأنها قد ذهبت إلى مكّة بُعيد الثورة التي وقعت، وأن زوجهـا توفـي هنالك، أو خـلال الثورة، منذ ما يقرب من سـبع أو ثماني سـنوات مضـت. أخذت تحصل على عيشـها مـن بعض أشـغال الحياكة، وكانت علـى الدّوام تُعرف بأنها سـيدة إنكليزية. إنها تتحدث الهندية (أو الهندوستانية) والعربية، واعتادت ترجمة الرّسـائل الإنكليزية للتجّار المحليين. لقد كانت في العقد الخامس من عمرها (في الخامسة والأربعين ربما)، وقد عاشت تحت ظروف شديدة في مكّة. ويبدو عليها أنهـا امـرأة إنكليزيـة مثقفة وراقية. لقد عاشـت في مكّـة، في منزل محمّـد ______. وقد قابلت الكثير من الأوروبيين في مكّة. حيث كانت تُعرف في مكّة كسـيدة إنكليزية اعتنقت الإسلام.

«أخيـراً، كوّن السّـيد كيـن انطباعاً عنـا بأنها أوروبيـة، رغم تحوّل لون بشـرتها إلى البرونـزي لكثـرة التعرّض إلى الشـمس، لقـد كوّن تلـك الفكرة عنها مـن خلال نظرة خاطفـة إلـى وجههـا بعدما رفعـت البرقع وصافحتـه مودّعة عنـد الرّحيـل، كما قالت لزوجتـي التـي أجـرت معها لقاءً خاصـاً جداً، على اعتبـار أنها تتمتـع بمظهر لا يوحي بشـيء بقـدر مـا يوحـي بكونها نسـخة عن سـيدة راقيـة. كان وجه تلـك السّـيدة ينبئ باسـتمرار ودون تحفظ عن صعوبة إن لم يكن اسـتحالة تصديقها بأنها سيدة إنكليزية، برغـم أنهـا كانت تنقل ذلك الانطباع عن نفسـها إلـى الآخرين. كانـت لهجتها نوعاً ما هندية شرقية، بل كانت تتحدث الإنكليزية بطلاقة وعفوية بحيث لا يمكن تصديق أنها قـد تعلّمـت اللغة الإنكليزية تعلماً بل نشـأت معها كلغتهـا الأم. وفي حال تمكنت من الحديـث معها لخمس دقائق لكنت اكتشـفت تماماً جنسـيتها الأصلية، لكنني وعدت محمّـداً ______ بأننـي لـن أراها، حتى أنهـا أيضاً أحجمت عن رؤيتـي، وهو اقتراح قدّمته زوجتي لها لغرض تسوية الموضوع.

«لتكـن مـن كانت، فقد كانـت مقتنعة تمامـاً بوضعها وشـخصيتها الحاليـة. إنها لا

تعيش تحت أية ضغوط من أي نوع، باستثناء تلك المفروضة على امرأة من بنات دينها وبلدها (على افتراض أنها من أهل تلك البلاد)، ولا يوجد ما تشتكي منه؛ وليس لديها أي أصدقاء أو أقرباء بحسب روايتها، وكانت تعامل من قبل عائلة محمّد كمرافق لا كواحد ممن تعولهم العائلة.

«إن انطباعي عنها أن والدها (وتقول إنها لا تعرف شيئاً عنه، ولم تخبرها أمها شيئاً عنه)، قد يكون سيداً إنكليزياً، وأمها، كما تقول، من كشمير؛ وقد نشأت على تكلم الإنكليزية منذ نعومة أظفارها، دون أن تتطرق لذلك حسب روايتها، حتى وقت الثورة، حيث تم أخذها لمكّة، بعد تقلبات في الظروف المحيطة بقيت النساء فيها يغطين وجوههن بالنقاب (مع أن روايتها للأحداث كانت على عكس ذلك)، وبقيت في مكّة منذ ذلك الحين حتى بداية هذا العام (1879).

«ويمكن القول بأن السّيد محمّد، باستثناء قيامه بمنع زوجتي من لقاء ڤينوس لمرتين أو ثلاث، وقد يكون لسيدات عائلته ضلع في ذلك، قد قدم كل مساعدة ضمن صلاحياته. إنني أصدق ما قاله بأنه لم يتحدث مع السّيدة حتى طلبت منه تقديمها لزوجتي، وأن كل ما يعرفه عنها هو أن السّيدة شاهزادي كانت مربية لها، وكانت تدعوها بالفرنجية في مكّة، وبالسيدة الإنكليزية في هذه البلاد. إنني بالتأكيد لم أتطفل على خصوصية العائلة بأي حال من الأحوال، وإن السّيدة المذكورة، حسب إجماع الرّوايات، لم يكن لها أية علاقة بهم. لكن الحقيقة هي أن تلك السّيدة التي تم استدعاؤها قد أخافت العائلة، ورجاني السّيد محمّد هذا الصّباح بأن أتولى مسؤولية تلك السّيدة، التي عرضته إقامتها معهم للشبهة. لقد أخبرته أنه لا داعي على الإطلاق لأي توتر أو خوف على صعيد عائلته، لأنه قد قام بكل ما طلب منه، وقد طلبت منه أن تستمر السّيدة بحياتها معه كما كانت لسنوات عديدة، الأمر الذي وافق عليه في الوقت الحالي على الأقل.

بشـرة زيتونيـة فاتحة، مـع عينين بلون فاتح أيضاً، وطول وقوام متوسـطين، وشـعر قصير وسـميك، ووجه تركت عليه الحصبة آثـاراً. تتمتع بهدوء ورباطة جأش، ومظهر عام يوحي بأنها نسـخة مصغرة عن سـيدة نبيلة. تتحدث الإنكليزية بطلاقة مقبولة، مع لهجة هندية شـرقية. تتحدث وتكتب بالعربية والإنكليزية، وشاع بأنها تتحدث الهندية ولكن بلهجة غريبة نوعاً ما، وهي في حوالي الخامسة والأربعين من عمرها.

إمـا أن تكون روايتها الحالية صحيحة أو كما يعتقد البعض، أنه بعد أحداث أسـرها الحزينـة والكئيبـة، وكل الإذلال والإهانـات التـي تعرّضـت لهـا لما يربو عن خمسـة وعشرين عاماً، فضلاً عن الشكوك التي راودتها بخصوص إيجاد وطن ومصدر عيش، فقـد فضّلت أن تعيش في عزلة وغموض. وإن لـم تكن إنكليزية الأصل فمن الصّعوبة بمـكان تبرير لهجتها الإنكليزية المتقنة التي بقيت بمنأى عنها خمسـة وعشـرين عاماً، فضلاً عن شكلها ومظهرها.

على كل حال، فقد وفيت بوعدي الذي قطعته لها في مكّة.

- النهاية -

رحلتي إلى المدينة

مقدمة

فـي ختـام روايتي عن الحجّ الإسـلامي إلى مكّة، في عملي «سـتة أشـهر في مكّة»، وعدتُ بأن أتابع رواية رحلاتي في بلاد الحجاز، فيما لو لاقى عملي الاستحسـان من الناس. يسعدني القول بأن الكتاب قد استُقبل بترحاب كبير، ولذلك أفي بوعدي الآن، وأنشر القصة التالية حول رحلتي إلى المدينة.

أعتقد أن سلسـلة المغامرات غير الاعتيادية التي صادفتها سـتعوّض بتشـويقها عما قـد يعتري الكتاب من نقص في المعلومات. ومن أجل مصداقية الرّواية، أورد اسـمي وعقيدتي.

جون ف. كين (الحاج محمّد أمين).

رحلتي إلى المدينة

الفصل الأول

الرحيل من مكّة

أقدّم لكم نفسي، استكمالاً للحديث عن مرحلة «الستة أشهر في مكّة»، كشخص أمضى بضعة أشهر متقمصاً شخصية مسلم يعمل كخادم لأحد الهنود الأغنياء والذي يعرف بِـ«الأمير». أنا الآن على وشك مصاحبته في زيارة إلى المدينة، من مكّة، ومن ثم رجوعاً إلى بومباي عبر مكّة.

إنني الآن بصدد إعداد تقييم عن كامل هذه الرّحلة، وعن العديد من المغامرات الغريبة التي واجهتُها شخصياً وواجهها صحبي أثناء تنقّلنا. وبالرّغم من أنني سأضطر إلى التطرّق بداية، وبالتفصيل، إلى العديد من الأحداث التي لا داعي لها، فإنني على يقين، عند المضيّ قدماً في الحديث، أن القارئ سيكون ممتناً لتخطيه الدقائق العجاف في الفصول السّابقة.

إن زيارة المدينة في الإسلام، على عكس الحجّ إلى مكّة، لم ينزل بها نصّ قرآني. إنها محض تطوّع يتم القيام به حباً وكرامة للنبيّ محمّد الذي يرقد هناك، لكن دون أن تعتبر بحال من الأحوال فريضة أساسية. وأولئك الذين يقومون بها، رغم علمهم بكونها نفلاً لا فرضاً، يرجون من ورائها رفعة الدّرجات في الآخرة، مقابل إقبالهم على الله.

يبلغ أقصر الطرق من مكّة إلى المدينة ثلاثمئة وخمسة وسبعين ميلاً فقط، لكن تلك المسافة تتناقص إلى خمسمئة ميل إذا سلكنا طريقاً أخرى فرعية، هي الدّرب السّلطاني، وهذا ما فعلناه، لكن من وجهة نظري الخاصة أستطيع القول إنها كانت بنفس الطول تماماً.

بعد أداء منسك الحجّ الأساسي، وهو الوقوف بعرفة، بقي الموكب الذي من المفترض أن يتوجّه إلى المدينة، في مكّة لبعض الوقت، وذلك للتجهّز وإتمام إعدادات الرّحلة. لقد تمّ فرز المسافرين على القوافل بحيث يحتوي كل منها قدر الإمكان على أفراد يتكلمون اللغة نفسها. ومن بعد ذلك بدأت القوافل بالانطلاق تاركة مسافة أربعة إلى خمسة أيام بين بعضها، لئلا يسير الجميع سوياً فتنضب موارد الإمداد في الطريق، فضلاً عن السّماح للماء بإعادة التجمّع في الآبار بين القافلة والأخرى. مع ذلك يشاع عموماً في أوساط الحجيج من أن هذا التقليد يرجع في أصله إلى جذور بدوية، وأنه يصبّ إلى درجة كبيرة في مصلحة البدو أنفسهم، وذلك لأن قوافل الحجيج صغيرة العدد نسبياً أقلّ حيلة في الدفاع عن نفسها أمام هجمات البدو، من القوافل الكبيرة المنيعة، والتي ينتمي أفرادها للعديد من الجنسيات، في أيام بُرتون.

في كل عام يكون الماليزيّون أوائل المستعدّين، إلا أنهم هذا العام بدأوا الاستعداد بعد تسعة أيام من عودتهم من عرفات. وتكون القوافل الهندية دائماً آخر من يغادر مكّة. قبل مرور شهر على الحجّ بدأنا بالتجمع في وادي فاطمة الواقع في شمال غرب مكّة على بعد أربعة أميال منها، والذي كان بمثابة نقطة انطلاق للموكب الميمّم شطر المدينة. نحو تلك المضارب سرتُ مع أحد صحبي مساء يوم قبل انطلاقنا الأخير، وعندها فقط كان الأمير يشاور نفسه لأخذي معه.

بخروجنا إلى شوارع البلدة اشتريت من عدد من المتاجر الخاصة بعضاً من التبغ وغليوناً وكبريتاً وسكين جيب من النوعية الجيدة. وعندما وصلت مع صاحبي إلى المضارب دخلنا خيمة الأمير الذي استقبلني بسخاء منقطع النظير، طالباً مني أن أتصرّف وكأني في بيتي، وإن نسيت أي شيء أو لا زلت أرغب بشراء أي شيء للرّحلة،

فلا يزال هناك متسع من الوقت في يوم غد.

وصلنا إلى المضارب عند الغسق، وكلّ من سُمح لهم بالنوم في خيمة الأمير اختاروا أماكنهم، ولم يتبقَّ سوى غرفة واحدة في مكان سيء للغاية قرب المدخل. بعدها قمت بنفض دثاري على السّجاد الذي يغطي الرّمال، ووضعت صرة حاجياتي كوسادة، وبعد آخر سحبة من النرجيلة التي كانت تنتقل من فم لآخر، تكوّرتُ على الفراش بهدف النوم. بدا شركائي في الخيمة متعبين، وبدأ صوت حديثهم ودخان تبغهم بالتلاشي، إلا أنني وبعد تمتمة آخر صلوات ما قبل النوم كنت لا أزال مستيقظاً. كان ليل ذلك اليوم بمنتهى البرودة، وبالرغم من دثاري الذي كان سميكاً إلى حدّ ما، خلتُ أنه لن يقاوم على الإطلاق برد الصّحراء القارس.

كانت جدران الخيمة مفردة وكانت طريقة نصبها سيئة، مما سمح للهواء بالدّخول بحرية من الحواف السّفلى للقماش السّميك، فما كان مني إلا أن استيقظت وجمعت الرّمال بطولي لتشكل سدّاً في وجه الرّياح المتسللة من الخارج. حاولت بعدها العودة إلى النوم ولكن دون جدوى، إذ أن المستلقين إلى جانبي كانوا آخذين بالهرش بصوت يقع في وسط أذني في هدأة ذلك الليل، حتى وجدتُ نفسي فجأة أخمّن: أي جزء من أجسادهم يحكّون ويهرشون، ولقد زاد فضولي واهتمامي حتى أني هممت بسؤال جاري في الفراش عن مكمن انزعاجه وحكّته، لكنني وجدته يقوم بذلك وهو نائم.

وما هي إلا أيام حتى بدأت أعداد من الحشرات بممارسة هواياتها المحبّبة لها والمزعجة لي، لآخذ بالحكّ. حتى ذلك الحين لم تكن المشكلة قد تفاقمت بعد، فالغريزة عند مختلف الحشرات كانت قد علّمتها ألا تقترب مني، وما ذلك، يقول صحبي، إلا علامة على اعتلال في الصّحّة. مهما يكن الأمر فقد أمضيُت أياماً دون شركاء في الفراش، في الوقت الذي كان فيه لدى الأمير اثنان أو ثلاثة من الصّيّادين المهرة الذين يذبون عنه الحشرات كل يوم، فضلاً عن أغطيته التي تتيح ممارسة واحدة من أكثر الرّياضات حيوية. لكن يبدو الآن أن كل المخلوقات الضارية التي اعتاد عليها جسد الرّجل الشرقي، قد تمّت تعبئتها للانقضاض على شخص غربي. وأظن أنه لا

بدّ أنني قد حككت نفسي كثيراً حتى عاد النوم إلى جفوني أخيراً. وإذا بأذان الفجر يحوّلني من مقاتل في الجيش الرّوسي المنسحب عبر البلقان بعد هزيمة طاحنة أمام الأتراك إلى أحد الحجّاج المتعبين المنهكين، الذي كان عليه أن يقوم فيتوضأ وينطلق بكل نشاط ليؤدي صلاته اليومية.

عند خروجي من الخيمة لتأدية الصّلاة، تم تقديمي لاثنين من الغرباء المميّزين. كانا ريفيين من معارف الأمير، وسرعان ما انضمّا إلى مجموعتنا ليشاطرانا السّكن في قباء الأمير.

كان الأمير ينعتني بالرّحالة الكبير، الذي طاف الكثير من البلاد، ويذكر عدداً من الخدمات التي أسديتُها له، والتي كان بعضها حقيقياً، لكن معظمها للأسف كان من اختراعه. ومن بين المآثر الأخرى التي كان يخبرهم بها أني استطعت يوماً قطع حبل إلى شطرين ووصله مرة أخرى، دون أن يظهر على الإطلاق أنه موصول بعد قطعه. كل ذلك أظهر لي تزايد مكانتي عند الأمير لسبب ما، ولربّما كان ذلك السّبب موافقتي على رغبته في رفقته إلى المدينة، مقارنة بتجهم صاحبي، الذي كان الأمير ينوي إرساله، وأنا معه إلى الهند، على الفور وألا يأخذه معه إلى المدينة.

كان أول الغريبين المذكورين أعلاه عجوزاً قصيراً ونحيلاً من تلكدار Tallukdar، معروفاً بثرائه وبخله الشديد في نفس الوقت. أما الآخر فكان نبيلاً من السّكان الأصليين، يكسب لقمة عيشه بالمكر والخداع، وكان كثيراً ما يرتدي الثياب الفاخرة والماجنة ممّا كان يجنيه. لقد كان على درجة عالية من العبقرية، فضلاً عن مهارته الكبيرة في تقليد أصوات صرخات وصخب الفيلة الهائجة بطريقة تضلل حتى كبير الحراس في "Lord of the White"، ولا يضاهيها إلا البلبل في غنائه. بالإضافة إلى تلك المزايا، كان أيضاً سياسياً محنكاً، ومؤمناً متفانياً، ومن أصلب الرّجال الذين قابلتهم في حياتي. لا حاجة للقول أنه بات مكسباً عظيماً لحاشية الأمير.

بعد الإفطار أتيتُ وكيل أعمال الأمير طالباً منه أن يزودني ببطانية أخرى، وبعباءة بدوية من وبر الجمل مع قلنسوة لها. فما كان منه إلا أن حاول إرضائي ببطانية فقط،

لذلـك، وبعـد حصة من المماطلة، ما كان مني إلا أن لجأت للأمير بنفسـه، طالباً منه ما أريد، ليأمر وكيله أن يرسل إلى مكّة في طلبها.

هنالـك فيِ الشـرق تقليـد متّبع، وهو الخروج فـي رحلة تجريبية ليـوم أو يومين مع البقـاء بالقرب من مصادر الإمداد، وضمن ظروف شـبيهة لتلك التي سـيواجهونها في الطريق. لا تتجلّى أهمية ذلك التقليد إلا عندما تكون سرعة التنقل أمراً ثانوياً، ويفضّل عليهـا أداء النشـاطات بتـؤدة وتمهّل، خاصـة بين النـاس الذين يعتبرون بـذل ذرة من التخطيط والتدبير أمراً خارجاً عن المألوف.

إذا أردت أن أصـف لكـم انطلاقتنـا مـن وادي فاطمـة كيفمـا اتفـق، لما تسـنّى لي ذلـك. فمـن مدخل خيمتنا كان المشـهد عبارة عن فوضى عارمة مـن الخيام والجمال والأشـخاص، الذين صادف توزيعهم بمجموعات متسـاوية هنا وهناك على الأرض. لكـن الهواية التي كنت شـغوفاً بها هي أن أصعد إلى إطلالة عالية أستشـرف منها على المشهد من علٍ ناظراً إلى تحركّات الناس الفوضوية في المضارب.

كانت طريقتي تلك التي كثيراً ما كنت أتّبعها آخذاً بالارتفاع صعوداً إلى نقطة أراقب بها المشـهد من أعلى، مثاراً لاسـتهزاء أصحابي بي على الدوام. فكلما افتقدوني ولم يجدونـي بينهـم، سـرعان ما يصيح أحدهـم متهكماً: «لا بـدّ أن محمّد أميـن قد ذهب متسـلقاً الأعالـي»، أو تـرى أحدهم فـي بعض الأحيان يشـير إلى أكمة مرتفعـة قد نمرّ بهـا فـي طريقنا قائلاً: «أيها البحّـار، لماذا لا تصعد إلى أعلى السّـارية؟» وكثيراً ما كان أحدهـم يطلب مني الصّعود على وتد الخيمة على اعتباره سـارية سـفينة. من ناحيتي، كنت أعتبر ذلك تعبيراً مناسباً عن تميّزي عنهم لأقصى درجة يمكن لهم تخيلها.

على بعد مئتي ياردة تقريباً عن جهة مضاربنا، ينتصب تلّ صخري يبلغ من الارتفاع بضع مئات من الأقدام؛ إلى تلك الصّخرة ذهبتُ بعد صلاة الظهر، متسلقاً نحو قمتها. وهناك في الأعلى وضعت مصيدة لطيور الحجل، مع العلم أنه لدينا في القباء بندقيتان بسـبطانة مزدوجة من عيار 12، بالإضافة إلى خمسـمئة خرطوشة، مما يغري بممارسة رياضة الصّيد، التي كانت بغاية البهجة والمرح. كان السّـهل في الأسـفل، كما يُرى من

تلك القمّة، عبارة عن وادٍ دائري بعرض ميل، تحيط به تلال صخرية واطئة. كان معظم أرض الوادي عبارة عن رمال صفراء غير متماسكة؛ مع بقع خفيفة نَمَت هنا وهناك على امتداد فدّان أو ما يقارب، من العشب البني الخشن، على ارتفاع بضعة أقدام، وكان عدد من الجمال يرعى بينها. تفرّع عن ذلك الوادي وادٍ أضيق منه بين التلال المحيطة. وعلى امتداد السّهل كانت هنالك طرق مهّدها سير الجمال عليها نحو كافة المخارج، تلك الطرق شديدة الشبه بالأرصفة الممهّدة في إنكلترا.

كانت مكّة متوارية خلف التلال، لكن الطريق إليها كان معروفاً للمسافرين الذين يعبرونها، من وإلى المضارب، بالإضافة إلى عدد من فرسان البدو الذين كانوا يقطعونها على جناح السّرعة جيئة وذهاباً على جمالهم السّريعة في قضاء عدد من الحوائج المستعجلة الهامة. بالقرب من أسفل التل حيث اتخذت موضعاً لي، أقل من مئة ياردة عن أقرب الخيام، تقع الآبار، وهي عبارة عن ثلاث حفر دائرية بعمق ثلاثين قدماً وجدران حجرية بارتفاع أربعة أقدام، مبنية حول فم البئر، مع عدد من الأحواض الحجرية قرب كل بئر لتشرب منها الجمال، حيث كانت المياه تُسحب للأعلى بواسطة دلاء جلدية.

تلك كانت الآبار التي نتوقف عندها في كل رحلة نقوم بها، وقد نجد في بعض الأحيان عموداً وبكرة خشنين لحبل الدلو، عندما يكون البئر عميقاً، وقد نضطر لدفع رسوم عن الماء في بعض الأحيان، لكن كل الآبار في الحجاز تتمتع بذات الشكل. في ذلك الوقت كانت مشاهد حيّة من النزاع تعرض عند الآبار بين البدو الذين كانت جمالهم تربض في الأحواض تعبئ أجوافها بالمياه للرّحلة، وبين الحجّاج الذين كانوا يملأون قرابهم وجرارهم ليتزودوا منها حتى التوقف التالي.

لقد كان من المستحيل تقدير حجم قافلتنا من حجم المخيّم، إذ أن قسماً كبيراً من الحجّاج لم يكن ذاهباً معنا، ولكن سيعود إلى مكّة بعد توديعنا.

عند الثالثة عصراً تقريباً، بدا أن من كانوا يسقون الجمال قد أنهوا عملهم تقريباً، ليتزايد الصّخب في المضارب، حيث تم نصب عدد من الخيام هنا وهناك، وفي قلب الحدث، بدا المشهد كنار مفتوحة تضمحلّ شيئاً فشيئاً فينفرط عقدها إلى أرتال من الجمال المحمّلة.

خلال وقت قصير، وبعد أن تمّ نصب خبائنا أو يكاد، نزلتُ أدراجي من التل إلى السّهل لأجمع باقة تضم أزهاراً جميلة عطرة أعود بها إلى الأمير، فهو حسب علمي مولعٌ بالأزهار. تم فك القباء وإنزاله عن رأس الأمير الذي كان يفترش سجادة على الأرض يدخّن النرجيلة مع أربعة أو خمسة أشخاص آخرين، منتظراً الأحداث برباطة جأشه المعهودة.

من الجميل أن تُرى تلك الثلة بمنتهى الهدوء ورباطة الجأش في وسط المعمعة والصّخب، بعد ذلك المشهد الذي وقعت فصوله. سلّمتُ الباقة للأمير فبدأ بمداعبة أزهارها وكأنه في بيته. بعد ذلك بحثتُ عن أحد أصدقائي القدامى وهو ثالث المحاربين، وأحد صغار حرس الأمير الشخصيين، الذي أخبرني بأنه قام بوضع بطانيتي وعباءتي على الجمل الذي سنسافر عليه، والذي كان على أهبة الاستعداد، ليأخذ بيدي حتى أراه بعيني. لقد كان الجمل مرتفعاً عن الأرض، بل كان أكثر الجمال ارتفاعاً عن الأرض وأسوأها في القافلة.

بعد إلقاء نظرة على الجمل عدنا أدراجنا لنقوم برفع السّجادة التي كان الأمير يفترشها ثم لفها تاركين إياه يفترش الرّمال، غير مبالٍ أكثر من ذي قبل بشأن ما قد يحصل، لنندفع بعد ذلك وسط زخم الأحداث، دون شك بأننا سوياً قد تفننا باختلاق العراقيل. مع العلم بأننا تعرضنا أكثر من مرة للقتل بواسطة عدد من البدو الغاضبين. لكن لا بد أنه كانت هنالك طريقة وسط تلك المعمعة للتعاطي مع الأمور، وذلك لأن «شيخ البؤسِن»[1] Shaykh the Bo'sen، مرشدنا البدوي الذي يشبه البحّارة، وبواسطة قامته الممشوقة وعصاه الحديدية وصراخه الأجشّ الذي يتردد صداه في الأرجاء استطاع أن يضبط الأمور.

قبيل حلول الظلام بدأت الجمال بالاصطفاف على شكل أرتال والانتشار في أرجاء السّهل، ليندفع أحد البدو الذي كان قبيحاً عنيفاً صغير الحجم كبير السّن، نحو ثالث المقاتلين ونحوي وكأننا فريسة طال انتظارها، ليقودنا بعد ذلك أمامه نحو جملنا، متوقعاً منا امتطاءه عندما يكون جاهزاً.

(1) لعلّي أطلقت عليه هذا الاسم في مخيلتي بسبب منظره الشبيه بالبحّارة. (كين)

كان جملنـا واحـداً من عشـرين يشـكلون رتـلاً واحداً، تـم ربط رؤوسـها بأذيالها، بواسطة أرسانها، مع ترك مسافة تقارب المترين بين الواحد والآخر أثناء السّير.

كانـت الحبـال التي تُجـرّ بها الجمال مصنوعـة من ألياف جوز الهنـد، بقُطر يقارب البوصـة، لكنهـا لم تكن من القوة بحيـث لا تنقطع في حال سـقوط الجمل، إلا أن لها قعقعـة كبيـرة فوق تلك الـدواب. لقد تم تزويد تلك الأرسـان بغـرض إيقاف الجمال بمشـاكم بغاية الإتقان، وهي عبارة عن صفيحتين صغيرتين من الحديد بحواف مسـنّنة تم ضغط نتوءاتها المدبّبة تجاه جوانب الفك السّفلي وذلك بواسطة شدّ الرّسن.

ما علينا الآن سـوى امتطاء جملنا دون سـلّم. يتم القيام بذلك أولاً بواسـطة خفض رأس الجمـل نحو الأرض باليد اليسـرى، ثم وضع القدم اليسـرى على وجه السّـرعة داخـل التجويـف الكائن خلـف عنقه، فـي الوقت الذي يتـمّ فيه الإمسـاك بأعلى كتفه باليمنـى وإفـلات اليسـرى. بعد ذلك يرفع الجمل رأسـه، وبالتفافة سـريعة بجسـمك سـتجد نفسـك قد صرت بخفّة فوق سـرجه. بعد قليل من الممارسـة، وبواسطة القفز على بضع درجات، يمكن امتطاء الجمل بتلك الطريقة ثم السّير بسرعة معقولة.

لكـن بعـد الدخول فـي «الهـودج» المثقـل بالأحمـال، أو المركـب المغطى الذي يسـتخدمه الحجّاج، والذي تكون قاعدته على مسـتوى أعلى سنام الجمل، ينبغي بذل الجهد للجلوس في وسـطه، وإلا قد يختل توازن الرّاكب ويسـقط أرضاً بعد كل ذلك الجهـد. وبعـد الدخول في الهودج يجب الانتظار حتى يركب شـريكك بحيث تسـتقر تمامـاً في موقعك معه بنفس الوقت. ثم، وبعد قليل من الهز لثقـل الموازنة من طرف لآخـر يمكنك أن تتمدّد بشـكل كامـل حتى تصل قدماك إلى فتحة الهـودج أو مقدّمته. تدبّرنـا أنـا وصاحبي الأمر دون مزيـد صعوبة، مع العلم بأنها كانـت المرة الأولى التي نقوم بها بذلك، وبالرّغم من جوعنا الشـديد. لقد كان وضعاً مأسـاوياً، فأيّ منا لم يضع لقمـة فـي فمه منـذ الصّباح، ولا نعرف متـى موعد وجبتنا التالية. سـرعان ما اشـتممنا رائحة سيئة، وبعد تقصٍ لمصدرها اكتشفنا أنها صادرة عن الجمل.

الفصل الثاني

الانطلاق من وادي فاطمة

أدّينا قبيل الانطلاق بضعة عمليات انطلاق تجريبية، قامت الجمال أثناءها بالوقوف لفترات طويلة دون أن تتسمّر في مكانها، إذ أن الجمال المثقلة بالأحمال لا يمكنها ذلك، ممّا قد يسبب لها الألم، لذلك كانت على الدّوام تبدّل الثقل من رجل إلى أخرى بطريقة في غاية الإزعاج لنا كراكبين، الأمر الذي يشتت تركيزنا وتوازننا بالكامل. لكن في النهاية تمكنا من الترجّل عن الجمل بشكل مناسب. كان القمر كالعرجون في أول الشهر، وسرعان ما ادلهمّ ظلام الليل. ويا لها من ليلة! إذ أن مبارك (وهو اسم جملنا) لم يتوقف هنيهة عن الترنح يمنة ويسرة، الأمر الذي حول تلك الرّحلة إلى عقوبة، ونتيجة لذلك انزلقت البطانيات عن أجسادنا لتتجمع كتلاً أسفلنا، وعند كل هزة كنت أحسّ بشيء من حاجاتي يسقط في الصّحراء ويضيع.

وكأن الليل لم يكفه بؤساً ما نحن فيه، ليسوق إلينا حادي جمال بدوي انسل بيننا وبدأ يكيل لنا الشتائم بالجملة لنجلس في الأمام أو الخلف أو المنتصف، دون أن يتوقف حتى لخمس دقائق طوال الليل، ممسكاً بعصا يضرب بها مؤخرة مبارك، وكأنه يضرب في آذاننا. بعد ذلك عملت على التحقّق من غرضه من ضرب الجمال بتلك الطريقة، فتبيّن لي أنه يقوم بذلك فقط بدافع من العادة لا أكثر، دون أدنى تفكير منه. كنت منهكاً تماماً من كثرة الارتجاج ومن الرّائحة البشعة التي كنا نحملها معنا.

يشير بعض من الكتّاب إلى كثير من المنبهات التي تثير ذكريات بعيدة مثل الرّوائح التي تثير كثيراً من الذكريات عند شمّها، وإنني على اتفاق تام معهم. فمبارك كان

يذكرني تماماً بأحد مشاهد طفولتي، وذلك عندما ذهبنا في الهند لزيارة محرق جثث للموتى الهندوس في مَدراس Madras. لقد كانت نفس الرّائحة التي نشتمّها اليوم.

لم نعانِ تلك الليلة من الجوع كثيراً كما توقعنا. كانت الجمال كما السّاعات تسير ببطء نحو الفجر، عندما قام مبارك بالقليل من اللهو، مستلقياً أرضاً لمرتين وقاطعاً رسنه. لذلك فقد انفصل عنا الجمل الذي يتبعنا، لتتهادى بقية الجمال أمامنا، في الوقت الذي خرجنا فيه لنرفع سفينتنا المتعبة - الجمل الذي أقلنا - بعد أن أنهكت قدماه من المسير، لنأخذ بزمامه إلى موضعه القديم ونربطه حيث كان.

في الوقت التالي الذي نزلنا فيه كان الصّبح آخذاً بالانبلاج، فانتهزتُ الفرصة لأنظر مليّاً إلى حادي جملنا ومالكه في آن، وبالنظر إلى شناعته وقبحه زاد همّنا طوال الليل. لقد كان كما لاحظت سابقاً، قصيراً جداً، نحيلاً، عجوزاً، بأنف روماني غير طبيعي. والآن أدركتُ أنه يمتلك المقدرة على هزّ رأسه بشكل قوي وسريع، وباعتقادي فإن هذا هو التعبير الوحيد الذي يمكن لملامح وجهه أن تعبر عنه، بالرّغم من أنه لا يحمل في طيّاته نصف الذكاء الذي ينبئ به هزّ الكلب لذيله. لقد كان حافي القدمين، يرتدي الزي التقليدي لأبناء مهنته، وهو عبارة عن قميص قطني يصل إلى ركبتيه يحيط به حزام مصنوع من جلد الحيوان عند الخصر، وأكمامه فضفاضة، وعلى رأسه كان يرتدي جلد خروف رقيق، يثنيه من الزوايا، مع عقال دائري يضغط ليحفظه من الوقوع، وكان كل ما يرتديه كدراً. كان الرّجل مسلحاً بشلفة قصيرة من تلك المخصصة للرمي، بالإضافة إلى هراوة معقوفة. أما الخنجر البدوي التقليدي فكان في مقدّمة حزامه من الأمام.

نحن الآن بعيدون شيئاً ما عن القافلة، وبما أنه ليست لدي أية فرصة أخرى، ولإيماني بالمثل البحري القديم الذي يقول «إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة»، فقد قرّرت أن أولي صاحبي الاهتمام وأسدي له درساً في الحال. انسللتُ بهدوء خلفه ودفعته بيميني بين لوحي كتفه، مما ألقى به أرضاً على وجهه في الرّمال على حين غرّة. نظر صاحبي بإمعان، مأخوذاً بما قمت به، فما كان مني إلا أن انفجرت بضحكة صاخبة مفعمة بالبهجة والمرح. انتصب حادي الجمل المسكين واقفاً، ناظراً تجاه أصحابه

الذيـن يولون ظهورهم بعيـداً، ثـم رمقني بنظراته، عندها رفعتُ يـدي ضاحكاً وموهماً إياه بأني سـأكرّر ما فعلت مازحاً، وإذا به يرفع حربته، فأوقفتُ مزاحي عندها. لا أدري بالضبـط مـاذا كان رأيه فيّ، ولكن يجب علي القول أنه صـار يعاملني بمنتهى الاحترام والحذر منذ ذلك الوقت وحتى افترقنا.

عندمـا أوقفنا مُبارك على قدميه، اقترحت بأنه يجبُ علينا ألا نمتطيه بعد أن سـقطنا أرضاً بمسـافة قبل ذلك، وعلينا أن نمضي قدماً بسـرعة. وافق صاحبي على ذلك دون تردّد، إذ أن المشـي بعد سـبع سـاعات من رحلة على ظهر جمل يعني أننا في استراحة أو ما يشبه الاستراحة. أطلعنا حادي الجمل على ما نفكّر به، فأبدى بدوره رضاه التام، وقفز سـريعاً على ظهر الجمل. لكن ذلك لـم يكن لصالـح مُبارك كما كنا نخطط، لكننا آثرنا الصّمت بعد الذي حصل. وعندما أدركنا القافلة، تفاجأت لرؤية ذلك الكم الهائل من الناس الذين يرافقوننا مشياً على الأقدام، دون أن أعدّ الحجيج الذين ترجلوا حينها لأداء صلاة الفجر.

سـرعان ما التقينا بالأمير والعديـد من أفراد مجموعتنا عندما تقدمنا بالمسـير أكثر، وسـوياً سـرنا ما يقرب من ربع ميل أمام جمل المقدّمة. كان بعض الخدم يتبعوننا بقربة ماء من الجمل المخصص لنقل المياه، لنسـتخدمها في الوضوء والصّلاة، وانتهينا قبل أن يتجاوزنا آخر جمل في القافلة.

كنـا دائمـاً نؤدي صلاتنا بتلـك الطريقة دون إيقـاف القافلة. وجدنا أنفسـنا في بلدة تشـابه بشـكل عام كل البلاد التي مررنا بها في طريقنا، باستثناء السّهل المفتوح والذي سـأتكلم عنـه لاحقاً. لقد كان عبـارة عن وديان رمليـة بين رُكام من الصّخور السّـوداء المبعثـرة هنا وهناك بشـكل رائع، والتي تتفـاوت في ارتفاعها من صخـور صغيرة إلى جُـرف بارتفـاع ألف قدم. بإمكانـك هناك أن تجد بعضـاً من النباتات، كثيـرة كانت أو قليلـة، فـي كل مكان، ولكنك لن تجد فـي أي مكان عدا قرب المـاء أرضاً خصبة مثل مستنقعات صيد طيور الدّجاج البري في إنكلترا.

لـم يكـن بمقدوري التعرّف على عشـرات الأجمـات التي تنمو في تلـك الأماكن،

حتى أني شعرت بالندم على عدم امتلاكي لذلك النوع من المعرفة، وعاهدتُ نفسي أنه حالما أنتهي مما أنا فيه فإنني سأعمل على تدارك عيوبي ونقائصي. إحدى النباتات الشائعة في الصّحراء، والتي من الضروري أن أتكلم عنها، كانت البطيخ البري[1]. كان أكبر تلك النباتات بحجم بيضة النعامة، وفي اللون كانت تماماً بلون بطيخ الحقول. لقد كانت لاذعة لدرجة أنها تكشط الفم، إلا أن الجمال كانت تلتهمها بشراهة. ومن استخداماتها الأخرى اتخاذها كلعبة بواسطة الأطفال. فعند تجفيفها بواسطة تعليقها لفترة من الوقت تصبح صلبة وخفيفة، وتستخدم ككرات يلهو بها الأطفال، أما البذور داخلها فتصدر صوت قرقعة عند رجّها أو رميها أرضاً.

بعد الليالي شديدة البرودة في الصّحراء، بزغت علينا أشعة الشمس صباحاً لتغمرنا بالدّفء، كما لو كانت في رابعة النهار، مما أضفى علينا شعوراً بالسّرور بسبب عودتنا إلى الهودج، حتى لو كان الجلوس فيه من دواعي إزعاجنا.

بُعيد ذلك، سمعنا صوت عراك وصياح آخذ بالتعالي، لا يبعُد عنا سوى بضع جمال. وإذا بـ «شيخ البؤسِن» Shaykh the Bo'sen يمرّ بنا على فرسه إلى حيث الصّياح يتعالى ويرتفع، وبعد ذلك بدقائق، توقّفت القافلة برمّتها. ما كان منا إلا أن ترجلنا كلانا، لنجد أن أحد من استأجرهم الأمير قبل مغادرة مكّة ليذهب معه كدليل، قد وقع في مشكلة مع أحدهم. لقد كان هندياً مولوداً في مكّة، وهو رجل نحيل وطويل، صلب العود، بحدود الأربعين من عمره، قيل إنه قام بسبع عشرة زيارة للمدينة، ومن المتوقع أن يكون قائدنا في تلك الزيارة الدينية العظيمة. ينص جزء من اتفاقه مع الأمير على أنه لن يحصل على مقعد على ظهر أحد الجمال، الأمر الذي يُفهم منه أن أحداً منا لن يعترض على أن يصبح ثالث الرّكاب على ظهر جملنا، في حال لم يعِب علينا البدوي المسؤول قيامنا بذلك.

في أول ليلة لنا استطاع الرّكوب معنا طوال الليل، دون أن ينتبه الحادي بأن ثلاثة ركاب كانوا على متن الجمل، لكن لا يمكنه الترجّل عن الجمل دون أن يثير الانتباه،

---

(1) يعني المؤلف الحنظل كما هو واضح.

وهنـا تكمـن المشـكلة. عندما وصلـت لموقـع الحـدث، كان الدّليل غارقـاً في غمرة الأحداث، حتى أنه هدّد بضرب «شـيخ البؤسِن»، الذي اندفع نحو جمله ليستلّ سيفه، بالرغم من امتلاكه لأسلحة فتاكة تتمثل في شخصه. على كل حال، وقبل عودة الشيخ مع سـيفه المسـلول، بشـكل يبدو فيه وكأنه ينوي الشـرّ، فـرّ قائدنا وتـوارى بين التلال الصّخرية. كانت آخر مرة رأيناه فيها على بعد ميلين منطلقاً عبر الرّمال باتجاه مكّة. لقد كان ذلك برأيي صفقة خاسـرة، لأنه قد تلقى سـلفاً نصف الدّولارات العشرة التي كان من المفترض أن تسدّد له عن الرّحلة ذهاباً وإياباً.

تظاهر «شيخ البؤسِن» بأنه في امتعاض وحنق شديدين، وأعلن أن القافلة لن تتحرّك حتى يأخذ بثأره من المعتدي. فما كان من الأمير إلا أن سـارع بعرض الدّواء الشـافي: الدّراهـم والدنانيـر. كم من المال سـتدفع لي؟ صاح الشـيخ: «مئة ألـف روبية». إذ أن عرض مبلغ أقل عليه يعتبر إهانة بحقه. كان البدو مسـرورين بمنظر الشـجار، وجلسوا فـي حلقـات على الصّخـور يتباحثون بالأمر وهـم في غاية الجذل والفـرح، بينما عقد بعض سـادتهم مجلس شـورى. قمنا أنفسـنا بعقد مناظرة ضمّت كلاً من الأمير وعدداً من الشيوخ ومجموعة من أغنى الحجّاج الذي شكلوا جماعات وتناقشوا حول العديد مـن التدابيـر التـي يتم اتخاذها سـلفاً فـي مواجهة البـدو، لكنها عنـد تجريبها جوبهت بالرّفض القاطع.

أخيراً، وبعد توقف دام لساعة تقريباً، جاء إلى الأمير أحد البدو الذي يحظى بمكانة كبيـرة بينهـم، بنفس المقدار الذي يحظى به الشـيخ نفسـه، بهيئة رجـل يريد الإصلاح والخيـر كونه صديقاً للطرفيـن كليهما، وقدّم له النصح، علـى اعتبار أن أحد خدمه هو الذي اقترف الإسـاءة، وحاول استرضاء الشيخ المُهان بهدية رمزية عبارة عن خمسمئة دولار، عارضـاً أن يقوم بالأمر بنفسـه بدلاً مـن الأمير بطريقة لطيفـة ومرتّبة، بحيث لا يكون الشيخ قد خسر شيئاً.

لكـن مجموعتنـا من الجانب الآخـر كانت تضمّ عـدداً من الدُّهـاة المتنبهين، إذ أن ذلك الشـخص، الذي سيُدعى في المستقبل بـ «داهيتنا»، همس في أذن الأمير ليتعامل

مع الأمور بجدّية وجرأة ويعرض عليه عشرة دولارات. فما كان من الأمير المسكين إلا همس بوجل كبير بذلك في أذن وكيل أعماله الذي أفهم الرّجل، بالنيابة عن سيده، بأن تلك كانت شروطنا. فما كان من الرّجل إلا أن أظهر وببراعة تعابير تنمّ عن شفقة يشوبها التكبر، مقدماً نفسه كرجل بارع إلى حدّ كبير في فن التظاهر.

لكنه عاد عدداً من المرات، وبعد تأخير يقارب ساعة أخرى وافق على خمسين دولاراً، والتي حلّت القضية، لننطلق مرة أخرى. لقد مررنا بتجربة لطيفة استفدنا منها، لكنني شخصياً لم أحصل أي شيء من تلك التجربة. لم تكن هنالك إراقة للدماء، وحسب ما شاهدت لم تكن هنالك أية إمكانية لذلك. مما أكد لي بأن معظم قصص القتل التي سمعت بها تعود لعصور خلت، لذلك فإن معظم مخاطر الطريق التي كنا نسمع عنها ما هي إلا أوهام.

* * *

عند ظهيرة ذلك اليوم وصلنا إلى أول محطة استراحة. لقد كانت في وادٍ آخر مشابه لذلك الذي غادرناه يوم أمس، لكنه لم يزد عن ربع مساحة الأول. لقد كان يحوي بئراً واحداً فقط، وبالقرب منه كانت هناك العشرات من خيام البدو المنتظمة على صفين يواجه كل منهما الآخر، مع درب ممدودة بينهما. لا تعدو تلك الخيام اثني عشر قدماً سواء في الطول أو العرض، وتصل إلى سبعة أقدام في الارتفاع. يتم صنعها بواسطة أوتاد منتصبة مغروزة في الرّمال، مع دعامات أفقية مثبتة بينها، ويتم فرشها من الخارج بغطاء سميك من النسيج العشبي أو القصب أو سعف النخيل، وتُترك الخيمة مفتوحة من أحد الجوانب بشكل كامل.

كان «شيخ البؤسِن» والشيوخ الآخرون الذين يملكون الجمال وسيقومون بحدوها بأنفسهم قد مضوا قدماً معطين إشارة عن دخولنا القرية، ليقوموا بنصب المضارب، حيث ستتجمع مختلف جماعات الحجيج سوياً، تحت إمرة شيخهم الذي سيتولى زمام مقصورته من الخيام. عندما دخلت سلسلة الجمال، اقتادها البدو إلى مختلف أجزاء المضارب، وسرعان ما تجمّعت معظم مجموعتنا، وبدأنا بتفريغ حمولة الجمال

ونصب خيامنا. أما النساء فلا يسمح لهن بالترجّل حتى تجهز خيامهن، لذلك تم اقتياد جمالهـن وصـولاً إلـى المدخل، ليتسـارعن بعد ذلـك في الدخـول إلى الخيـام. بعد ذلـك كانـت مهمتنا التاليـة هي نصب الخيمة، ثـم وضع الأمتعة والهودج والشِّـبريّات shibriyahs حول الخيام، لتحيط بفسحة بمساحة خمس عشرة ياردة مقابل مدخل كل واحدة منها، وخارج تلك الفسـحات اتخذت الجمال مجالس لها. كان هنالك العديد من تلك السّـاحات المحصنة في المضارب، وعشـرات من المجموعات أو العائلات الأصغر التي لم يكن لديها إلا جمل أو اثنان، ومئات من الأشخاص الذي جاؤوا سعياً على الأقدام طول الطريق إلى المدينة.

لما اسـتتبّ النظام في المضـارب، جلس طبّاخونا في الحال يعـدّون وجبة لنا. لقد كان بمقدورهـم اصطحاب كافة أوعية الطهي الأساسـية معهـم، لتوقَد نارٌ على الرّمال بين عدد من الحجارة التي سيتم وضع القدور عليها، تلك النار التي لا تختلف عن نار المواقـد فـي المنازل إلا بأنها مفتوحـة وتلك مغلقة، لذلك فقد عانـى ذلك القطّاع من بعـض الإربـاكات في السّـفر. أثناء إيقاد النـار وتفريغ الأمتعة، ذهـب البعض إلى البئر للتزود بالمياه. أما أنا فقد رافقت ديرواني Dirvani (كبير المقاتلين) ومسـاعد الطباخ، الذين نزلوا إلى القرية لشراء بعض الحاجيات. في كل من الأكواخ وجدنا عائلة بدوية، تعرض صنفاً أو أكثر من الحاجيات للبيع. كان بعض تلك الأكواخ يعرض للبيع ثلاثين أو أربعيـن بطيخة حمراء، وكان بعضها الآخر مختصاً بتربية الجمال، بينما كان القسـم الأخير يبيع السّمك المقدد والتمور وبعض المواد التموينية الأخرى التي تعتبر مطلوبة في تلك البلدة، أو التي يشتريها الحجّاج عادة.

بعد أن أمضينا بعض الوقت نسـاوم الباعة ونفاوضهم، عدنا أدراجنا إلى المضارب محمّليـن بالمشـتريات. دخلـت الخيمـة لأسـتمتع بتنـاول أربع أو خمس شـرائح من البطيخ الأحمر الطازج اللذيذ، باذلاً الكثير للتغلب على شـعور التوعّك الذي انتابني. كانـت عمليات الطهي تجري على قدم وسـاق، وبدأت أعمـدة اللهب الأزرق النحيلة بالارتفاع في السّماء الزرقاء الصّافية من كافة أرجاء المضارب. كانت الكآبة تحيط بكل

منا، مما أضفى جواً من الجدّية على المشـهد، الأمر الذي جعل من الأمور تبدو عملية أكثـر من اليوم الفائت. وحول المضارب كان هناك فتيـان وفتيات من البدو، يتجولون بمظاهرهـم البهية عارضين بضاعتهم مـن الحليب والتمور والحطب والبطيخ، ينادون على البضاعة بأصواتهم المحبّبة وبغاية الوضوح.

* * *

بعـد مرور سـاعة ونصف، توقفنا لتنـاول وجبة من الكاري والأرز وخبز الشـوپاتي chupattis تم إعدادها لنا، فأكلنا حتى شبعنا. أما البدوي الذي تشارطنا معه على سداد ثلاثيـن دولاراً مقابل اسـتئجار الجمـل في رحلة الذهاب والإياب بيـن مكّة والمدينة، بالإضافة إلى اثنين من الدّولارات للحادي، والذي توجب علينا إطعامه وجبة كل يوم، كانـت عبارة عن خلطة من الأرز المسـلوق والعدس المتبل بدهـن الضأن ذي الرّائحة اللاذعـة، فقـد اسـتلم كل منهم أجرته. بالرغم مـن وجود طعام يكفـي ويزيد، ومن أنه بمقدورهم وضع ما يشاؤون من الدهن على الطعام، فقد كانوا دائمي التذمّر والشكوى مـن عـدم احتواء وجبتهم على زيـادة من الأرز. كما أن المتسـولين خابت آمالهم لدى رحيلنا. حتى أن كبير الطباخين أخبرنا أنه من كثرة السّباب والشتائم بين البدو ومتسولي الحجيج لم يغمض له جفن خلال فترة التوقف والاستراحة.

بعد رفع الطعام، تمدّدتُ قليلاً في الخيمة، لأغطّ على الفور في سُبات عميق، دون النظـر إلـى الموضع الذي كنت فيـه والذي كان محاطاً بالمخاطر مـن كل مكان، إذ أن العديد من صحبي كانوا يحشون بنادقهم بالرّصاص حولي بطريقة تنمّ عن قلة خبرتهم وحذرهم، تلك الأسـلحة التي كان معظمهم لا يعلم عنها أكثر مما يعلمه جمل يقضي عطلته.

* * *

الفصل الثالث
مشقات الطريق

استيقظنا قبل ساعتين من غروب الشمس على صراخ «شيخ البؤسِن»، الذي أتى إلى مدخل الخيمة وبدأ بالزّعيق بأعلى صوته «هيّا انهضوا، وتجهزوا للانطلاق»، ظناً منه أننا سنهرع إلى جمالنا في الحال. لكن نظرة واحدة في المضارب كانت ستعطيك فكرة عن الوضع إذ ذاك، فعشرات من الناس كانوا لا يزالون يشخرون على الرّمال تحت أشعة الشمس، أو بالكاد ينهضون من أماكنهم. لقد استغرق الأمر نصف ساعة ليتمكن البدوي من إيقاظ مجموعتنا ودبّ روح النشاط فيهم. ذهبت أنا وثالث المقاتلين لترتيب هودجنا، لنراه قد أصبح سريراً لزوج من الطباخين المساعدين، فما كان منا إلا أن أسرعنا بسحبه من تحتهم وإرسالهم لحزم أمتعتهم وقدورهم.

قمنا في البداية بربط بطانياتنا بحبل قنّب، بحيث لا تتجمّع مرة أخرى تحتنا، ثم قمنا بترتيب أمتعتنا وتثبيتها في أماكنها المناسبة داخل الهودج، ووضع عدة التدخين في حقيبة يد تم تعليقها من الداخل أيضاً، لأكتشف لاحقاً أنني، خلال الليل، قد فقدت أحد خُفيّ الاحتياطيين، وأغلب الظن أنه سقط مني في الصّحراء. فما كان مني إلا أن تدبّرت في شؤون العناية الإلهية العجيبة من وجهة نظر عربية، وتصدّقت بالفردة الأخرى على متسوّل كان بأمسّ الحاجة إليها. أما الجمال فكانت لا تزال تمضغ تبنها الذي تأكله أثناء استراحتها. كان التبن يُحمل إلى الجمال محزوماً بحبلين مجدولين، وقبل تقديمه كعلف لها يتم فرطه بعصا. كانت تلك الطريقة الأمثل لتقديم التبن للجمال عندما لا تتوفر أية وسيلة فعالة لتجميعه على شكل رزم.

فضـلاً عن ذلك، قمنا بتفحص جملنا (مُبـارك) وعرفنا مصدر الرّائحة الكريهة. لقد كان فـي وضع لا يُحسـد عليه، فعلى جانبي ظهره وعلى امتـداد عموده الفقري، كانت هنـاك تقرّحـات دامية متعفنة، تشـابه إلى حدّ ما بالشـكل والحجم الجـزء الذي يغطيه سـرج الفـرس، وكان حاديه في ذلـك الوقت يقوم بكيّه على مهـل بقطعة حديد بحجم بوصة تم إحماؤها على النار. أصدرت تلك العملية صوت طقطقة وسحابة صغيرة من الدخـان، طوال الوقت الذي كان يضع فيـه الحديدة على الدّمامل. بالرغم من الخوف الذي انتابنا عند متابعة ذلك المشهد، فقد اعتدنا على رؤيته مراراً وتكراراً على الجمال بعد ذلك.

إلا أن مبارك كان يعاني من مشكلة أخرى أكبر من تلك، ألا وهي آلام أسنانه، حيث لـم يتمكـن من مضـغ الطعام، لذلـك كان إطعامه يتم بواسـطة إدخال كـرات من التبن الرّطبة ونوى التمر المدقوق عبر فمه. لقد أخبرنا الأمير عن جملنا، الذي أحال قضيتنا إلى «شـيخ البؤسِـن»، لكنه لم يتمكن من تقديم علاج لنا. أخبرناه بأن الجمل لا يصلح للرحلـة، فما كان منه إلا أن اكتفى بالضحـك، وقال أنه قد قدم للتو من المدينة وأنه قد قام بتلك الرّحلة مئات المرات، لينهي ذلك الجدل أخيراً بقوله إنه يستحيل توفير جمل آخر حتى نصل رابغ، بعد ذلك بمرحلتين، والتي قد يستغرق الوصول إليها أربعة أيام.

كانت انطلاقتنا اليوم أكثر تعقلاً وتحسـباً من سـابقتها يوم أمس، فكل مسافر قد قام بتحزيم أمتعته الشـخصية بنفسـه باذلاً المزيد من العناية. أولانا «شـيخ البؤسِـن» كامل عنايته، دون المجموعات الأخرى التي كان يرافقها دليلها الخاص. وحالما بدأ الظلام بالهبـوط كانـت القافلة جاهزة للانطلاق. كانت مجموعتنا تشـتمل على اثنين وسـتين مسـافراً وخمسـة عشـر جملاً وحصان واحد واثنين من الكلاب اتخذت موقعاً لها في مقدمة القافلة التي انتظمت بالترتيب الذي سـتمضي عليه قدماً. عند الانطلاق تم إيقاد بضعـة مشـاعل وحملها المشـاة علـى أقدامهم، بينما تـم تعليق فوانيـس على عدد من الهوادج.

تشـتهر المنطقـة التـي نحن مشـرفون عليها بكثـرة اللصوص فيهـا. لذلك عندمـا مررنا

عبرهـا، تذكرنا كل القصص التي تتحدّث عن أسـاليب ومكـر لصوصها، التي كان صاحبي يرويها على مسـمعي، وكيف أنهم يتخفّون بين الصّخور ويطلقون النار على جمل أو اثنين من القافلة، بنفس الطريقة التي يتم فيها اصطياد غزال من قطيعه، وكيف يمكنهم التسلل ليلاً دون إثارة أدنى انتباه، ليصبحوا وسط القافلة، ثـم، وبالاتفاق مع الحادي، يتم ربط الجمل الذي يسـافر عليه بعض المسافرين النائمين أو الشاردين من الأغنياء، الذين لا يشعرون إلا وقد تخلّفوا بعيداً عن صحبهم وأرغم جملهم على القعود أرضاً، ثم يُجبرون على الخروج ليلاقوا مصيرهم المحتوم بالموت نحراً مثل أية شاة.

الآن ولاحقـاً مـن الممكن أن نشـاهد امرأة تصـرخ في فزع أو عجـوزاً خائفاً ينادي بأعلـى صوتـه «لصوص! لصوص!» ومن ثم يسـري صوت الصّراخ عبـر القافلة حتى آخرهـا، ليتبعهـا فـي الحال صليـة من الرّصـاص تتعالى فـي الجو ويتـردّد صداها بين السّهول، كما توحي نار فرح يرتفع لهيبها تحت قبّة سانت پول. وعلى كل حال، فبُعيد منتصف الليل، وقع ما يُنذر بحادثة كتلك وقد بدت بأنها جدية.

توقفت بالجمال وهرع المشـاة من المسـافرين إلى مؤخـرة القافلة حيث ثارت أحداث فوضى وشغب. قام ستة من المشرفين البدو، بإشعال فتيل بنادقهم من مشعل بقربي، وكان نـور الوهج الأحمـر الذي يخبو تارة ويلتهب أخرى ينعكس عليهم، كاشـفاً في ظلمة الليل عـن درب وعـرة من الصّخور السّـود، والتي تشـكل مجموعة نادراً ما رأيت مشـهداً بربرياً يضاهيها. لقد كانت عيونهم البدوية التي ترسل نظرات حادة تحت الحواجب المتدلية، تبدو أكثر حدّة من المعتاد، وكانت ملامحهم تنبئ عن شيء من الشرّ والسّرور في آن. سرعان ما أتت الأخبار من مؤخرة القافلة، بعد أن تناقلها المسافرون من جمل إلى آخر، بأنه قد تمّت مهاجمة الجملين الأخيرين بواسـطة اثني عشـر رجلاً قاموا بنصب كمين مقتادين الجملين إلى حيث الظلام. استطاع أحد الرّكاب، وكان رجلاً، إلقاء نفسه من الهودج والفرار، تاركاً وراءه امرأتيـن وفتـى صغيراً بين أيـدي اللصوص. بدا أنه من الصّعوبة بمـكان مدّ يد العون لهم. بعد ذلك عاودت القافلة مسيرتها.

أتاحت تلك الأحداث لي ولصاحبي موضوعاً حيوياً جديداً للتحدث فيه. وفي حال

لـم يفـرّ الرّجل، فإن المحارب الثالث، الذي صدق القصة تصديقاً تاماً، سيجدني أقل تصديقاً لما حصل. ويمكن القول إنني بالكاد صدّقت تلك القصة، فليس من المعقول أن يتـم قتـل امرأتين وفتى بدم بارد على بعد ميـل أو ميلين مني. بعد انبلاج الصّبح، بدأ مبارك، الذي لو لا لطف الله لما استطاع تمضية الليل على قدميه، بالترنّح يُمنة ويسرة، عائداً إلى عادته القديمة بالاسـتلقاء أرضاً. فمـا كان منا إلا أن عاودنا إيقافه على قدميه مجدداً، ولكن سـقوطه بعد ذلك صار يتكرّر بشـكل أسرع، حتى صار من المؤكد لدينا أنه لن يتمكن من متابعة السّاعات الثلاث المتبقية من الرّحلة بصحبة البقية. لذلك فإنه استلقى على الأرض في النهاية تعباً منهكاً.

قام «شـيخ البؤسِـن» بفحصه وانتهى إلى أن حالته غير قابلة للشـفاء، وبعد مشـاورة قصيـرة تـرك الطبيب المسـعف المريض. اسـتلّ صاحـب مبـارك خنجره بشـدّة، وقدّم الحيوان المسـكين نفسه للذبح، متشـوقاً لمصيره المحتوم. تم نحرّ الجمل بهدوء تام، حيـث جزّت السّـكين رقبته بعمق وثبـات دون أن يهتزّ له جفن. وبذلك اسـتراح ذلك المحـارب بعد رحلته الطويلة كما يحبّ ويرضى. عندما سـقط العنق الطويل مطروحاً على الرّمال، جاهدتُ نفسي على إبداء الكثير من الشفقة على الحيوان والتّحامل على الرّجل، حتى أنني كنت على يقين بأنني أرى عينيه البراقتين ترمقان سيّده عديم الشفقة بنظرة شكر جزيل على أول وآخر مرة يبدي فيها شفقة عليه.

«كانـت نهايته قطعاً من اللحـم»، كما لاحظ أحدهم. فبالـكاد وصلت أول دفقة دم مـن جرحـه البليغ إلـى الأرض حتى انقض عليه الفقـراء من المتعبّديـن وتدافع جميع المشـرّدين في القافلة حول جثته الهامدة، مقطعين جسـده الهزيل بعد أن لم يُبقِ العمل والجوع فيه إلا قطعاً قاسية من اللحم. والذين أفلحوا في الحصول على قطع من لحم قاموا بتعليقها على ظهورهم، وما هي إلا بضع سـاعات حتى تكفلت حرارة الصّحراء الجافـة بتحويل اللحم إلى قطع جافة خفيفة. ومرة أخرى تتوقف القافلة لخمس دقائق بحيـث يتـم وضع الهودج والأمتعة علـى جمل آخر، ولتترك عظام مبارك المشـفاة من اللحم للطيور الكاسرة التي ستتولى شأن تنظيفها، شأنها شأن عظام المئات من أسلافه

الذين انتهوا إلى نفس المصير الذي لا يبقي أثراً لعظام حيوان أو إنسان.

استلمتُ رسالة من الأمير لإكمال الرّحلة على ظهر حمار. والحمار الذي اخترتُه أثبت قوّته في الجرّ والسحب، وعلى اعتبار بُطء سير تلك القافلة الطويلة، حتى بالنسبة للماشين على أقدامهم، فقد سمحت لحماري بالإسراع قليلاً حتى وصلنا إلى الجمل في المقدّمة، ترجّلنا بعد ذلك عنه وجلسنا على الرّمال بانتظار بقية جمال القافلة، وعند وصولها كنا ننطلق مجدداً وهكذا دواليك.

عندما ظهر ضوء الشمس كنا في منبسط من الأرض، وكانت فرصة مناسبة لوصف قافلتنا بشكل كامل. لقد كانت تشتمل على سبعمئة وثلاثين جملاً، تصطف وراء بعضها على خط طويل، واحداً تلو الآخر، على امتداد يقرب من ثلاثة أرباع الميل. كانت تلك الجمال تحمل على متنها ما يقرب من تسعمئة حاج بكامل أمتعتهم. وعلى جانبي الجمال تمشي مجموعة من فقراء المسافرين مشياً على الأقدام، من الرّجال والنساء والأطفال. وكان معظمهم مزوداً بالمال لمستلزمات الطريق، لكن عدداً أكبر لم يحمل معه مالاً معتمداً على صدقات الآخرين. وبالرّغم من كونه يومنا الثاني في الرّحلة، يمكن القول إن اثنين من أولئك الناس قد تخلّفا عنا، مما يعني الموت المحتم لهما، فإن نجيا من البدو، لن ينجوا من العطش. وأعداد من الناس بدأت تظهر عليها أمارات اليأس والقنوط. بشكل عام، فإنّ الحديث عن الحب والوله الذي يجذب الرّجال فضلاً عن النساء الأطفال إلى زيارة المدينة، لهو حديثٌ ذو شجون، خاصة إذا تحدثنا عن رحلة سير تمتد لخمسة أميال في تلك الصّحارى، وكل اعتمادهم على الفرص التي قد تلوح لهم في الطريق. مع العلم بأن تلك الأمور تجري سنوياً في الحجاز. كان لكل واحد من جمالنا حادٍ يقوده، إما رجل أو صبي، لنصبح بالمجموع، مع الشيوخ والبدو الآخرين، حوالي ثمانمئة.

* * *

عندما انتصف النهار، ترجّل الأمير عن جمله وامتطى صهوة الجواد، وهو فرس بهيّ الشكل يغلب عليه اللون الرّمادي المائل إلى الحديدي، تم شراؤه من مكّة مقابل

ثمانيـن دولاراً. تـم اقتيـاده معنا فـي القافلة وتخصيصه لاسـتخدام الأميـر. إن مظاهر اللهو الوحيدة التي صادفناها في طريقنا كانت زوج حجل وبعض أسـراب من الحمام الأزرق، لكننـا كنـا قريبين جـداً من مكّة حتى نفكّـر باللهو والصّيد. نشـب خلاف في الـرّأي بيـن كبار مجموعتنا فيمـا إذا كنا محقين في الصّيد خـلال أي وقت من الرّحلة، ولكن بما أن الأمير كان رجلاً رياضياً بعض الشيء، فقد تم إلغاء ذلك النقاش، وصرنا لا نتردّد باصطياد كل ما نراه في طريقنا.

فـي اليـوم الأول قمنا بإخراج بنادقنا التي تحشـى من الخلـف دون وجود لولبة في داخل جَفّها، وطلبنا من «شـيخ البؤسِـن» أن يعطينا رأيه فيها. لقد اعتبرها بمثابة بنادق للعـب، وأنها لا تسـاوي قيمتهـا بجانب بندقيته ذات السّـبطانة التي يبلغ قياسـها أربعة أقدام وتتمتع بفتيل قطني[1].

قبـل وصولنـا للمضـارب مرض جمل آخـر، وتمّـت مداواته بنفس طريقـة جملنا. وبعد تسـعة عشـر سـاعة على الطريق دون وقـوع حوادث أخرى، وصلنـا إلى الأرض التي سننصب عليها خيامنا. بعد تجهيز المضارب ووجبة العشاء، استلم كل من سينام في الخيام القسـم الخاص به، وأمضينا الجزء الأول من الليل في نقاشات مطولة حول مشـاقّ الأيام الثلاثة القادمة من السّـفر المتواصل التي نحن مقدمون عليها. أما بالنسبة للموقع الذي خيّمنا فيه فقد كان مناسباً جداً لهجمات اللصوص.

لذلـك، وعند حلول الغـروب، تمّ توزيع الحراس حول المخيّم الذي يحوي سـبع خيام. تمّ تخصيص أربعة منهم لقسـمنا من المضارب، والآخرين على يميننا ويسـارنا لحماية النائمين من فقراء الحجيج. وبعد الغروب كلما سُمع صوت طلقة واحدة، كان يتبعهـا وابـل من طلقـات كل ما في المضارب من سـلاح، لتطغى علـى الليل أصوات الانفجارات تفوق انفجار البارود. كان النوم بالنسبة لي مستحيلاً، بالرغم من أن معظم أصحابي كانوا يغطّون في نوم عميق.

(1) وهكذا كان اسمها لدى البدو: بارودة أم فتيل.

بعـد ذلـك، وقـف مربّـي الأميـر "moonshi" وخـرج مـن الخيمة، وليـس الأمر بمسـتغرب، لكـن بعـد ما رأيت يـداً تندفع بخفة آتية مـن الخارج، لتبدأ بسـحب أمتعة المدرّب، اندفعت خارجاً على وجه السّـرعة مسـتلاً سـيفي المرهف، ولولا أني رأيت الخواتـم علـى أصابعه، لكنت قد قطعت يد المربّي اليمنـى. فما كان مني إلا أن دعوته للدّخول وأخبرته ما كان سيحدث نتيجة لمحاولته اختبار تيقّظ الحرس محاولاً سرقة أمتعتـه الخاصـة. لقد فوجـئ العجوز بكلامي، ولكن ماذا تسـاوي صدمتـه أمام الفزع الذي انتابني تلك الليلة؟

بالرّغـم من عدم تكليفـي بمهمة حرس تلك الليلة، فقد بقيتُ مسـتيقظاً حتى الثانية فجراً. وبعد إزالة الجيش الجرّار الذي كان يجتاح مؤخرة عنقي، وتشـتيت فرقة أخرى مـن القاذفـات الطائرة التـي كانت تقضّ مضجعـي آتية من الخلف، خرجت لأتمشّـى وأحـرق بضـع لفافات من التبـغ. لأتذكر أحد أصحابي في صفـوف الجيش البريطاني بكلامـه الفصيـح الـذي يلقيه على الأسـماع عـن صعوبات العـودة مـن الفوضى إلى الخدمة في صفوفه. وبتلك المناسبة، تعلّمت أن أقدّر المنزلة التي أُعطيتها.

بيـن خيمتنـا وخيمـة نسـائنا كان تفصـل قنـاة هـي الأقصر فـي محيـط المضارب. وسـرعان ما تنبهت إلى وجه الشـبه بين كاحل الإنسـان وحبل الخيمة، واكتشـفت من خـلال تجربتين لا تقبلان الشـك، في مناسـبتين مختلفتين، وتم القيـام بهما بطريقتين مختلفتين أيضاً، بأن العظم الأمامي لدى الإنسان، غير مخصّص لدفع أوتاد الخيمة.

وصلـتُ بعد ذلك إلى معالف الجمال التي كانت تحيط بمضاربنا، لأعاني من تلك الجمـال ما عانيت، خاصة أنها التهمـت نصف ردائي. ودّعتُ أقرب الحراس متمنياً له التوفيق، وابتعدت عشرين أو ثلاثين ياردة في الظلام، لأجلس على قبر حديث العهد، وأشـعل لفافـة تبغ. وإذا باثنين مـن البدو يتبعانني خارج المضـارب، لكنهما تواريا في الظلام عن يميني، ولـم أعرهما أي اهتمام.

كان مظهر المخيّم يوحي بالتجهّم، والنوم قد جفا جفون نزلائه، فاسـتحال المشهد نهاراً بالنيران التي أوقدت هنا وهناك، وكانت حلقة من النيران يبتعد كل منها عن الآخر

خمسة عشر ياردة أو ما يقارب، تحيط بالمضارب إحاطة السّوار بالمعصم، تولّى الحراس شأنها. ناهيك عن الحركة التي أحالت الليل نهاراً، وما ذاك إلا للتجهيزات التي كانت تُتخذ، طهواً للطعام وتهيئاً للانطلاق مع أول خيوط الفجر.

جلستُ لبعض الوقت، ولم أكن قد أنهيتُ لفافتي عندما سمعت صوت خدش خفيف على الأرض قريباً مني. في البداية، لم ألقِ بالاً للأمر حتى أني لم أتنازل بأن أدير رأسي لأنظر ما الخطب، ولكن حالما أنهيت لفافتي رميت بالعقب وألقيت نظرة فوق كتفي. حسناً فعلت إذ شاهدت شبحاً بالقرب مني، جاثياً على ركبتيه، وواضعاً يداً على الرّمال، ويداً أخرى متهيئة على خنجر معقوف عريض، كان جاثماً على الأرض بهيئة رجل ذي لحية قد غزاها الشيب. بجزء من الثانية كان يمكن له أن يغمد الخنجر في ظهري، وأن أصبح بخبر كان، حتى قبل أن أتوجع قائلاً آه.

لم أكن لأتمنى أن أقع بحياتي في مأزق كهذا.. ولم أعد أتذكر كيف وصلنا للمرحلة التالية، وكل ما أتذكره أنني أقف الآن بمواجهة هذا الرّجل الذي وقف بدوره أيضاً على بعد ذراع مني، رافعاً خنجره. نزل حزام سروالي قليلاً من مكانه، فاضطررت لرفعه بيسراي، ولو هممتُ بقتال خصمي لأصبح سروالي في الأرض. استغربت لأنه لم يبادرني القتال أو يأت بأية حركة. تسمّرنا في مكاننا دون أن يرفّ لأحدنا طرف أو تتحرّك يد لدقيقتين كاملتين. أستطيع وصف حالتي حينها بالهلع الشديد. لقد أحسستُ إلى أية درجة كنت في حال لا أحسد عليها، وكم هو الضعف والعجز الذي يعتريني، والتوتر الذي يفترس أعصابي. أو أن الشعور كان عبارة عن فرط دهشة وتقزّز لرؤية أحدهم أمامي يريد قتل كائن حيّ لمجرّد القتل. يبدو أن وجهي الشاحب وتصرّفاتي المتوترة قد شلّت حركة الرّجل الواقف أمامي تماماً، وشعرت أنه قد بات لزاماً عليّ أن أضع حداً لهذه المهزلة التي تقع فصولها أمامي.

ما كان مني إلا أن جمعتُ قبضة يدي اليمنى بكل ما أوتيت من قوة ووجّهتُ له لكمة سريعة وقوية استقرت تحت أنفه الطويل، ملقية به على ظهره، ليسقط الخنجر من يده على الرّمال. ما إن سقط على الأرض حتى رأيت رجلاً آخر، كان مستلقياً خلفه

علـى بعد خمس ياردات على الرّمال، وهو يهبّ واقفاً على قدميه مسـلماً قدميه للرّيح ومختفياً في العتمة. لقد حمدت الله أنه لم يكن بحوزتي مسـدّس وإلا لكنت قد قتلت الرّجليـن كليهمـا. بذلك، قمـت بوضع يدي علـى الخنجر ثم أحكمـت النطاق حول خصري. كان البدوي مستلقياً على قفاه يتأوه، كمن يظن نفسه بأنه تعرّض لأذى شديد.

لقـد كلتُ له رفسـة قوية علـى الضلوع، وإذا به يضـع يده اليمنى علـى فمه ثم على عينيه، وينادي «يا الله»، ليرى الدّم يتدفق من أنفه. لم يسـتطع، رغم تضرّعه باسـم كافة الأنبيـاء والأولياء، أن يعرف بماذا ضُرب، ولربما كان يظن، نظراً لغزارة الدّم أن رأسـه قد شُطر إلى نصفين. بعد ذلك بدا لي أن أطلب المساعدة، ولا أعرف بالضبط لماذا لم تخطـر تلـك الفكرة على بالي من البداية، عندما فرّ زميله بعيداً. لقد قمت بسـحبه على مهـل مـن لحيته الطويلـة، منادياً أقرب حارس بأني قد أمسـكت بلـص، وخلال بضعة دقائـق كنـت أقص روايـة بطولاتي وأمجادي على حشـد مـن المعجبين مـن الحجّاج المدجّجيـن بالسّـلاح الذين تجمعوا حولي، ولم يصدقوا كيـف أنني مررت بكل تلك الأحداث وأنا مجرّد من السّلاح.

اقتدنا سـجيننا إلى المضارب لنسـلّمه للأمير و«شيخ البؤسِـن». وعلى نور مصباح الخيمـة نظـر العجوز البائس المقبـوض عليه نظرة رعب، مع الدّم الذي يشـخب على لحيتـه البيضاء، مخضبـاً كلتا يديه وصدره. لقـد تمّ التعرف عليه ليتضـح أنه واحد من سائقي جمالنا. لم ينبس ببنت شفة مدافعاً عن نفسه ومبيّناً عذره، حتى أنه لم يفصح عن اسـم الرّجل الآخر الذي كان برفقته. صدر حكم باسـمه بظرف سـاعتين، ليتمّ إعدامه رمياً بالرصاص بعدئذ، واعداً إياه بأن تبقى عيني ساهرة على الدوام.

* * *

بمـا أننـا صرنا نعانـي نقصاً في الجمال، فقـد تم الاتفاق على أن يقـوم بعض الذين يحظون بمقعد لهم على ظهر جمل بالتناوب على امتطاء الحمار كل ساعة أو ساعتين. بذلـك صار بإمكاني أنا وصاحبي أن نمتطي جمـلاً في البداية ثم ننتقل إلى جمل آخر. وقبل مغادرة مخيمنا، قمنا بتعبئة كل وعاء يمكن أن يحمل الماء، لأن وصولنا إلى البئر

القادم يستغرق ليلتين كاملتين، ولن يكون بمقدورنا التوقف حتى الوصول إلى مصدر الماء التالي. مما أثار استغرابي وبالكاد صدقته أن نصف متسولي القافلة استطاعوا الوصول إلى المرحلة التالية. إذ أنه على الأغلب أننا نعاني نحن من نقص المياه، برغم أننا على جمل محمّل بقِرب المياه، فضلاً عن ثلاثة غالونات في كل هودج، ولربما ثلاثين غالوناً في قدور الطبخ، في آخر مرحلة من السّير.

مع ذلك، كان معظم المشاة الذين انطلقوا للسير معنا يحملون وعاء صغيراً من المياه يمكن أن يأتي التبخّر عليها في الوقت الذي يكونون في أمسّ الحاجة إليها. يكاد المرء لا يحسّ بأية شفقة صادقة تجاه أولئك الناس، وحتى هم لا ينتظرون الشفقة من أحد، ففي مفهومهم لا يوجد شيء اسمه التعبير عن الامتنان لأحد. كانوا ينظرون للموت تحت التعذيب (الأمر الذي تعرّض له العديد منهم)، قضاءً وقدراً، لا يمكن السّعي إليه ولا يمكن تجنّبه، إذ يمكن أن يعرض لهم مثله مثل أي من الحوادث الأخرى الطارئة على هذه الحياة. لذلك فإن فهمهم لهذا النوع من الأمور يخفّف كثيراً من شفقة الناس وتعاطفهم معهم.

لقد قدّمتُ الماء لأحدهم ممّن كان مشرفاً على الهلاك من العطش، فعادت إليه الرّوح، وسمعت صوته وهو يحمد الله من أعماق قلبه، دون أن يتوجه إليّ بشيء من الامتنان. لو أنني لم أسقه الماء لما بقي على قيد الحياة، ومع ذلك توجه بالشكر لله وحده، ولم يشكرني على الإطلاق!

* * *

في السّاعات الأربع عشرة أو الخمس عشرة الأولى شققنا طريقنا عبر ممرّات ضيقة بين الجُروف العالية. مارّين أحياناً فوق صخرة جرداء، وأحياناً صاعدين أو نازلين منحدرات خفيفة، أو عبر وديان من الضيق بمكان بحيث لا يمكن لجملين عبورها في آن واحد. كان أحد الجمال من مجموعة أخرى يعبر منزلقاً أمامنا فإذا به يسقط أرضاً. وكما هو معروف فإن سقوط جمل مثقل بالأحمال يختلف تماماً عن قعوده طوعياً: إنه يعني طامة كبرى، يعني هودجاً محطماً وعظاماً كسيرة لكل من الرّاكبين والجمل.

تجمّع عدد منا لننظر ما الخطب، وإذا بالجمل ملقى على جانبيه دون حراك. لقد تعرّض لعدد من الإصابات التي تفرض تركه في الصّحراء هو الآخر دون إكمال الرّحلة. لقد أصبح الهودج كقبعة مقلوبة، والقبعة أصبحت أشرطة مبعثرة. أما الهنديان العجوزان اللذان كانا فيه فقد انسلّا خارجين من الحطام دون أن يصيبهما أذى لحسن الحظ. ما أجمل وألطف ما كانا يتكلّمان به من عبارات تنم عن شكرهما لله، حيث كان أحدهما يقول: «إن الله ينجي عباده الصّالحين».

كانت بعض الجروف الصّخرية التي مررنا بها ترتفع ألف قدم عن الأرض، وبعضها الآخر يتعامد مع الأفق على شكل طبقات وصدوع متوازية بمنتهى الدقة وكأننا أمام آية عمرانية ضخمة من صنع البشر. قبيل المساء مررنا بدرب يقال بأنها شهدت مقتل ثلاثة آلاف من المغاربة على أيدي الغزاة قبل ثلاث سنوات من ذلك. وبالفعل فقد كان ذلك المكان مليئاً بالعظام أكثر من أي مكان آخر مررنا به حتى الآن، وعند المساء بدا المشهد في غاية الرّهبة.

ما هي إلا سويعات حتى انبلج الصّباح لأجد نفسي على الحمار، وعندما أسفرت الشمس تبين لنا أننا قد غادرنا المنطقة الصّخرية وانبسط أمامنا سهلٌ رملي مترامي الأبعاد. إن كل ياردة يقطعها الإنسان في ذلك القفر المجدب، الذي تذرعه الأشباح جيئة وذهاباً تغمرك بالكآبة والانقباض أكثر من عبور مئة ميل في محيط متلألئ برّاق يفيض بالحيوية، حتى لو كان البحر الأحمر بذاته، وبدرجة حرارة تبلغ المئة في الظل؛ لا يمكن أن يكون شيء في الدنيا أبأس من تلك الصّحراء.

بمرور الوقت كانت مأساة العديد من المشاة على أقدامهم تزداد وتزداد؛ أنظر إليهم فأراهم يجرجرون أقدامهم بتثاقل متفيئين ظلال الجمال وقد انحنت ظهورهم، وألجم التعب أفواههم عن الكلام والشكوى، بينما كان بعضهم الآخر يرفعون أصواتهم بالدّعاء والابتهال فتخرج كلماتهم جافة متهالكة من شدة العطش. وممّا تكرّرت رؤيته الحفاة العراة الذين لا ينتعلون شيئاً، اللهم إلا حذاءً رثاً بالياً تحمله أقدامهم الدّامية المتورمة. ومما يدمي القلب منظر أقدام بعضهم وقد التفت الدوالي حولها

منذرة بالألم والعذاب. مع آلامهم ومعاناتهم سوف أتخطى الأهوال، علّي أنهي رحلة العذاب تلك.

كان من بين من يرافقنا امرأة هندية بهية الطلعة هي وأولادها الثلاثة، أطلعتني فيما بعد على كامل قصتها. لقد كان زوجها تاجراً بسيطاً في بومباي، وقبل سنتين سلّم إدارة أعماله لزوجته وانطلق حاجاً ملبياً إلى مكّة، وبرغم الصّعوبات التي اعترضت طريقه، حمله حماسه إلى المدينة، ليعرض له الكثير من المتاعب الصّحية جراء آلام السّفر، ومما زاد الطين بلة إفلاسه على الطريق، لذلك فقد خشي المجازفة في العودة، فكتب إلى زوجته في الهند بأنه يؤثر البقاء في المدينة بقية أيامه. عند استلامها الرّسالة، ما كان من تلك المرأة الباسلة إلا أن أقدمت على بيع كل ممتلكاتها وانطلقت إلى حيث زوجها.

عندما تعرّفت عليها كنا بعيدين مسيرة ثلاثة أيام عن مكّة، حيث كانت تسافر بكل شجاعة وحدها، برضيع على صدرها، وصغيرين آخرين في الرّابعة والخامسة تجرّهما من أيديهما جراً، وهما صبي وفتاة. كان صمود تلك المرأة في رحلة العذاب تلك عجيباً، ويكمن نجاحها في أنها استطاعت العناية بصغارها والحفاظ على حياتهم طوال الرّحلة. ولولا القليل من الطعام الذي تحصّلتُ لها عليه لماتت جوعاً هي وصغارها، وما هو إلا بعض الوقت حتى سمع بقصتها بعض من أغنياء الحجّاج، وأعجبوا بصبرها وثباتها أيما إعجاب، حتى أنهم حملوا أحد صغارها معهم على الجمال لبضع ساعات. لقد كانت تلك المرأة المسافر الوحيد في قافلة الحجّ الذي شعرت معه بالتعاطف والشفقة. لقد كانت تسير بدافع من مسؤوليتها وواجباتها كأم.

كانت هذه المشاهد ومثيلاتها مؤلمة حقاً. فعلى سبيل المثال هناك عجوز قد تورّمت قدمه اليمنى أيّما تورم، لكنه ظل صامداً حتى قبيل ست ساعات من نهاية تلك المرحلة، عندها فقط ظهرت عليه أمارات الإعياء الشديد مما ينذر بدنوّ أجله. لكن معظم الرّجال الذين بلغ بهم الإعياء منتهاه، كانوا يعمدون إلى الإسراع نحو جمل المقدمة والاستلقاء على الرّمال حتى يمرّ بهم آخر جمال القافلة. إلا أنهم ما إن يقوموا بذلك حتى يغطوا في النوم. راقبت أحد كبار السّن في القافلة وهو واقف لمدة

ساعتين، لكن قواه خارت في النهاية فما كان منه إلا أن استلقى أرضاً. وآخر من مر بذلك السّاجد من البدو أوقفه بعقب حربته، مومئاً إليه بسخرية أن يتحرّك، إلا أن كل ما نطقت به شفتاه العطشتان بضع صلوات وهلوسات، وتخلّف الرّجل في الصّحراء.

كانت كل الجثث التي مررنا بها في الصّحراء بلا رؤوس، مما يثبت صحة أن الرّجال الذين يمرّون بأعقاب قافلة الحجّاج يقطعون رؤوس وأيدي كل من يصادفون من المتخلفين عن القافلة سواء من المحتضرين أو المتوفين.

* * *

باقتراب منتصف الليل من آخر يوم من ذلك المسير لم أكن لأصدق وجود ماء في القافلة برمتها، بعد أن تبخّرت كل قطرة أو شُربت، ولا يزال أمامنا ثلاث عشرة ساعة، معظمها تحت الشمس اللاهبة. صحيح أنني مررت بفترات أطول دون ماء وتحت ظروف مشابهة، إلا أنني كنت قوياً فتياً تملؤني العزيمة والهمّة. ولم أكن لأستطيع التفكير في مقدار العذاب الذي يلاقيه هؤلاء من توجّب عليهم المسير، حتى أني صرت أترقّب بزوغ شمس اليوم التالي ببالغ الخوف. لكن ما إن طلعت تلك الشمس، حتى تنزلت علي السّكينة بعض الشيء لرؤية أن معظم الناس الذين صمدوا حتى الليلة الماضية، استطاعوا الاستمرار حتى هذه الليلة أيضاً، وعاودنا الأمل لاقترابنا من الآبار، لذلك لا بدّ لمعظم الناس أن يتحملوا أنفسهم بضع ساعات أخرى.

يا له من موقف عصيب ذلك الذي أحاطت بنا حبائله، سواء كنا بدواً أم حجّاجاً. حتى الجمال أصبحت أكثر توتراً واضطراباً من ذي قبل وصارت تقوم بحركات غريبة بأعناقها الطويلة لتمنعنا من امتطائها أو النزول عنها. كان لبعض الاشتباكات بين البدو والحجّاج نصيب من الأحداث، حتى أن أحد الحجّاج أصيب بضربة سيف. ومرة أخرى تُترك أربعة جمال في الصّحراء. مع العلم بأننا طوال المرحلة الأخيرة لم نستخدم ماءً لوضوئنا قبل الصّلاة، وبدلاً عن ذلك كنا نعمد إلى التيمّم، كما يسمح الشرع في مثل تلك الحالات.

* * *

الفصل الرّابع

التوقف في رابغ

بعـد إشـاعات بـأن رابغ باتت فـي مرمى نظرنا، سـاهم في نشـرها الحجّـاج الذين خُدعوا بالسّـراب، أشار البدوي قبل سـاعتين من الظهيرة إلى أكمة نخيل ظهرت فجأة وسط السّهل على مسافة ميلين أمامنا.

ورغم أن رابغ بدت قريبة جداً منا عند رؤيتها لأول مرة، فقد استغرق الطريق ساعتين إلـى حصنهـا التركي، الذي يبعد ميلاً عن المرفأ حيث كان قاربان أو ثلاثة يتجهان نحو المرسـى، وعلى قـرب منه يجري جدول مياه هو الأكثر عذوبـة في الحجاز. للوصول إلـى الأرض التـي من المفترض أن نخيّم فيها، كان علينا أن نعبر ذلك الجدول، وهناك تفرّق الناس بانتظام حالما لاحت المياه للأنظار. حتى الجمال المنهكة بدأت بالهرولة تجرّ خطاها المتثاقلة، فليس بمقدورها الصّبر على عطشها أكثر من ذلك.

انتشـرت جمـوع الحجيج والبدو فـي كل مكان أعلى وأسـفل الجـدول، أو تراهم نزلوا فيه يرشون بعضهـم ويرشفون من معينه، ويطفئون أوار نارهـم وحرارة جواهم بعد النجـاة من جحيم الصّحراء، بينما تابعت بقية القافلة سـيرها نحـو مكان التخييم الذي يبعد عنهم مئتي أو ثلاثمئة ياردة، وهو عبارة عن ساحة ذات أرضية زلقة تحت جدران الحصـن التركي، الذي هو مبنىً مربع الشـكل يبلغ مئات اليـاردات من كل جانب، أما جدران الشـرفات فكانت على ارتفاع ثلاثين قدماً منتصبة شـاقولياً عن الأرضية، دون أيّ خنـدق حوله أو أية تحصينات أخرى. لكـن كلاً من زوايا الحصن كان يعلوها برج علـى رأسـه مدفعا سـفينة من عيار اثني عشـر، قـد أكل الدّهر عليهما وشـرب فأصبحا

عديمي النفع. ووسط الجدار تنفتح بوابة كبيرة في مواجهة البحر.

في الضواحي انتشرت أكواخ البدو التي تناهز المئتين، حيث يمكن الحصول على السّمك ولحم الضأن والخضار الطازجة، أما محيط البلدة فكان مكتظاً لمسافة ميل أو اثنين على كل جانب بنخيل التمر. وعقب ذلك تمّ نصب الخيام، وإحضار كمية كبيرة من المياه والتموينات. سرعان ما حظينا بعشاء عامر وساخن، إذ أن كل ما تناولناه طوال الأيام الثلاثة الفائتة كان كمية من الأرز المسلوق البارد، وأرغفة من خبز قديم شارف على التعفّن، وبضع تمرات جافة، وهكذا فقد كان السّمك الطازج والخضار التي تمكنا من الحصول عليها موضع ترحيب كبير لدينا، وساهم إلى حدّ بعيد في تحسين مزاجنا ورفع حالتنا المعنوية.

وصل «شيخ البؤسِن»[1] إلى رابغ قبلنا بأربع وعشرين ساعة على جمله السّريع، وقد أبلغنا أن هناك مجموعة من الخيالة الأتراك قد حطّت رحالها على مسيرة يوم أمامنا وقد سُرق لهم حصانان، لقد بدا في حال من التركيز الشديد هو والبدوي الآخر الذي كان برفقته، وكأنهما كانا يفكران في أي نوع من الانتقام سيقوم به الأتراك. لقد أخبرنا كذلك بأنه كان متأكداً من أننا قد خسرنا من قافلتنا اثنين وخمسين حاجّاً وتسعة جمال، وقد عزا بالفضل الكبير لنفسه تمكنه من إحضار مجموعتنا مع تكبّد خسارة ضئيلة تمثلت في خسارة جمل واحد.

كان الجنود الأتراك مصدر إزعاج كبير لي، إذ أصبحت ملامح وجهي الشقراء أكثر وضوحاً وتميزاً بين الهنود. وأذكر أنه في مرتين أو ثلاثة كانوا يوجهون الكلام إلي بينما هم سائرون في السّوق، وقد سألني أحد الضباط كبار السّن كان يتجول في معسكرنا عندما رآني جالساً بالقرب من النار، فيما إذا كنت من الملايو، ولكي أوفّر على نفسي تقديم المزيد من الإيضاحات أخبرته أنني كذلك، وقد أرضاه جوابي هذا.

لقد وجد لنا كابوسنا العجوز جملاً جديداً أعطاه اسماً مثل اسم جمله الهالك،

---

(1) ذكرنا فيما سبق أنّ العبارة الإنكليزية Bo’sen اختصار لكلمة: boatswain أيّ فتى المركب، البحّار. وهكذا تُلفظ بلكنة البحّارة العاميّة.

وقـد تبيّـن لنـا أن جملنا الجديد «مبـارك» كان حيواناً مـن الطراز الممتـاز، حملنا بكل يسـر وسـهولة حتـى وصلنا إلى المدينـة «يجـب ألا يتواني الرّجل عـن الحصول على جمل رائع». مع حلول المسـاء تراءى لنا البحر علـى مقربة، فانطلق القليل منا ليحظوا بغمرة، لكنهم بعدما مشوا لنصف ساعة بدا لهم أن ذلك السّراب يبعدنا أكثر عن الماء، واعترانـا خوف داهم من أن نبتعد أكثر عن المعسـكر، وبالتالـي فقد عدنا أدراجنا دون أن ننعم بالسـباحة، وفي الليل أخرج الأمير سـلاحه واصطاد زوجاً من الحمام من بين الأعداد الكبيرة التي كانت تطير بالقرب من المدينة.

أمّنت لنا البنادق التركية حماية تامة من اللصوص، بحيث لم يعودوا يشكلون لنا أي إزعاج، ولم يعد ثمّة حاجة لنشغل بالنا بهم وهكذا وحيث أننا كنا في قمة الإرهاق فقد حظينا بنوم هانئ، أما بالنسـبة لي فقد كانت تلك هي الليلة الأولى التي أهنأ فيها بالنوم منذ كنت في مكّة، برغم كل ذلك الصّياح والعواء من الكلاب التي كانت تروح وتجيء خلسـة حول المعسـكر. في الصّباح الباكر نهضنا جميعا يغمرنا شـعور بالراحة وروح معنوية عالية، وقد بدا لنا أن الكلاب تسبّبت بأضرار أكثر مما عانيناه من اللصوص، فقد أصابـت ليلاً حقيبة مملوءة بلحم الغزال والتهمـت معظم محتواها قبل أن يتم افتضاح أمرهـا، وهكذا ذهب الأمير مصحوباً بأربعة من الرّجـال الآخرين كنت أنا برفقتهم في محاولة لتعويض تلك الخسارة من خلال صيد بعض الحمام، وربما قد يحالفنا الحظ باصطياد غزال في منطقة تبعد حوالي الميل عن النبع.

وحيث أنني كنت متسلحاً ببندقية مزدوجة وبالعديد من الطلقات في جيب سترتي، فلم أكن خائفا من اللصوص بأي حال، عدوت لمسافة قصيرة نحو بقعة من الأعشاب الطويلة كانت تبدو مكاناً ملائماً، وقمت باسـتدارة باتجاه نباتات الخيزران على مبعدة مـن مرأى رفقائـي وعندما نهضت لمحت أمامي زوجاً من طائر السّـمان، ولكم كانت دهشـة البدويين اللذين كانا يتبعاني عظيمة عندما شـاهداني وأنا اصطاد الطائرين يميناً وشـمالاً، وقـد اعتبـرا تصرفـي هـذا عملاً لا يصـدر إلا عـن المجانيـن إذ أنني أصبت الطائرين في الجناح، لكنهما ما إن شـاهدا الطائرين يسـقطان حتى هُرعا لينشرا مأثرتي

البطولية تلك في طول القرية وعرضها.

من النادر أن يغامر الأمير وبقية أفراد جماعتنا بمحاولة إطلاق النار على أيّ كائن في وضعية الحركة طالما كان بإمكانهم اصطياده من مكان قريب عندما يكون على الأرض، وهكذا فقد ارتأيت لاحقاً أن أقوم بتقليدهم إذ لم تكن لدي الرّغبة في أن ألمّع اسمي أو أزيد من شهرتي بينهم، لقد كنا نصوّب بلا هدف ومع ذلك فقد عدنا بجعبة مليئة من بين أسراب الحمام الطائر حولنا، وقد أسقط بعضنا ستة أو سبعة برشقة واحدة من الرّصاص. وقبل أن يأتي وقت الإفطار كان لدينا أكثر من ثلاث وثلاثين من طيور الحمام وزوج من طائر الحجل بالإضافة إلى طيور السّمان التي اصطدتُها.

وهكذا فقد كان اليوم بطوله أمامنا للقيام بما يحلو لنا، إذ أننا لم نكن سنبدأ قبل حلول الليل. تناول البعض من جماعتنا شيئاً من الأفيون وغرق في نوم عميق، بينما قمت بنزهة مشياً على الأقدام في القرية، لأرى أن شهرتي قد سبقتني إلى هناك، وتناهى إلى سمعي كلام من أحد البدويين إلى آخر يخبره عن تلك الطلقة العجيبة التي رآني أقوم بها ذلك الصّباح، شعرت بأنني أقطع شوطا بعيداً على مسالك الشهرة بفضل رصاصاتي المتطايرة وبراعتي.

ولكن عند عودتي إلى المعسكر في تلك الليلة انقلبت الأمور ووقف الحظ معانداً في وجهي، عندما باغتني ملل شديد فعزمت على تغيير روتيني اليومي وإدخال بعض التعديلات على طعامي والقيام بتجربة أكلات جديدة، في البداية خطر لي أن أجهز فطيرة بالحمام مع البطاطس، إلا أن الطاهي أخبرني أن كل حبة منها تكلف قرشاً كاملاً، وبأنها مخصصة لإعداد Englishishtoo أو اليخنة الإيرلندية الخاصة بالأمير (وهي بالمناسبة يخنة سيئة الطعم إلى حدّ بعيد)، أو لإعداد شرائح لحم الحمل (وهي لا تقلّ عنها سوءاً كذلك)، وبالتالي فهو لن يضحّي بأي منها من أجلي، وهكذا فقد توجّهت إلى الأمير وسألته فيما إذا كان يرغب بأن أجهز له طبقاً لذيذ الطعم يحظى بشعبية كبيرة بين البحّارة مع أنه سهل التحضير ولا يستغرق إعداده إلا وقتاً قصيراً سواء كان ذلك على متن سفينة أم في جوف الصّحراء.

ما كان منه إلا أن استدعى كبير الطهاة على الفور وأخبره بأن يزوّدني بكل مساعدة ممكنة لإعداد ذلك الطبق، ويا له من طبق فقد بدأت متاعبي الحقيقية منذ ساعة إعداده، وأعتقد أن القارئ الكريم لديه تصوّر عن الكيفية التي جرت عليها الأمور. لقد كان لدينا في المخزن دقيق ودبس، وكانت الفكرة التي خطرت لي أن أقوم ببساطة بتحضير لفائف من العجين وأحشوها بالدبس وذلك غاية في السّهولة، لكن الأمور لم تسر كما كنت أظن . إذ أن كبير الطهاة الذي كان ينظر إلى نفسه كأعظم فنان في مجال عمله في الهند على الإطلاق، وأنه لا يوجد طبق على وجه الأرض لا يمكنه القيام بتحضيره (حتى لو كان ذلك الطبق طبقاً أجنبياً بسيطاً جداً)، قد ضاق ذرعاً بتدخلي وأصرّ على إعداد طبق الحلوى بنفسه.

اكتشفت لاحقاً أنه شديد العناد بعد أن وجهت إليه القليل من الإرشادات، وفي النهاية شعرت بالملل ونفضت يدي منه، ولم أعد أفكر فيه أو في طبق الحلوى، وأخذت أشغل نفسي بعمل أكثر فائدة في تركيب الهودج وتجهيزه لجملنا الجديد، وبعدما انتهيت استلقيت فيه وبدأت أدخّن بشراهة، وهي عادة اكتشفت أنها تنسيني توقي الشديد لتناول وجبة من طعامي المفضل الذي لا يمكن الوصول إليه.

رأيتُ طعام العشاء يُحمل إلى الخيمة وكنت أفكر في أن أذهب لآخذ مكاناً على فرش المائدة، إلا أن صيحة فزع انبعثت من الخيمة دفعت بي إلى لدخول بأسرع ما يمكنني، لأرى تعابير الرّعب مرسومة على كل الوجوه، بينما وقف كبير الطهاة غارقاً في بؤس صامت، وأشار إلي في البداية عندما دخلت، ثم إلى طبق الحلوى الموجود في منتصف الفرش، لقد وضع لمسته على طبق الحلوى الذي اقترحته إذن، وماذا كانت النتيجة؟ لقد قرّر أن يبتكر ويبدع مدفوعاً بأصالة وحمية شرقية وأن يضفي مسحة من الصّرامة والوحشية المطلقة على طبق بسيط نسبياً حسب علمي من اللفائف المحشية، وها هي اللفائف تنحرك ملفوفة في الطبق. كانت صغيرة الحجم لا تتجاوز قطة برية ولكنها بدت كوحيد قرن هائج. لجأ الجميع إلي لإنقاذهم، فسرعان ما تناولت ملعقة معدنية وقمت بمعالجة الحلوى بضربات خاطفة في وسطها إلا أن ذاك السّلاح انزلق

بعيداً عن قشـرتها اللامعة، ومن خلال ضربة خاطفـة ثانية دقيقة التصويب تمكنت من إصابة ظهرها وأوقفتها في آخر الأمر.

عبّـر الجميع عن شـعور من الرّاحـة المبهجة التـي غمرتهم، حيث كشـفت الفتحة فـي الحلـوى الكثير من الأمور العجيبة، ومنها أن الطاهي قد نسـي أن يضيف مكوّنات بسـيطة مثل الدّبس والسَّـمن، ومـع ذلك فقد كنت أعتقد أنها مـا زالت صالحة للأكل. وهكذا ولكي أضيف لمسـة ضاحكة على الموضوع قمت من خلال ضربة سـريعة من سيفي الصّغير بنزع قشرتها، ومن ثم قمت بوضع القليل من الخراطيش المعبأة بالبارود لتفجيرها، ونجحت في النهاية ودون جهد كبير في تفكيك أجزاء من المادة الموجودة داخلها. والآن يمكنها أن ترقد بسلام. لقد كان ذلك الطبق فشلاً ذريعاً وتحمّلتُ كامل اللـوم لهـدر أربعة أرطال من الدّقيـق وهي مادة كانت عزيزة في ذلـك الوقت ولم يتبقَ لدينـا الكثيـر منها، وبطبيعة الحـال لم يكن الأمـر برمّته على ذلك القـدر من الأهمية، وتابعنا تناول وجبتنا من المأكولات الأخرى التي كانت موجودة على المائدة.

وصلت اسـتراحتنا إلى نهايتها، وحان الوقت لكـي نتحضّر للانطلاق في الصّحراء مـن جديد. وعند المغيب، تمكّن معظم الحجّاج المتسـولين من تأمين كمّية وافرة من الـزاد، وتوافـرت لدينا كمية فائضة من المياه، مع إمكانية إشـعال النار إذ أننا تمكننا من شـراء كمية من الحطب، وبالتالي لم تكلفنا اسـتراحتنا الأخيرة الكثير، وأخيراً شـرعنا بالانطلاق تغمرنا السّعادة لعلمنا بأن أسوأ ما في رحلتنا قد انقضى.

* * *

أصبحـتُ معتاداً على حركة الجمل إلى حدّ بعيـد حتى أنني أصبحت أغفو لفترات بسـيطة ولمرتين أو ثلاث خلال الليل. مع مرور الشهر أصبح القمر بدراً وحظينا بنوره للقسـم الأكبر من الليل، الأمر الذي كشـف لنا عن العديد من الهياكل لعظمية للجمال التي قضت على جانب الطريق بطريقة مروّعة، لكن النور قد أضفى على وضعنا شعوراً بالتحسّـن بأي حال. انقسمت جمالنا التي كانت تسير على خط واحد طويل إلى أرتال صغيـرة مكوّنـة من جملين أو ثلاثة وفي بعض الأحيان أربعة، تسـير متراصفة جنباً إلى

جنب في طريقها على الأرض الصّخرية المنبسطة المتماوجة، وكنا قد حصلنا على كمية لا بأس بها من المشاعل في رابغ وتركنا الكثير منها مضاءً في الليل، فكان من السّهل تأمين نار لإشعال النّرجيلة من أقرب جار يحمل مشعلاً. أما عن المياه فقد كان لدينا الكثير ممّا يكفينا لفترة طويلة، وهكذا فلم يكن من داعٍ إلى التقتير على أنفسنا، كما أننا احتفظنا بكمية احتياطية لأيّ من الطالبين الذين كانوا يبرزون في نهاية القافلة مظهرين عطشاً شديداً، فضلاً عن أننا استطعنا القيام بالوضوء قبل أداء فريضة الصّلاة.

في النهار، لمحنا قافلة أخرى تلوح في الأفق القريب مقتربة منا، وقد أخذت المسافة تقلّ وتقصر بين القافلتين شيئاً فشيئاً إلى أن تجاوزت إحداها الأخرى كما هو الحال بالنسبة للسّفن في البحر التي تمرّ متجاورة على مسافة قريبة تكفي لإلقاء تحية عابرة. وقد تحادثنا معهم وعرفنا أنهم جماعة الملايو العائدين من المدينة، وقد بدا ذلك واضحا بشكل جلي من وضعهم وحالتهم والنظام الذين كانوا عليه، ولم يكن أي واحد منهم يسير على قدميه باستثناء البدوي الذي كان يحدو الجمال.

بحلول الظهيرة نصبنا معسكرنا، في هذه المرة قمنا بنصب الخيام في بقعة خضراء صغيرة لطيفة في وادٍ بالقرب من نبع ماء يترقرق منه جدول يجري بخفة، وأمكننا من هناك رؤية التلال البعيدة من جهة الشمال الشرقي. لكن تناهى إلى سمعنا بأن سكان القرية الموجودة في ذلك الوادي كانوا من أسوأ أنواع اللصوص الذين يمكن مقابلتهم على طول الطريق، وعلى ذلك اتخذنا جانب الحيطة والحذر إذ أنه كان يفترض بنا أن نبقى في ذلك الوادي حتى الصّباح، وبالتالي توجب علينا القيام بمهمات الحراسة وتوزيعها فيما بيننا ليلاً، وقد أخبروني بأن دوري سيحين في منتصف الليل ويستمرّ حتى صلاة الفجر. لم يكن نهاراً حاراً وقد انبعثت نسمات عليلة من البحر بعد منتصف النهار وتوقفت عند المغيب، ولم تنبئ تلك الليلة بطقس بارد كما كانت العادة.

سار على شيء على ما يرام وبكل سلاسة حسبما هو معتاد، فبدأتُ أفكر بأن السّفر في الصّحراء لم يكن بذلك السّوء على أي حال.

بعد المغيب لم تستطع الصّرخات العالية المنطلقة مع وابل الرّصاص لإفزاع الغزاة

المحتملين، إبقائي مستيقظاً لوقت طويل، وعندما أيقظوني لأتولى مهمة الحراسة في منتصف الليل كنت أحظى بأجمل ساعة نوم وأكثرها راحة، فشعرت بامتعاض شديد لأنني سأتجول صامتاً جيئة وذهاباً حاملاً ماسورة بندقية باردة بين يدي، واعتبرت ساعتها أن ذلك كان أكثر الأعمال سذاجة وتفاهة على الإطلاق، إذ أنني كنت متأكداً تماماً بأنه لا يوجد أي رجل في المعسكر لديه أدنى رغبة في إصابة أي شيء كان عندما يطلق النار من بندقيته، أو أنه سيقاوم أياً من اللصوص المسلحين فيما لو قرروا الدخول إلى المعسكر والخروج منه محملين بالغنائم والأسلاب في وضح النهار. كان الرّجل الذي سبقني في نوبة الحراسة هو المحارب الثالث وهو أحد أكثر الرّجال تعقلاً ووعياً في المعسكر، لكنه عندما استحثني على القدوم بسرعة أعطاني بندقية غير محشوة، وعندما سألته إذا كان لديه خرطوش أجابني: «لماذا ترغب بإضاعة الذخيرة، ألا يكفي أن الكثيرين من الحمقى حولك يقومون بذلك؟».

لم تضحكني النكتة إذ كنت في مزاج سيء، وقرّرتُ في نفسي أنه في حال استدعى الوضع أن أطلق النار من بندقيتي فإنني سأصيب الهدف حتماً، سواء كان ذاك الهدف من اللصوص أم لا. وهكذا فقد حملت معي بعض الخراطيش، وقمت بتلقيم البندقية بمجرّد أن استلمت موقعي. مشيت ذهاباً وإياباً لعدّة دورات، وتناولت كوباً من الماء البارد لكي أنتعش وأبقى متيقظاً على نحو كامل، ثم جلستُ أمام النار التي قمت بإشعالها وأخذت أسلّي نفسي بإلقاء قطع صغيرة من الخشب الجاف في النار ومراقبتها وهي تحدث شرارات وتوهجات خاطفة.

ربما كان الحذر إحدى الصّفات التي تميزني، وتلك عادة قديمة اكتسبتها من خلال ليالي السّهر والحراسة التي قضيتها في البحر. بينما كنت أرقب إحدى الشرارات شديدة اللمعان التي انطلقت من النار، تخيّلتُ أنني أرى جسماً داكناً يزحف على الأرض على مقربة عشرين ياردة تقريباً مني. قفزتُ بسرعة لأراقب تحركاته عن كثب، ولم أكن مخطئاً فقد كان هناك جسم منخفض داكن يتحرك بخفة وسرعة في الظلام من شجيرة إلى أخرى، بحيث كان يقترب مني مع كل تغيير لمكانه، خاطبته في نفسي: «مهما كنت

فإنك لم تأتِ بخير».. «ها أنت.. ذا»، وفي المرة التالية التي ظهر فيها في العراء أطلقتُ رصاصــة خاطفة، فســقط ميتاً و أدركت من الأنين الضعيف الــذي أصدره أنه كان كلباً. إثر الضجيج الذي أعقب إطلاق رصاصتي لم يظهر أحد ليستطلع من الذي فعل ذلك. لم أتفوه بأي كلمة عن مأثرتي البطولية تلك في ذلك الوقت، وبقي الكلب المقتول في مكانــه حتى الصّباح، وعندما اكتشـفوه تــمّ توجيه لوم كبير إليّ، وبشـكل خاص عندما أبلغت الأمير بأسفي أن من أصبته لم يكن لصّاً.



الفصل الخامس

جريح

كان إفطارنا ذلك الصّباح هو يخنة الإنغلششتو. من بين كل الأكلات كان ذلك الطبق هو الطبق الوحيد الذي يتمتع بتقبّل ضئيل لدي، وفي كل مرة يطهى فيها كنت أسعى للحصول على حصّة كبيرة، ولقد كنت في الحقيقة مجبراً على فعل ذلك بطريقة ماكرة، إذ أنه لم يكن من صالحي أن أظهر اهتماماً علنياً بطبق أوروبي لا يمتلك تلك السّمعة العطرة، كما أنه لم يحظَ بحبّ أي أحد من المجموعة، وعلى الرّغم من أن الطاهي كان يضع فيه ثلاثة أضعاف الكمية من الفلفل التي يرشها عادة، فقد أعلن الجميع باستثناء الأمير أنه طبق بلا طعم وبلا رائحة، وفي الحقيقة كان الأمير يتظاهر بحبّه فقط لأنه كان بدعة رائجة في ذلك الوقت عندما غادر الهند، ولم يرغب بان يظهر متأخراً عن عصره، على الرّغم من أن البطاطس في الصّحراء كانت عزيزة وغالية إلى حدّ بعيد.

في هذه المرة عندما ظهرت الوجبة انسحبتُ بهدوء ولم أرجع إلا بعد انقضاء بعض الوقت، ثم ذهبت إلى الطاهي وسألته ماذا لديه من طعام، فأجابني أنه لا يوجد أي شيء باستثناء الإنغلششتو المتبقي، وهذا ما توقعته بالضبط إذ أنني كنت أعلم أن أحداً لم يتناول منه الشيء الكثير، وربما لقمة واحدة على سبيل المجاملة للأمير الذي كان يظهر لهم أنه يحبّه. تظاهرت بالانزعاج إلا أنني طلبت منه أن يقدم لي طبقا مليئاً حيث أنني كنت شديد الجوع، وسألته فيما إذا كان بإمكانه أن يقدم لي بعض بقايا الأرز إلى جانبه. قام بذلك، وحملت الطبقين وراء كومة من الصّناديق وجلست على الرّمل لأتلذذ بأكبر كمية ممكنة.

علـى مقربة مني كان ثمـة رجل عجوز قد انتهى لتوه من إجـراء أكثر عملية جراحية مثيرة للقرف على جمل، إلا أنني لم أكترث لذلك فقد كانت طاقتي على التحمّل شديدة في تلك الأيام، وكل ما فعلته هو أنني هنأت نفسي على النجاح الذي أصبته في خطتي الصّغيرة التي قمت بها، وألقمت نفسـي أول قطعة من البطاطس بنهم، يغمرني شـعور بالسـعادة الحقيقيـة لا يعرفـه إلا رجل إيرلندي لم يتـذوق أكلته المحليـة تلك لمرتين اثنتين خلال الشـهور السّـتة الأخيرة، وخلال تلك الأزمة شاهدتُ الرّجل الذي ذكرته يسير مسرعاً باتجاهي وهو يمسح يديه الكدرتين بشعره المتلبّد الأشعث.

كان من المفترض أن يثير مرأى الرّجل وهو ينظف يديه مشـاعر الحذر لدي، ولكن قبل أن أتمكن من إبعاد الطبق أو القيام بأي شيء لردع ابن الصّحراء البار ذاك، كان قد أرسـل يـده ذات الأظافر الكريهة في ضربـة مركّزة إلى منتصف وجبتـي اللذيذة. كنت شـديد المراس في ذلك الوقت، إلا أنني لـم أسـتطع تحمّل تلك الضربة. لقد ذُهل من الطريقـة التـي تمكنـت فيها من رمي الطبـق وبقايا الطعـام عليه، ممّا دفعـه إلى الوقوع جالساً، وعرفت أنه شعر بألم شديد وذلك من الطريقة العجولة التي قام بها برفع اليخنة الملتهبة حرارة عن وجهه وصدره.

كانت رؤية أنه غير مسلح مبعث راحة عظيمة لي، ولـم أشعر بأي آسف على الإطلاق عندما شـاهدته يندفع راكضاً وهو يشـتم بغضب مستعر. أحسست بخيبة كبيرة وبعد أن أطمأنت نفسـي قليـلاً بعد تلك الحادثة مع الرّجل، جلسـتُ سـعيداً لأن الموضوع قد انتهـى ووجـدت أن أفضل طريقة لإسـكات جوعي هي تناول ذلـك الأرز المتبقي، ثم أشـغلت نفسـي بتنظيف الطبقيـن. كانت كل الأطبـاق التي نحملها معنا فـي الصّحراء مصنوعـة إمـا من الصّفيح أو من النحاس، ومهما كانـت المياه وفيرة فإن أحداً لـم يفكر علـى الإطلاق بأن يغسـلها بالمـاء، كان تنظيفها يتم دوماً بالرّمـل الذي ربما كان يؤدي الغـرض المطلوب بصـورة أفضل من اسـتخدام المياه، وكل ما عليـك فعله هو فركها برمل نظيف وجاف إلى أن تصبح لامعة دون أن تعلق بها حبة رمل واحدة.

شـرعتُ بتنظيـف الأطبـاق حسـب طريقتـي وعندما فرغـت وضعتها في الشـمس

وأخـذت أراقب لمعانهـا بإعجاب لبرهة قصيرة، وعندما توقفـت لالتقاطها أدركت ما جـرى، فلقد كانت هناك أداة حديديـة تخترق مؤخر فخذي الأيمن وقد أصابت العظم بشـدة، ثـم انزلقت ومرّت مندفعة نحـو الأمام. فكرت أنها لم تُـرمَ علي من مكان بعيد لأنها دفعت في جسدي لمرتين وعندما أحسست بأنها كانت تُسحب، تأكدت من أنني تلقيـت طعنة ثانية، وترنّحت إلى الأمام، واسـتدرت لأسـتعيد توازنـي ووضعت ثقلي على سـاقي اليسـرى. عندهـا رأيت رجلاً ينظـر إلي وهـو يركض بعيـداً دون أن يحيد ببصـره. كان يهـزّ رمحه في يده متباهياً وشـرع بضحكة عالية ولسـان حاله يقول: «لقد نلت نصيبك يا ولد».

كنـت فـي حقيقة الأمر قد عانيتُ سـابقاً من ألـم أكبر من جـروح أصغر من ذاك، إلا أنني لـم أختبر في حياتي ذلك الشعور بالاكتئاب (كان ذلك الاكتئاب نتيجة غيبوبة قلبية أو انهيـار نتيجـة الفقدان المفاجئ لـكل ذلك الكم من الدّماء) وهبـوط في المعنويات لمرأى جدول الدّماء التي كانت تتدفق بغزارة من ساقي. وقعت على الفور على الرّمال وشـددتُ جسـمي ثم مددتُ يدي اليمنى ضاغطاً بها على الجـرح في الخلف محاولاً إيقـاف النزيف، وعندها ناديت على المحـارب الثالث (وهو زميلي في ركوب الجمل وكان الرّجـل الأجدر ثقة واعتماداً في المعسـكر) لكي يجلـب لي بندقيتي وخراطيش لأنني أريد أن أريه شيئاً.

سمعني وردّ: «ماذا تريد؟ أتريد أن تردي كلبا آخر؟».

«كلا، بحق الله، تعال أعتقد أنني قُتلت». وهذا ما جعله يأتي مسرعاً.

«يا الله!» صرخ بتأثّر عندما شاهد منظر الدّم.

طلبت منه أن يقرضني البندقية وقمت بضبط مؤشرها على مئتي ياردة ثم أعدتها إليه مشـيراً إلـى الرّجل الذي كان مـا زال يختال ويتبختر حاملاً رمحـه وعلائم الانتصار ما زالت بادية عليه حتى من تلك المسافة، فما كان منه إلا أن تناول البندقية ليجرّب طلقة، وأعتقد أنه كان جاداً إذ أن الرّصاصة التي انطلقت كانت قريبة جداً، ورأيت الرّجل يقفز

أرضاً كما لو أنه قد أصيب، وعندئذٍ فر مسرعاً واختفى في بستان من أشجار النخيل.

لقد حدث كل شيء في زاوية نائية عن العيون خلف كومة من الصّناديق ولم يرَ أحد شيئاً مما حدث، لكن تجمع الآن جمهرة من الأشخاص أتوا من جميع الجهات مصدرين جلبة عظيمة حولي، فطلبت من بعضهم أن يحملوني مسافة قريبة إلى هودجي. وبالفعل قام عدد منهم يقارب السّتة أشخاص برفعي وإيصالي هناك بسرعة، وعندها طلبت منهم البحث عن الصّرة التي أضع فيها أغراضي وبمساعدة المحارب الثالث قاموا بتمزيق بعض من قمصاني القطنية وأحالوها إلى ضمادات. عند ذلك اكتشفت أن الرّمح لم يخترق فخذي وصولاً إلى الأمام كما اعتقدت، بل كان هناك بقعة حمراء داكنة على الجزء العلوي من فخذي أوضحت أن رأس الرّمح قد دخل لمسافة بسيطة فقط.

على الرّغم من أن الجرح في مؤخرة فخذي كان صغيراً بحيث يسمح بدخول أصبعي الصّغير فقط، فقد أدلى الجميع بدلوه في ذلك الموضوع وقدّموا لي كافة النصائح الممكنة، لكننا وجدنا أن إيقاف نزف الدّم كان أمراً غاية في الصّعوبة. سرعان ما قاموا بتمزيق قطع كبيرة من النسيج وتم ربطها بإحكام حول الجرح فكانت بمثابة ضمادات مرتجلة. مع ذلك استمرّ نزّ الدّماء بعد دقائق معدودة ثم شرع بالتقاطر على الأرض الرّملية، وبعد ساعتين كان الجرح قد استهلك كل ما لدي من ملابس قطنية وكانت سبعة كل واحدة منها بحجم قميص أبيض، تم تمزيقها وتشبعت جميعها بالدماء حتى بدت وكأنها كتلٌ من اللحم النيء.

انسلّ الجمع الذي تجمهر حولي واحداً بعد الآخر لقضاء أعمالهم، تعلو وجوههم نظرة تنبئ بوضوح عما لم يقولوه وهو: «لم يعد بإمكاننا فعل أي شيء له».

بدأ الوهن يدبّ في أوصالي. لقد كانت فكرة جنونية أنني قد أموت في ذلك المكان، وأن أحداً لم يستطع أن يوقف ذلك النزف الغريب. اعتراني غضب جامح عندما راودتني تلك الأفكار، وأقسمتُ على المحارب الثالث بأنه إذا لم يستطع فعل أي شيء لي فليرحل مع الباقين. استجمعتُ ما تبقي لدي من قوة واكتشفت أنني لا

أستطيع اتخاذ وضعية الجلوس دون الشعور بالدّوار والإعياء. عندها استلقيت بكل هدوء، وجاء المحارب الثالث ووضع صرّة أغراضه تحت رأسي وجلس بقربي ممسكاً بيدي اليمني في يده. لقد كان الشخص الوحيد الذي وقف معي، وأمدّني موقفه ذلك بقدر كبير من الرّاحة ولمجرّد وجوده بجانبي. كان أيضاً يقدّم لي الماء الذي كنت أشرب منه كميات كبيرة، وكان يقوم بإبعاد أسراب الذباب التي كانت تحوم وتتجمع فوقي وأنا مستلقٍ.

بعد برهة من الزمن، وبينما كنت مستلقياً على الرّمل والدّماء ما زالت تنز ببطء من بين طبقات كثيفة من الضمادات والعصائب، راودتني فكرة أن هناك احتمال أن أموت بطريقة غريبة وغير مفهومة، إلا أنني لم أكن أفكر في الواقع فقد اعتقدت في قرارة نفسي أنني يجب أن أموت، وفي نفس الوقت بدا أن ذلك يروقني فعلاً. كان صاحبي ينقل إلي أفكاراً عن الجنة التي سأصعد إليها، وقد استشفيت ذلك من حديثه الذي ابتكر بعضه بينما استنتجتُ الباقي، إلا أنني أعتقد أنه كان هناك ثمة فسحة من أمل، إذ كنت قادرا على تحريك رأسي والابتسام عندما راح يقدّم لي وصفاً تصويرياً ومبهجاً للملائكة والحساب الذي لا بدّ أن يجرى، قبل أن أحظى بالنعيم الأبدي. لقد بدا كلامه وكأنه إرشادات لتنظيف السّمك، وظننت أنني إذا استمريت بحالة الضعف وفقاً للمعدّل الذي كنت عليه فإنني لن أتمكن من ثني يدي في وقت قصير.

ثم رأيت التحضيرات التي تتم لرحيل القافلة، وتملكني الذعر عندما خامرني شعور بأنهم قد يرحلون ويتركونني وراءهم حياً في الصّحراء، وعاودني نفس ذلك الإحساس تقريباً عندما شاهدت جدّول الدماء ينزف من ساقي للمرة الأولى. كان يتوجب عليّ فعل شيء ما ليُعرف مصيري في وطني في حال لم يكن مقدّراً لي أن أنجو من هذا المأزق. لقد علم القنصل البريطاني بأنني كنت في البلد وكنت قد أعطيته عنوان أصدقائي في إنكلترا. طلبت من المحارب الثالث أن يعطيني قطعة من الورق وقلماً من صرّة أغراضي. فعل ذلك، وبدأت أسطر بقليل من المشقة على الورقة كلماتي التالية:

«المرحلة الأولى بعد رابغ».

تحية طيبة،

«سيقدم لكم حامله معلومات إضافية، وإنني لا ألقي باللوم على أيٍّ كان».

«ج. ف. ك».

«إلى سعادة القنصل البريطاني في جدّة».

ثم طويت تلك الورقة ووضعتها بين أسناني، وطلبت من المحارب الثالث بأن يقدّم لـي عهـداً بأن يقدم تلك الورقـة إلى القنصل البريطاني بعد وفاتـي، وأن يعيدها إليّ إذا تعافيت عندما أطلبها منه.

سألني: «لماذا تريد أن ترسل رسالة إلى النصارى؟».

أخبرته بصراحة أنه كان من السّـهل علـي أن أكذب عليه بكلام يرضيه ويقنعه، لكن طالمـا أنني كنت على شـفير الموت فإنني أفضل ألا يسـألني بل أن يفعـل ما طلبته منه دون أي كلام. وعدنـي بأنـه سـيفعل ذلـك، وقد بدا من كلامـه ونبرته بأنـه كان صادقاً ويمكننـي الوثـوق به، وهكذا فقد سـلّمته الورقـة بدلاً من ابتلاعها كمـا كنت أنوي في حال لاقى أية متاعب. وقد تسبب الجهد الكبير الذي بذلته في إرهاق شديد لي، ودون أن يكون هناك أي أمل شـعرت براحة وكأن حملاً سـقط عن ظهـري. نظرت إلى يدي فبدتا كيد الغسّـالة، وحانت مني التفاتة فرأيت عقابين أو ثلاثة تحوّم في السّـماء فوقي. تمكنت من رؤية الأشـخاص الواقفين حولي وهـم ينظرون إلي لكنني لم أهتم لمعرفة من كانوا وربما قد أكون توفيت بعد ذلك.

لا أظـن أن المـوت أصعب من ذلـك، لكني لا أذكر أنني غبت عـن الوعي، عزيزي القارئ: تذكر تلك اللحظات المحدّدة التي قضيتها قبل أن تغفو الليلة الماضية.

* * *

كانت الحاسة الأولى التي عادت إليّ هي الذّوق، إذ كنت أتذوق طعماً حلواً لذيذاً أشعرني ببرودة، وعلمت أن شيئاً ما قد وضع في فمي وأني قد ابتلعته. تذكرت كل ما حصل، وكان السّؤال الأول الذي خطر ببالي هو أين أنا، ولم يكن لدي أدنى رغبة في أن أفتح عيني لأتأكد. كان العطش القاتل الذي يلهب جوفي قد زال عندما كان شخص يضع قطعاً من البطيخ في فمي، لقد كان طعمها لذيذاً حقاً، حتى أنني بدأت أبتلعها بأسرع ما استطعت. شيئاً فشيئاً شعرت بحركة الجمل تحتي وفتحت عيني، ورأيت أنني مستلقٍ على ظهري في هودج وصديقي القديم المحارب الثالث يجلس في الجهة المقابلة يقوم بتقطيع البطيخ إلى مكعبات صغيرة ويمد يده لإلقامي تلك القطع.

حاولت الكلام لكنني كنت شديد الضعف وكل ما استطعت قوله هو: أين أنا؟ فأخبرني أننا على وشك أن نقوم باستراحة وأن أربع عشرة ساعة قد مرّت منذ نطقت بآخر كلمة. لقد عدتُ إلى الحياة من بين براثن الموت، وأيقنت بالنجاة. غمرتني سعادة فائقة ما شعرت بها من قبل، وربما لن أشعر بها مجدداً، وتابعت تناول قطع البطيخ لنصف ساعة على ما أذكر. عندها فقد أنيخ الجمل ورُفع الهودج من على ظهره وأنا فيه، وتركوني وحيداً لبعض الوقت.

سرعان ما غفوت، وكان الشيء الذي أذكره أني رأيت الأمير ومعه مجموعة من الأشخاص الآخرين يتحلقون حولي وكان المحارب الثالث يرفع الغطاء الذي كان على جسدي وقدمي. لن أنسى ما حييت منظري وأنا مسربل بالدّم من رأسي حتى أخمص قدمي، وقد تحول لونه بعد أن جف إلى بقع بنية وسوداء، وبدا جسمي نحيلاً كأنني جثة رجل مات بالكوليرا.

قلت لهم «اغسلوني»، وعندما شرعوا بحملي من الهودج غبت عن الوعي، وغاب الكثير في ذاكرتي عما حدث في اليومين التاليين. كل ما أذكره هو تناول البطيخ، ولا بدّ أنني قضيت معظم الوقت نائماً. لم تكن هناك أمّ أو زوجة لَتمرضني بمثل تلك الرّعاية والحنان الذي أحاطني بهما المحارب الثالث. سرعان ما بدأت قوتي تعود، وفي اليوم التالي سألت المحارب الثالث أن يجلب قطعة من اللحم ويملّحها ومن ثم يحمّرها في

الرّماد الحار، وقد فعل، وهكذا تناولت نصف رطل من لحم حمل هزيل لا دُهن فيه.

عاودتني العافية بعد ذلك وبدأت أكل جيداً. كانت شهيتي للطعام كضبع شره، وتمكنت من الكلام مع زميلي الرّاكب على الجمل أثناء المسير أو عند الاستلقاء في الهودج أثناء أوقات الاستراحة. كانت الحكايات التي يرويها كفيلة بأن تجمد الدّم المتبقي في عروقي، إذا كان قد تبقى منه أي شيء. يبدو أنني عندما غبت عن الوعي اعتقد الجميع في المعسكر بأنني قد متّ. وعندما بدأت القافلة تهمّ بالتحرك لم يكن ثمة من وقت للمراسيم. كان من المفترض أن يقوموا بكل بساطة بحفر حفرة في الرّمل وإلقائي بها ثم تغطيتها بالرّمال. عارض المحارب الثالث تلك الفكرة بشدة قائلاً بأنه لا يظن أنني كنت ميتاً، وحتى لو كنت كذلك فإن الأخلاق الإسلامية تفترض أن يتم حملي حتى المحطة التالية ثم «أحظى بدفن لائق».

لقد كان العضو الوحيد في الجماعة الذي ارتأى ذلك، بينما كان الأغلبية يرون بكل تأكيد أن أوضع تحت الرّمال في بضع دقائق لو لم يكن الأمر في يد «شيخ البؤسِن». لقد تعاملت مع البدو دوماً على فرض أن التهور والطيش واللامبالاة يسود بينهم، وهكذا فلم أقف أبداً في طريقهم عندما كانوا يتعاركون مع أصحابي، وكنت أترك نفسي أعمل تحت إمرتهم أثناء تحميل وتفريغ الحمولة عن الجمال. كان لسلوكي وتصرفاتي العفوية هذه أبلغ الأثر لديهم، وهكذا عندما شاهد «شيخ البؤسِن» مدى سوء إصابتي قفز ممتطياً جمله مسرعاً نحو قرية مجاورة حيث يعيش حكيم يتمتع باسم وخبرة كبيرين، وكان قد أصدر أوامره قبل ذهابه بتأجيل انطلاق القافلة حتى عودته.

عاد بالحكيم الذي كان يركب خلفه، وذلك عندما كان بعض أصدقائي يشرعون بحفر قبر لي. حينما شاهدني الطبيب أعلن بأنني على قيد الحياة وعاين جرحي وسرعان ما قام بوضع ضمادة يعرفها البدو ووضع عليها مادة ليرقأ بها الجرح ويقطع النزف، وأخبرهم بأنه ليس لديه أدنى شك بأنني سأستعيد صحتي الكاملة مع الرّاحة والعناية الكبيرة وتناول حمية من البطيخ فقط.

هـل يعلم القـارئ الكريم كم كانـت أجرة طبيـب الصّحراء ذاك؟ لقـد كانت جنيهاً إنكليزيـاً[1] واحـداً أعطاه الأمير له بتأفف كما سـمعت، ثم منح المحـارب الثالث إذناً للعناية بي وتمريضي وحملي على الجمل.

في اليوم الثالث بدأ الضماد يتسبب لي بكثير من الإزعاج والحكة، وهكذا وفي أول استراحة طلبت منهم أن يحملوني خارج الهودج وأن ينزعوا تلك الضمادات.

لقد كان جرحي يتحسـن بشـكل جيـد برغم حرارة الجو والعديـد من الظروف غير الملائمة الأخرى، وبعدما حظيت بحمّام جيد بدا الجرح نظيفاً وكأنه قد تعافى. نزعت قطعـة مـن القطن من جرحي تفـوح منها رائحة قويـة لزيت التربنتين وهـي المادة التي اسـتخدمها الحكيـم لوقـف النزيف حسـبما أعتقد. كانـت تلك المادة شـائعة في مكّة ويمكـن تأمينها بسـهولة في ذلـك الوقت، ومزيّتهـا أنها مخدّر قوي وفعـال. هكذا بدا لي أن ذلك الحكيم البدوي في الصّحراء كان دون شـك بمثابة الجرّاح جوزيف ليسـتر في بريطانيا. ومن ذلك الحين كان العلاج الوحيد الذي اسـتخدمته للجرح هو الغسـل اليومي بماء فاتر ووضع ضمادة مغموسـة بمرهم. تحسّـن جرحي بسـرعة واسـتعدتُ قـواي في وقت قصير، وعندما وصلنا إلى المدينة بعد سـتة أيام من الحادثة كنت قادراً بقليل من المساعدة من اثنين من رفقائي على التجول في البلدة.

* * *

قبـل وصولنـا إلى المدينـة أمضينا الجـزء الأكبر مـن الليل نصعد ممـرات صخرية شديدة الوعورة عليها قضى عديد من الجمال المنهكة. ها نحن أولاء نرى تباشير أنوار مولـد فجـر جديد على المدينة يلوح فـي الأفق قبل أن ينبلج النهار فعلاً، وقد سـادت أفـكار وتصـوّرات جميلة بين رفقائي أنها ربما كانت أنوار سـماوية تنير درب الحجّاج على مسافة ثلاثة أيام نحو المدينة.

ومع ارتفاع الشمس كنا قد نجحنا في تسلق عقبة كؤود، ومنها تمكنا من رؤية فسحة

(1) الجنيه الإنكليزي عملة شائعة في الحجاز. (كين)

شاسـعة تمتد 500 قدم أسفل منا، ومن ثم بدت سـهول منبسطة أمامنا على مدى أميال قليلة، وفي وسطها وبين سلسلة من التلال الصّخرية السّوداء المتطاولة لاحت «المدينة المنوّرة» هاجعة في دعة وسـكون. على نحو مفاجئ ارتفعت هضبة صغيرة من السّهل لتبـدو أمامنـا ملامح حدود المدينة التي كانت تتخذ شـكلاً بيضوياً مـن الجانب البعيد لنهايتها الصّغيرة في مقابل الهضبة، تحت «ظل صخرة عظيمة في أرض وعرة».



الفصل السّادس

المدينة المنوّرة

عندمـا تقـع أعين الناظر على المدينـة المنوّرة للمرّة الأولى، فإنهـا قد تذكره بمنظر مدينة القسطنطينية من بحر مرمرة أو أيّ من المدن الرّائعة في العالـم، وعندما شاهدناها مـن بعيد مشـرفين عليها من مكان مرتفـع كانت بحقّ متعة لعيـن ناظرها من الحجيج، بجدرانهـا المتطاولة البيضاء كالثلج، المسـتمرة دون انقطاع ومنـارات مآذنها العديدة عندمـا كانـت شـمس الصّباح تشـرق عليها، وكان يحوطها سـياج أخضـر من الأرض المحروثة من كل الجهات.

يـا لـه من منظر للحاجّ القـادم من مكّة المنهـك تعباً وإعياء بأن يـرى تلك الجوهرة المشـرقة في قلب الصّحراء الواسـعة الكالحة؛ لقد كان ذلك المشهد بمثابة تناغم رائع لقطعـة نـادرة من لآلئ وأحجـار كريمة منظومة بتناسـق فـي إطار من الميـنا الخضراء اللامعـة. يـا لها من لحظة نادرة، وبالنسـبة إلـى العديد منا كان حلم حياتـه يتحقق أمام عينيه، وها هي تقف شـامخة بهدوء في وسط ذلك السّهل الفسيح تحت مرمى الأنظار مباشـرة. لقد وصلوا مكانهم المنشـود «المدينة المنوّرة»، حيث قبر الرّسول صلّى الله عليـه وسـلم، والآن يمكنهم أن يريحوا أجسـادهم التعبة بجانبه إلـى الأبد ولن يهمهم متى سيحدث ذلك في سعيهم نحو الخلود والنعيم الأبدي.

وبالنسـبة لبعضنـا الآخـر كان مـرأى المدينة باعثـاً على السّـرور بعد أيـام وليالٍ لا متناهيـة، وبعد أن أصبح مـن الصّعوبة بمكان التقدّم فوق تلك القفار الصّخرية القاحلة يغمرهم شـعور الوحشة والكآبة. لقد كان شعوراً رائعاً أن نرى نهاية لرحلتنا التي بدت

دون نهايـة وأن نصـل إلـى المدينة المنوّرة أخيـراً. أعتقد أنه كان يجـدر أن يطلق عليها اسـم مدينة الطالع السّـعيد، بمسـاكنها المحاطة بالجدران والحقول الخضراء والمياه الجارية، لتجمع في طياتها كل النّعم والمزايا التي قد يتخيلها عقل الإنسـان الشـرقي. انتشر شـعور عظيم بالبهجة والسّرور بين جميع أفراد القافلة، وتعالت تعبيرات الحمد والثناء لله لنجاتهم من الصّعاب والمخاطر التي عانوها سابقاً، ووصولهم سالمين إلى وجهتهم في آخر المطاف. حتى الجمال التعبة المسكينة رفعت أعناقها الطويلة المتدلية ودبّ فيها نشاط غريب، فزادت من سرعتها في اندفاعة نهائية متبقية في أقدامها الواهنة المتعثرة لتعلن خاتمة رحلتها عند خط النهاية.

والآن أصبحت مشـية جمالنا تذكرني ببيت شعر يذكره البابا في «مقالة ناقدة» يقول فيها: «كأفعى جريحة تجرّ جسدها الطويل الخائر وراءها ببطء».

يمكننـي الآن أن أقـول بصـوت عـالٍ لأول مرة منذ غـادرت مكّة وبعـد أن صبرت وجاهدت بأنني أشعر أنني أفضل حالاً.

إن الترجّـل عن جملي لأتمشـى في المدينـة كما فعل الآخرون كان أمراً مسـتحيلاً بالنسبة إلي.

بعد نزولنا الوادي عبرنا مسـافة نصف ميل من الرّمل سـرعان ما انتهت مندمجة في سهل أخضر، وامتد الطريق بعد ذلك مسافة ميلين وصولاً إلى بوابة المدينة التي بلغناها بعد سـاعة من رؤيتنا إياها للمرة الأولى. جلسـنا لنحظى باسـتراحة بالقرب من البوابة في مسـاحة مفتوحة تحيطها أكواخ للبدو تتناثر هنا وهناك، وقد قمنا بإزالة الحمل عن الجمال، ولـم نقم بنصب معسـكر بالمعنى المفهوم. كانت أفواج من العرب تخرج من المدينة لعرض المسـاكن وبيع بعض المأكولات على الحجّاج، وتحول المشـهد إلى لوحة مفعمة بالألوان استدعت إلى ذهننا اليوم الذي غادرنا فيه وادي فاطمة.

* * *

انطلـق الأميـر ومعـه معظـم أفـراد القافلـة نحو المدينـة فـوراً ليبحثوا عن مسـاكن

ملائمة لنا وأخرى للنساء، بينما بقي المحارب الثالث برفقتي وساعدني في الخروج من الهودج. استلقيتُ على أغطيتي المفروشة على الأرض بينما راح يقوم بتجهيز أغراضنا، فأخبرته أنني قرّرت محاولة المشي في المدينة بمساعدته، واغتنمت الفرصة لأطلب منه أن يعيد إلي الرّسالة التي أعطيتها إليه سابقاً ليرسلها إلى القنصل في جدّة، وسرعان ما أخرجها من ثنايا حزامه. فكرت بتمزيقها إلا أنني غيرت رأيي وقررت الاحتفاظ بها حتى اليوم، فقد أعادت إلى ذاكرتي حين قرأتها نفس اللحظات التي عايشتُها عندما كتبتها.

جاءت المرأة الهندية الصّغيرة مع أطفالها لتلقي عليّ تحيّة الوداع، وقد بدت في حالة تثير الشفقة، إلا أنها كانت سعيدة للغاية لوصولها نهاية رحلتها وكانت تحمل آمالاً عريضة للقاء المرتقب مع زوجها، حتى أنها لم تلقِ بالاً للحالة السّيئة لقدميها المتقرّحتين وساقيها المتورمتين. اقترضتُ روبية من المحارب الثالث وقدّمتها لها، كما أنه قدم إليها نصف روبية منه. علمت لاحقاً أنها التقت بزوجها وقد افتتح عملاً في كشك لبيع الشاي وكانت أموره تسير على نحو جيد جداً. لا بدّ أنه قد جمع مبلغاً كبيراً منا عندما كنا في المدينة نتيجة حبنا للشاي فقد كان أفراد جماعتنا يتوافدون إليه بانتظام.

لم أحظَ بفرصة أخرى لرؤية بطلتي السّمراء الصّغيرة مجدداً، لكن وجهها المشرق بالشجاعة والقوة التي احتفظت بها طوال رحلتها الشاقة المضنية سيراً على الأقدام، سيبقى محفوراً بعمق في ذاكرتي. لم يخطر ببالي أبداً في يوم من الأيام أن أرى مثالاً لحالة التفاني والإخلاص العظيمة التي رأيتها من تلك الزوجة والأم، برغم أنها كانت مجرّد واحدة من نساء كثيرات في الشرق «يرزحن تحت وطأة حال من الهوان والجهل» (؟).

* * *

بحلول الظهيرة، تمّ إعداد المنزل المستأجر وبدأنا الانتقال إليه وكان عليّ أن أرتدي ملابسي، لكن جميع ملابسي الداخلية كانت ممزّقة عندما استُخدمت كضمادات، أو

أنها كانت مشبعة بالدّماء فلم تكن نظيفة ولن أستطيع ارتداءها بالتالي. في واقع الأمر، غـادرتُ مكّة ولا أحمل معي سـوى أسـمالي البالية، إلا أنني سـأرجع في حال أخرى أفضل. وهكذا اقترضتُ حزاماً من أحد الأصحاب ولففتُ جسمي بعباءة كبيرة الحجم من وبر الجمل، ومضيت نحو البوابة متكئاً على اثنين من رفقائي.

بعد مسيرة نصف ساعة مشياً في الأسـواق، وبعد أن حظينا باسـتراحة وصلنا إلى المنزل، ولحسـن حظي فقد كانت كل الطرق التي تجاوزناها مسـتوية وممهّدة بشـكل تـام فضـلاً عن كونهـا نظيفة وقد بـدت مظاهر العناية عليها بشـكل كبير أنسـتنا أننا في إحدى مدن الشـرق. سـاد جـوّ من الرّخـاء والازدهار فـي أرجاء المـكان وبدت على سـكانه مظاهر الرّفاهيـة مما أعطى انطباعاً سـاراً لدى القادمين الجـدد، حتى الكلاب بدت أفضل حالاً وأقل جوعاً في تلك المدينة عن غيرها من المدن الإسلامية الأخرى.

كانـت الغرفـة التـي حصلنـا عليها فـي الطابـق الأرضي في بيـت كبيـر بالقرب من مركز المدينة وتطل أبوابها على حديقة تعادل ما تبلغ مسـاحته فداناً من شـجر النخيل، تتوسـطها بئر كبيرة مملوءة حتى حافتها بمياه عذبة لذيذة، تبدو عميقة وداكنة ومنعشة، وقد طفت أعشاب خضراء على سطحها. كان منظرها يدفع بالمرء إلى القفز للحصول على غطسة منعشة.

كنت شـديد الضعف، وأعاني من آلام مضنية أجبرتني على العودة إلى المنزل على الفـور. أمـا الغرفة التي حظينا بها فكانت عبارة عن قاعة فسـيحة رائعة لا أكثر ولا أقل، توسـطها طريق ممهّد طويل، ينخفض بمسـافة قدمين عن الأرض من جانبيها كليهما، وفـي منتصف الجزء الأسـفل من الغرفة كان هناك حوض حجـري مملوء بالماء قطره 12 قدماً ينبع الماء منه. فوق هذا الحوض مباشـرة كانت هناك فتحة بين غرف الطوابق الأعلى تؤدي إلى فتحة سماوية في سقف المنزل. أما بالنسبة للإنارة والتبريد فلم تكن هنـاك ترتيبـات تفوقها روعـة. لقد تمّت تغطية الأجـزاء المرفوعة مـن الغرفة بحصيرة عشـبية كثيفة، وكانـت الجدران نظيفة ومطليّـة بالكلس. بدت الحجـرة صحّية ورحبة وشكّلت مصدر بهجة لنا بعد كل الذي اعتدناه في مكّة.

استلقيت في زاوية الغرفة على بطانيتي، وعندما رآني المحارب الثالث داخلاً تركني ليقوم بفروض الوضوء والصّلاة في الحَرَم، كما هو الحال لبقية أفراد جماعتنا. وبمجرّد عودتهم من الحَرَم عادوا للاستحمام مجدداً. ما أشدّ حسدي لهم عندما كنت أسمعهم يغمرون أجسادهم بالماء ويجففونها، ثم يرشون أنفسهم مراراً وتكراراً بأوعية كبيرة من المياه.

أمضى الأمير كامل نهاره حينما يكون خارج أوقات الصّلاة، بالحصول على حمامات باردة وحارة على التوالي، واستمر صوت المياه المتدفقة والضحكات المبعثرة أمام البئر في الحديقة حتى وقت متأخر من الليل. لقد سبّب لي جرحي إزعاجاً وألماً وخشيت أن يكون المجهود الكبير الذي بذلته في الصّباح قد فتح عُرى ذلك الجرح مجدداً. كان الألم شديداً لدرجة أنني اضطررت لتناول القليل من الأفيون في تلك الليلة قبل أن أتمكن من الذهاب إلى النوم، وعندما قمت في الصّباح التالي بتضميد جرحي بدا لي أنه أفضل، إذ تمكنت من الذهاب إلى الحديقة وحظيت بحمّام منعش مما كان له تأثير إيجابي عظيم علي.

كان يفترض بنا البقاء في المدينة لعشرة أيام، الأمر الذي ستمكن معه من الصّلاة لخمسين مرة في الحَرَم. وقد خطرت لي فكرة بأنني قد أغادر المدينة دون أن أتمكن من الصّلاة في الحَرَم المدني على الإطلاق. بدا لي أنه بعد كل ذلك العناء والمصاعب التي واجهتها حتى وصولي إلى المدينة فعلياً، بأنني ربما قد أخفق في تحقيق الهدف الرّئيسي لرحلتي. كلا! فلقد عقدت العزم على زيارة قبر الرّسول.

في الأسبوع الأول استلقيت على الأرض تنهشني مشاعر القلق والضيق والغضب. بعد أسبوع، وعندما كان جميع رفقائي في الحَرَم يؤدّون صلواتهم، كنت أحاول النهوض ومحاولة السّير لمسافة قصيرة مستعيناً بعكاز، وبعد يومين من محاولتي اكتسبت ثقة بأنني سأستطيع ممارسة طقوس وشعائر زيارتي الأولى للحَرَم المدني حيث أنها لم تكن لتشعرني بالتعب. وهكذا قررت في اليوم التاسع أن أقوم بمحاولة.

توافد علينا يومياً أشـخاص كثيرون للسّـلام على الأمير، كان من بينهم تجار التمور الذين قدموا إلينا مع عيّنات من بضاعتهم، وقد أخبرني أحدهم بأن هناك خمسين نوعاً مختلفاً مـن التمور تُـزرع في المدينة. من بينهـا «الچلبي» وهو أفضلهـا على الإطلاق ويتمتـع بسـمعة وتقدير في كامل الشـرق، وقد قيـل لي إنه لا يبلغ كمالـه ونضوجه في أي مكان آخر إلا في المدينة. يا لها من تمور كبيرة الحجم لذيذة المذاق، وقد اشـترى الأميـر مـا يقارب نصف طن من التمر من هذا الصّنـف. أما النوع الثاني من التمر الذي يليـه جـودة فكان أصغـر حجماً بما لا يزيد عن حبّة متوسـطة من ثمرة الكِشـمِش، ولا توجـد بداخلـه نواة أو قد توجد فيه نواة صغيرة تشـبه القشـة لا يمكـن ملاحظتها أثناء تناول الثمرة.

* * *

كانـت المدينـة المنوّرة حسـب اعتقادي أكثر مدينـة صغيرة يمكن زيارتهـا ازدهاراً وانتعاشـاً في الشرق بأسـره، وكان يقطنها ما يقارب العشرين ألفاً من الناس ثلثاهم من العـرب حسـبما أظن، أما البقيـة فكانوا من الأتراك مع مجموعة بسـيطة مـن المقيمين الأجانـب قدمـوا من معظم البلدان الإسـلامية الأخـرى. وقد بُنيت المنـازل من نفس المـواد التـي تبنى فيهـا المنازل في مكّة إلا أنهـا لم تكن أبداً على تلـك الحالة المزرية مـن الإهمال والفوضى التي كانـت هناك، وقد فكّرت أن الاحتفـاظ بجودة مواد البناء والجص كان أمراً أكثر سـهولة في ظل وفرة المياه في تلك المنطقة، الأمر الذي تسبب في ثبات درجات الحرارة وعدم تقلّبها كما هو الحال في مكّة.

وبسـبب ظروف الحـرارة المناسـبة والأيـام المشمسـة الملائمة للزراعـة وكذلك الأماكـن المروية بشـكل جيـد في الضواحي، فـإن المدينة تنتـج أنواعـاً لا متناهية من الخضراوات والفاكهة، بحيث كانت قائمة التسوق اليومية شديدة التنوع وتضم العديد من الأشـياء منها: البصل، الثوم، الجزر، الشمندر، الفجل، الفاصولياء، الخيار وأفضل أنـواع العنـب. باختصار فقد حَوَت المدينة كل ما يمكن تخيّله من مزروعات تقريباً مع العديد من الحبوب مثل الذُّرة والحنطة والشعير.

كان أحـد زوّارنـا الذين واظبوا على زيارتنا يومياً كبير المسـؤولين عن الحَرَم، وهو عجـوز أسـود واهن اعتـاد أن يجلس لسـاعات يخبرنا فيهـا قصص وتقاليـد زيارة قبر الرّسـول، حيث روى لنا قصة كانت معروفة جيداً في الشرق، لكن قد لا يعرفها العديد مـن القراء، وهي تروي حكايـة المرّة الوحيدة التي تم فيها دخول كائن بشـري إلى قبر الرّسول من قبل منذ ووري الثرى.

«فـي يـوم من الأيام..» كانت تلك هـي الجملة التي اعتاد أن يبـدأ بها ذلك الخصيّ العجـوز حديثه، أما بالنسـبة لبقيـة الحديث فكل ما أذكره كان محتـوى القصة، وهكذا فسـأرويها لكـم بطريقتي أنا: في أحد الأيام منذ سـنوات بعيدة جداً لاحظ المشـرفون علـى الحَـرَم وجود رائحـة مزعجة كريهة تنبعث مـن أو بالقرب من قبر الرّسـول، وقد بُذلت محاولات بحث جادة مستمرة طوال الأيام التالية في الداخل والخارج، لكن لم يكن هناك أي شيء يحتمل أن يتسبّب في تلك الرّائحة.

في آخر المطاف بدأ بعض الشـيوخ بالإقرار متردّدين بأن الرّائحة الفاسـدة تلك قد تكـون صادرة من الداخل (بالرغم من وجـود إجماع على إنكار ذلك في بادئ الأمر). كانـت الرّائحـة تنبعـث من دون شـك مـن كوّة موجـودة في جـدار القبر، وقـد توالت التكهنـات والتوقعـات غزيـرة ووصل النزاع بين الشـيوخ إلـى ذروته، ومـع ذلك فلم يسـتطع أيّ مـن أصحاب العقول النيرة تفسـير ظاهـرة الرّائحة تلك التـي أخذت تزداد سوءاً مع الوقت. تقدّم أحد العجم من أصحاب الآراء الغريبة بفكرة مبتدعة مفادها أن الجسد نفسه قد تحلل وفسد، فحُبس وتعرض لتعذيب تمنّى تحته لو يقطع جسده إلى أشلاء بكلابات محمّاة على نار متوهجة لكي ينهي عذاباته ويستريح.

تسبّب ذلك الرّأي غير المتوقع الذي ألمح به العجمي في تجمّع العقلاء الذين كانوا هم أنفسهم على استعداد لتصديق أن تلك الرّائحة صادرة عن القبر ذاته. عندما وصلت الأمور إلى ذلك الحد، لم يكن ذلك الرّأي ليمر دون استنكار أو تفنيد كما هو الحال مع العجمي، وقد شـعروا بحرج الموقف وفكروا بكل تلك الأشياء الرّهيبة التي قد يقولها أشخاص لا تنقصهم الفظاظة، وهكذا اجتمع الشيوخ من كافة بقاع الأرض في مجلس

عظيم لدراسة مسألة الرّائحة، وقد أصدروا قرارهم ليتم العمل به كما يلي:

لقد قاموا بتدريب أحد أفضل الصّبيان الأخيار الذي يتمتع بصغر الحجم والنشاط والحيويّة بحيث يتمكن من المرور من ذلك الثقب الموجود في الجدار، وزيادة على ذلك قاموا بإخضاعه لفترة من الغسل والوضوء والصّيام لزيادة طهارته وتقواه، ومن ثم قاموا بإرساله إلى القبر. بعد برهة قصيرة عاد الصّبي يحمل في يده اليسرى حمامة ميتة كانت السّبب في تلك الرّائحة، لكن مفاجأتهم كانت عظيمة عندما وجدوه قد أصبح أبكم وأعمى وأصم.

مرّت السّنون وأصبح ذاك الولد عجوزاً هرماً، وعندما حانت ساعة وفاته عادت إليه جميع حواسه على نحو مفاجئ وتمكن من رواية تلك الوقائع التي شهدها قبل أن يلفظ نفسه الأخير: عندما دخل القبر صُعق لمرأى نور عظيم كان الرّسول الكريم يجلس في وسطه واضعاً القرآن على ركبتيه، وكان ملَكان يجلسان على جانبيه يقرآن له. نهض الملَك الجالس على يمين الرّسول عندما دخل الصّبي وعرّف عن نفسه بأنه جبريل وأمسك بيد الولد اليسرى ووضع فيها الحمامة الميتة، ثم أوصله نحو الخارج بأدب جم لدرجة أنه لم يدرك الفاجعة الكبرى التي حلّت به إلا عندما وجد الظلمة الدّامسة تحيط به من كل حدب، وعندما حاول أن يفتح فمه لينطق.



الفصل السّابع

الحرم

عند الظهيرة وقبل أن نغادر المدينة شـرعتُ في زيارة الحَرَم، وقد اكتشفت أنه على الرّغم من أن سـاقي كانت متيبّسـة جداً فإنني كنت قادراً على المشـي ببطء شديد نحو أقـرب بوابـة، التي لم تكن تبعـد أكثر من ثلاثمئة يـاردة عن منزلنا. كان المنسـوب في داخل البناء مطابقاً تماماً لمنسوب الشـارع في الخارج، وهكذا فإن الداخل من البوابة الشمالية الشرقية حيث لا توجد درجات يمكنه المشي مباشرة على طريق ممهدة ليجد نفسـه تحت رواق مقبّب في أعلاه يحيط بسـاحة مفتوحة مفروشـة بالحصى مساحتها ثمانون ياردة بخمسين. بالقرب من منتصف هذه السّاحة كانت هناك مساحات مصفوفة من الأعشاب الخضراء مع القليل من شجيرات النخيل والنباتات المتسلقة التي كانت تنمو عليها، بينما انتشرت في أنحاء السّاحة أسراب من الحمام الرّمادي تتناول طعامها بهدوء وطمأنينة بين أقدام المارين من المتعبدين.

كان ارتفـاع الـرّواق حوالي ثلاثين قدماً وبعرض أربعيـن قدماً، تعلوه ثلاثة صفوف مـن القباب الصّغيرة. وقد دُعم هذا السّـقف المقبب بثلاثـة من الأعمدة الدائرية، بينما تألـف الرّصيف من أحجار مبسـطة ناعمـة كبيرة الحجم. كان الـرّواق المقنطر الغربي مخصصاً لصلاة النسـاء، وكان معزولاً عن السّاحة بباب خشبي مزوّد بشبكة مجدولة. أما الجانب الشـرقي للبناء فكان يمتدّ ملتفاً لمسـافة أربعين ياردة أخرى خلف السّـاحة وقد كان مسقوفاً بالكامل، حيث دُعم هذا السّقف بحوالي مئة وستين إلى مئة وسبعين عموداً دائرياً كل منها بقطر 18 إنشاً تقريباً، أما السّقف فكان مقسوماً إلى اثني عشر صفاً

في كل منها ثلاث عشرة قبّة زرقاء اللون وقد فرشت الأرضية ببلاطات رخامية، لكن الجزء الأكبر منها كان مفروشاً بالسجاد.

وينتصب هناك بالقرب من مركز الجزء المفروش من البناء منبران من الحجر على قاعدتين حجريتين سداسية الشكل غير منقوشة مع درجات تقود إليهما، وعلى مساحة تبعد خمسة وعشرين قدماً تقريباً عن النهاية الشمالية من البناء، كان هناك حاجز يعزلها عن بقية المكان وقد وضعت فيها شمعدانات مطلية بالذهب وثريات زجاجية متألقة. كانت معظم الأشغال الحجرية في داخل البناء مطلية بلون رمادي فاتح، ويلمح المشاهد آيات من القرآن مطلية بحروف ذهبية وسوداء هنا وهناك. كان مظهر المكان ككلّ يوحي بزخرفة بسيطة متواضعة بعض الشيء، وقد كان بعيداً كل البعد عن الفخامة والبساطة التي تميّز الحَرَم المكّي.

* * *

حيث أنني كنت خجلاً من أكون من أولئك الذين يتصدّرون المجالس، فقد اخترتُ لنفسي مكاناً قصياً عن المنبر دون المرور تحت أشعة الشمس وجلست بانتظار أداء صلاة الظهر. وقد حظيت بفسحة من الوقت كي ألاحظ الطقوس عن قرب عندما اجتمع الناس، حيث كان أكثر من نصفهم من الهنود، أما البقية فكانوا من المواطنين المحليين مع القليل من الأتراك والفرس، وباستثناء قلة من الهنود والسود فقد بدوا جميعاً بهيئة أكثر احتراماً ونظافة من الحشود التي قد يصادفها المرء في مكّة ولا أعتقد أن ذلك كان ليزيد من رصيدهم من الاستقامة في شيء، فقد عانينا من العديد من السّرقات أثناء إقامتنا في المدينة، حيث فقد الأمير مشبكاً فضياً كان معلقاً في حزام سيفه بينما كان يصلي في الحَرَم.

كان لون بشرة العرب في المدينة يميل بشكل عام إلى السُّمرة أكثر من إخوانهم في مكّة، كما أن ملامحهم تتسم برزانة وهدوء أكبر، أما تعاملهم مع الغرباء فقد كان أكثر رقياً واحتراماً.

بينما كنت جالساً منتظراً الإمام للبدء بأداء الصّلاة، جاء ضابط تركي عجوز وجلس بالقرب مني، وحيث أنه رأى وجهاً جديداً يشابه أبناء بلده فقد حاول أن يتجاذب أطراف الحديث معي. أحسست بأنه شخص مزعج حيث أن الخطبة التي تسبق الصّلاة لم تكن قد بدأت بعد، وعندما بدأت الخطبة قاطعته مؤنباً لعدم انتباهه لكلمات الخطيب مع أننا كنا نجلس بعيدين جداً عنه بحيث كان يصعب علينا سماع كلامه. انتهت الصّلاة وبقيت جالساً في مكاني أعدّ خرزات مسبحتي إلى أن خف الزحام. كنت وحيداً وسط المتعصبين، جريحاً وضعيفاً بلا حول ولا قوة، وشعرت أنني في مكان لا يشبه وطني في شيء وغامرني إحساس بأنني حمامة وقعت في قن للدّجاج، عندما عادت إلى ذاكرتي تلك الحمامة الصّغيرة المسكينة المتسخة التي رمتها الرّيح فوق مركبنا في البحر لتجد لدينا الملاذ الآمن.

ربما كان من الأفضل لي أثناء زيارتي الأولى للحرم أن يكون بصحبتي شخص ما يعرف التقاليد السّائدة في المكان ويمكنه تلاوة الصّلاة أمامي لأقوم بالاقتداء به. كنت قد تعلمت الكثير لكني إذ وصلت إلى هذه المرحلة أصبحت أكثر تردّداً وتمنيت لو كان أحد الأصحاب الذين يعرفونني برفقتي في تلك اللحظة، وعند ذلك مرّ بجانبي مالك المنزل الذي كنا نقيم فيه فناديته ورجوته أن يمدّ لي يد المساعدة ليكون دليلي. كان مالك المنزل متهماً ببعض السّرقات البسيطة عندما كان يتردّد على غرفنا أثناء غياب الجميع لأداء الصّلاة وقام عدة مرات باختلاس حفنات من التمر وغير ذلك من المأكولات، وقد تغاضيت عن فعلته تلك متظاهراً أنني غارق في نوم عميق. وفي إحدى المرات أشعرته بأنني قد رأيته وهو يقوم بالسّرقة وغمزت له بأنني لن أخبر أحداً بذلك. ولذلك فعندما طلبت منه أن يسدي إلى معروفاً صغيراً لم يكن باستطاعته أن يرفض. لقد كانت سعادتي كبيرة لرؤيته إذ أنه كان رجلاً معروفاً فضلاً عن كونه أحد العرب البارزين.

* * *

كان القبر قريباً من الزاوية الجنوبية الشرقية للبناء، مبنياً بشكل مستطيل بمساحة

خمسة وعشرين قدماً في عشرين بحجارة رملية مربعة، أما سقف البناء الموجود مباشرة فوق القبر فقد كان عبارة عن قبّة كبيرة بشكل الإجاصة. ولم تكن هناك أيّة زخارف أو زينة باستثناء الجهة الجنوبية التي تميّزت بنقوش متراصّة متشابكة محفورة في النحاس توجد فيها ثلاثة ثقوب دائرية كبيرة بما يكفي لإدخال الذراع حتى الكتف، وقد وضعتُ عيني على الفتحة التي كانت في الجهة المقابلة المفترضة لقبر الرّسول، وعندما اعتادت على ظلمة المكان رأيت على بعد أربع أقدام مني جداراً حجرياً مع خمس ستائر حمراء معلقة عليه وكان حجمها صغيراً يوحي بأنها تغطي ممرّات صغيرة أكاد أراها، وقد أُخبرت بأن هذه السّتائر تحمل أسماء الأشخاص الذين كانت قبورهم موجودة هناك، وكانوا على الترتيب التالي من اليسار: محمّد، أبو بكر، عمر - الخلفاء الأوائل - وفاطمة بنت محمّد، أما القبر الخامس فكان قبر عيسى ابن مريم (السيد المسيح) بعد ظهوره التالي على وجه الأرض.

لم أجد غضاضة في تقليد الآخرين، فقمت بدفع يدي لأقصى ما أستطيع في إحدى الفتحات الثلاث وقمت بالتلويح لبرهة أو اثنتين في الداخل عسى أن تتشرّب أكبر مقدار ممكن من الجو المقدّس الذي يعبق به المكان، ثم سحبتها وتراجعت مبتعداً، وبعد القيام ببضع صلوات أخرى كنت سعيداً بعودتي إلى المنزل وقد غمرني إنهاك شديد وقليل من خيبة الأمل، ثم استلقيت من جديد.

لقد حظيت بمرأى مشهد قام مئات من الرّجال باقتلاع عيونهم بعدما شاهدوه كيلا تقع بعد ذلك على أي من الأمور التافهة الموجودة حولهم، وقد كان هذا الإجراء المتهور يتمّ بأن يتناول أحد المتعصّبين جمرة ملتهبة ويقربها من وجهه ويحدق بها عن قرب إلى أن ينطفئ نور عينيه. لقد كان شعوراً بالتعب والخيبة، ذلك كل ما في الأمر.

* * *

أدّينا صلاة الظهر في المدينة في اليوم التالي والتي تعدل خمسين صلاة كما قيل لي، وفي ذلك اليوم بالذات بذلت الأميرة والأمير أموالاً كثيرة بسخاء كبير وقد حصل كل من في المنزل على المال، وقد تلقيتُ خمس روبيات من الأميرة وخمساً أخرى من الأمير.

سرعان ما اجتمعت القافلة عند بوابة المدينة وكانت النساء أول من ركب، بينما جلبوا حماراً إلى باب منزلي ليقلني، ثم ركبت وعبرت أسوار المدينة وصولاً إلى القافلة التي انطلقت قبل ساعتين من المغيب، ليتبعها حشد من مئتين إلى ثلاثمئة متسوّل وقد مشوا ما يقارب ثلاثة أميال، حيث شرع الأمير الذي كان ممتطياً صهوة حصانه بإلقاء حفنات من القطع الفضية على تلك الحشود. أما أنا فقد منحتُ الجزء الأكبر من المال الذي حصلت عليه ذلك اليوم إلى الفقراء الذين قدموا إلى المدينة بصحبتنا، ولم يعودوا معنا. وعندما وصلنا إلى منعطف يؤدي إلى طريق يبعدنا عن المدينة، أوقفت القافلة ليتمكن الحجّاج من الرّكوب. نزلت عن حماري، وقبل أن أركب الجمل، ألقيت نظرة خاطفة أخيرة على المدينة.

لم تكن المدينة بأكملها تعدل ثلث مساحة مكّة، مع أن ضواحيها كانت تمتدّ لمسافة ميل أو اثنين لما بعد أسوارها من كل جانب وصولاً إلى الهضبة. لقد بُنيت أسوارها من حجارة صلبة، وكانت مترابطة بإحكام بالملاط على طبقات غير منتظمة تُركت فيها فتحات لرماة السّهام. كان ارتفاعها يتجاوز الأربعين قدماً بقليل دون أي خنادق، وقد تناثرت على مسافات قصيرة متباينة أبراج شبه دائرية بارتفاع أربعين قدم تقريباً، حيث كانت تبرز بشكل واضح عن مستوى الجدار وكانت مخصصة لرمي النيران.

وعلى الحدود الشمالية الغربية من المدينة كان هناك الحصن التركي، أو القلعة، التي بُنيت على الصّخور وكانت تحتل موقعاً مشرفاً مسيطراً بأسلحتها ومدافعها التي كانت تُرى من داخل وخارج أسوارها وقد رُفع عليها العلم التركي، حيث كانت تختلف بشكلها ذاك عن مثيلاتها من الحصون في مكّة. إنها المدينة المهيبة التي احتلت الترتيب الثاني بين المدن الإسلامية المقدسة (القدس جاءت في المركز الثالث) ويقال إن صلاةً واحدة فيها تعدل ألف صلاة في أي مكان آخر إلا في مكّة.

* * *

الفصل الثامن

بدء رحلة العودة - العاصفة العظيمة

لم أتأسّف لوداعها، فستبقى تلك المدينة الجميلة على حالها بينما سأغادر في غياهب رحلة يائسة تبعث على الأسى. عندما حان دوري لصعود السّلم وصولاً إلى الجمل، إذ كنت مضطراً لذلك الآن، وجدت قدراً من الصّعوبة في الوصول إلى الهودج حيث لقيت المحارب الثالث، وقد جهز كل شيء في مكانه بكل ترتيب ونظام. عندما تمدّدتُ باسترخاء وشريكي القديم في مواجهتي وبيننا ثمرة بطيخ كبيرة الحجم، بدأت أفكر أنه بعد كل تلك الصّعاب والتجارب التي مررت بها فإن السّفر في الصّحراء قد يكون ممتعاً حقاً.

«يدفع الحنين قدمي الحاج المتعبتين إلى وطنهما فيغدو وعر دروب الصحارى جميلاً».

ربما أكون قد أصبحت أكثر اعتياداً على حركة الجمل فأمست أكثر سلاسة. هكذا كان الليل يتأرجح على إيقاع تلك الخطوات ودون أيّة حوادث تذكر، وشرعنا نمضي الوقت في تجاذب الحديث والنوم والتدخين وأكل البطيخ. مع بزوغ الفجر وصلنا إلى نهاية المرحلة الأولى وكان مشهد المعسكر هو الأفضل على الإطلاق، إذ كانت التلال المحيطة بنا منخفضة تكسوها خضرة كثيفة داكنة بينما امتدت الوديان بينها وازدهت بمروج ذات خضرة يانعة وانتشرت فيها الإبل والجمال وقطعان من الغنم ترعى بهدوء.

كانت قوّة من الفرسان الأتراك تخيّم في المكان بالقرب منا وكان الفرسان يدربون

خيولهـم التـي بدت تتحرك هنا وهنـاك دون انتظام فـوق أرض المرعى وهي تتراكض بسـرعة فـي كل اتجاه. حمـل البعـض منهم عيدانـاً طويلـة خفيفة الوزن مـن القصب وشـرعوا يتدربون علـى رمي الرّمح البدوي، لقد برعوا في ذلـك كثيرا وأبدوا مهارات خاصة في الدّفاع عن أنفسهم.

كانوا فرسـاناً جيدين حقـاً، إذ مرّ بالقرب منا واحد منهم يطـارده ثلاثة آخرين فكان يدافع عن نفسه ببراعة دون أي خطأ، وقد اعتمد في ذلك أساساً على حركات المناورة والمراوغـة الخاطفـة التي أتقنها فرسـه المدرب تدريبـاً رائعاً، وكدت أجـزم بأنني قد رأيته أصيب في مرتين اثنتين، إلا أنه كان يحتفظ برمح من القصب ليدافع به عن نفسـه وبمجرّد أن كان رأس الرّمح يلامسه كان يدفعه برمحه بكل مهارة وسرعة تعادل رمشة عين، وبحركة سـريعة حادة كان الرّمح يرتد عمودياً نحو الأعلى ويطير مندفعاً لخمسة وعشرين إلى ثلاثين قدماً فوق رأسه، ليسقط وراءه على الأرض وهو ما زال يهتز دون أن يصيبـه أي أذى. لـم تكن تلك مجرّد لعبة بأي حال فقد كانت الرّماح مصوبة بشـكل جيد وإذا ما أصابت هدفها فقد كانت بالتأكيد ستتسـبب بكدمة شـديدة جداً برغم خفة وزنها.

طوينا صفحة المشـهد المثير لأولئك الرّياضيين الشـجعان، ونصبنا خيمتنا بالقرب من بئر كبير على مسافة لا تبعد أكثر من مئة ياردة متفيئين بظل تل شامخ الارتفاع مكسو بشـجيرات صغيرة. غمرتني سـعادة كبرى وشـعور بالخفة بأنني أتماثل للشفاء؛ كانت العافية تشـعّ في كل ذرة في كياني من جديد. وبالنسـبة لي فقد كنت أفضّل عشرين مرة أن أمسـك برماد متطاير تذروه الرّيح في يوم عاصف، على تناول إفطار دسـم مع البقية في ذلك الوقت وأخذ قسط من النوم بعده.

وهكذا بعد أن تكدّس الجميع في ظلام خيامهم يتقلبون ويتململون تحت الأغطية الكتانية اللاهبة، تناولت إحدى بنادقي والقليل من الخراطيش وتسللت لأحظى بنزهة صغيرة لعلي أصطاد بعض الحمام أو ربما شـيئاً أفضل. لقد كان معسـكر الجنود قريباً بحيث أصبح المكان آمناً من أي محاولة للهجوم قد تشـنها عصابات الغزاة. ولم يكن

لـدي أي مانـع على الإطلاق من أن ألتقي بأي من أصحـاب العقول الإجرامية هؤلاء، فقـد اتضحـت الصّورة أمامي تماماً وتمكنت من تسـوية الأمور فـي عقلي، حيث أنهم لم يكونوا ينظرون إليّ على محمل الجد، لكنني في الواقع كنت أشـعر أنني قادر على اصطياد اثنين من اللصوص كما لو كانوا زوجاً من طائر الحجل.

لم أكن من القوة بحيث أسـتطيع الابتعاد عن المعسـكر، إلا أنني كنت أتمشى بتؤدة أو أتمدّد على العشب البارد في ظل الصّخور منتظراً أيّة فرصة أو أي شيء قد يحدث. سـرعان ما تمكنت من إسـقاط بضع حمامات، وقد رأيت صقراً كان يحوم فوق رأسي محـاولاً الحصول عليها، بعـد أن جذبه مرأى الحمامات الميتـة الموجودة أمامي وقد صبـرتُ على محاولاته لأكثر من سـاعة ووجّهت بندقيتي نحوه أكثر من عشـرين مرة، إلا أنني في النهاية أطلقت النار. يا له من طائر مزعج.

بلغـت الحرارة ذروتها في ذلك النهار، وكان كل من في المعسـكر نائمين. لم يكن هنـاك أحـد عند البئر، وهكذا فقد سـرتُ متفيئاً بظـل جداره الواطئ البارد واسـتلقيت ووضعـت طيـوري وبندقيتـي ممضياً بقية فتـرة العصر بيـن النوم والتدخيـن بعيداً عن الحشـرات المزعجـة والزفـرات البغيضة المنبعثة من معسـكرنا. على مقربـة من البئر كانـت هنـاك خيمة بدوية منفـردة، وكنت قد دخّنـت كثيراً حتى جف حلقي وشـعرت بالعطـش وعندهـا لمحت فتاتيـن صغيرتيـن تخرجان منـه تحملان معهما جـراراً من الفخار تحت إبطيهما.

لـم تكونـا ترتديان الحجاب وعندما تقدّمتا باتجاهي لم أسـتطع أن أمنع نفسـي من النظـر بإعجـاب إلى قوامهما الرّشـيق الناحـل وحركتهما التي لا تنقصهـا الخفة، ومع اقترابهمـا تمكنتُ مـن رؤية ملامحهما التي كانت تنطق بالـذكاء والجمال. كانتا تقريباً في السّادسـة عشرة والسابعة عشـرة من العمر وبدا أنهما شـقيقتان بالتأكيد. لا بدّ أنني كنت أحملق فيهما إذ قدمتا نحوي وهما تضحكان وبادرتاني التحية بقولهما: «العوافي يـا شـيخ» (لا أحـد بين البـدو حتى الجنس اللطيف يحييـك بالسـلام)، رددت قائلاً: «وعليكما السّلام» إذ أنني كنت حاجاً ورعاً.

وبينما كانتا تملآن جرارهما خطر لي أن أساعدهما، لكن ذلك التصرف كان سيكون بعيداً كل البعد عن الأعراف، فما كان مني إلا أن جلست بسكون أرقبهما وهما تعملان. كانت ثيابهما عبارة عن فستان بسيط بلون أزرق غامق مطرّز بشكل منمق وجميل يجذب الانتباه وهو أبعد ما يكون عن التكلف، واندفعت خواطر في ذهني: ما أبدع منظر هاتين الفتاتين ويا لها من لوحة فنية لا تقل حُسناً عن لوحة «ربقة عند البئر» "Rebekah at the well" واستعادت ذاكرتي تلك اللوحة بكل تفاصيلها، ما أشد شبهها بهما.

عندما ملأت إحداهما جرتها قلت لها: «أرجوك اسمحي لي أن أشرب من جرّتك»، أجابت: «اشرب يا شيخ»، وعندما أعطتني الجرة قالت: «أين البقشيش».. أحقاً؟ لقد ردّدت الفتاتان ذلك وهما تضحكان بخبث على سلوك ذلك الغريب الوقور، «أه... تباً» وأنا الذي كنت أتخيّل صورة ربقة Rebekah عند البئر، ها.. إن صورتكما لا تصلح أن تعلق في حانة للمرطبات، وما أسرع ما تخليت عن لياقتي ولطفي وأعترف بأنني ربما كنت وقحاً قليلاً، إذ شرعت برشّهما بالماء المتبقي في الكوب قائلاً: «إليكما البقشيش» وسرعان ما أنزلتا الجرتين ووضعتا أيديهما فيها فبدت كخنزير في مرق، وبدأتا برش المياه من جرار ضخمة علي وهما تصرخان وتتضاحكان ككائنات صغيرة مجنونة، فما كان مني إلا أن قمت بإفراغ محتوى جرتيهما فوقهما فأصبحتا مبللتين من رأسهما لقدميهما.

لكن غمرني في تلك اللحظة شعور بالهزيمة، إذ لولا جرحي لكنت تابعت رشهما حتى يغمرهما الماء، إلا أن وضعي كان يحتم علي أن أطلب منهما التوقف عن العبث حيث أنني كنت جريحاً. لم تصدقاني في البداية لكنهما عندما رأتا أنني غير قادر على الهرب منهما وأنني جلست على الأرض بدلاً عن ذلك، توقفتا عن اللعب وسألتاني عن جرحي وتحولتا إلى التعاطف والاهتمام الشديد. عندما أعادت الفتاتان تعبئة جرارهما قدمت لهما الطيور التي اصطدتها وذهبتا وهما تتضاحكان بمرح قائلتين: «العوافي يا شيخ». بعد رحيلهما تمدّدت في بقعة مشمسة كي أجفف نفسي، وأمضيت

بقية نهاري أمسح بندقيتي وأدخّن حتى حلّت وجبة المساء.

* * *

مع غروب الشمس سرنا مجدداً ومررنا بمنطقة واسعة من الصّخور والرّمال. كان عدد أفراد قافلتنا ثلاثمئة فرداً وعشرين جملاً، مع ما يقارب نفس العدد من الأشخاص السّائرين على أقدامهم، مما يظهر النسبة القليلة من الهنود الذين عادوا من المدينة. كان معظم أولئك السّائرين رجالاً من الذين أمضوا بضع سنين في المدينة، ولم أر بينهم أي شخص من الذين خرجوا معنا في رحلة الذهاب إلى المدينة. كما كان لدينا نفس الأدلاّء من البدو ونفس الجمال التي جلبناها معنا من مكّة، وكان أمراً مفرحاً حقاً أن نرى التحسّن الواضح الذي طرأ على الجمال خلال استراحة الأيام العشرة التي قضتها في المدينة.

مرّ الليل دون أي شيء يستحق الذكر، ومع بزوغ النهار التالي بدت لنا الشمس حمراء متوهّجة منذرة بيوم صعب، وقد تعكّر صفو السّماء الزرقاء من الجهة الشمالية الغربية وتلبدت بسحب كثيفة صفراء اللون. كان النسيم عليلاً فعلاً يهبّ من التلال وصولاً إلى الوادي بدفعات قوية، وقد استحث البدو القافلة بطريقة لم أرهم يقومون بها من قبل وكانوا يتحدثون بعضهم مع بعض بطريقة لا تخلو من انفعال، ويداومون النظر بقلق بين الفينة والأخرى إلى الجهة الشمالية الغربية نحو تلك السّحب الصّفراء. بطبيعة الحال لم نكن بحاجة إلى من يخبرنا بأن ذلك الجو كان غير طبيعي. لقد توقعت حدوث عاصفة مطرية، ولن يفاجئني حدوث عاصفة رملية، لكنني كنت على وشك أن أشهد ظاهرة لا أستطيع أن أطلق عليها أي اسم آخر إلا اسم «العاصفة الذهبية» وقد توقعت بأننا سنتعرّض لأمطار أقل ما يقال عنها إنها غزيرة.

خلال رحلتنا صادفتنا أماكن تكثر فيها صخور معدنية غنية بالصُّفّاح (الميكا) mica؛ وهي مادة تشع في ظروف إضاءة معينة بلون ذهبي متوهج. وفي أماكن أخرى كان الرّمل يحوي كميات كبيرة من رقائق وذرّات دقيقة من هذه المادة بحيث إذا قام المرء برفع حفنة منه في الشمس وقرّبها من عينيه فستبدو له كأنها ذرات متلألئة من غبار

الذهـب. وقد بدت قطع الصّخر الغرانيتي الصّغيرة في بعض الأحيان وكأنها شـذرات من الذهب الخالص؛ وكان الناظر يرى على نطاق الأرض من حولنا ملايين من النقاط اللامعـة، وقد انتثرت هنـا وهناك نجوم ذهبية تلتمع بألق متوهـج. كثيراً ما كنت أصعد لأعاين تلك النجوم فلا أتمكن من إيجادها، لكن ما إن تغير نقطة الرّؤية والضوء حتى تبـدو على حقيقتها مجرّد قطع كبيرة من الميكا شـبه الشـفافة، بلونهـا الرّمادي الباهت وشـكلها الذي يشـبه الورق. كانت تلك المنطقة التي نمرّ بها غنيـة جداً بالميكا، وكان النسـيم العليل يتخلل صوف الجمال حاملاً معـه ذرات صغيرة جداً خفيفة ورقائق من ذلك الفلزّ الذهبي.

تزايدت سرعة الرّيح بمعدل ثابت، وبدا أن البدو يبذلون جهوداً كبيرة لتتقدم القافلة إلـى الأمام أكثـر فأكثر. وعندما لاحظت أننا برغم كل الجهـود المبذولة لم نصل نهاية سيرنا حتى بعد أربع ساعات كاملة، عرفت عندئذ أننا سنواجه العاصفة لا محالة. مهما كان اسمها فلقد رأينا رأي العين ما كان يطلق عليه بحّار عجوز اسم «عاصفة صاخبة»، وسـرعان ما حجبت الرّؤية من خلال سـحابة رملية صفراء واقتربت السّـماء أكثر فوق رؤوسـنا وكأنها كتلة حمـراء باهتة، مما ذكّرني برجل من لندن يسير في الضباب. علا هديـر الرّيـح على الصّخـور الصّماء العالية وأزالـت منها كل ذرة غبـار وعادت مرتدّة إلينـا في الوديان محملة بأكوام من الغبار والرّمال، وصبّت حمولتها فوقنا على دفعات سريعة مجلجلة بدت لنا ونحن في الهودج كأنها وابل من حبات البرد.

لا بدّ أن الأشـخاص المساكين السّائرين على أقدامهم قد ذاقوا صنوف العذاب من الرّمال التي كانت تهبّ بين أقدامهم العارية وتلسـع وجوهم بقسوة كوخزات إبر حادّة مسـنونة، وقد اكتشـفت ذلك بمجرّد أن مـددت يدي خارج الهودج لفترة بسـيطة. لقد حاولوا حماية أنفسـهم بإيجاد ملجأ لهم بجانب الجمال وتغطية وجوههم المكشوفة، أمـا البدو فكانـوا غير مكترثيـن كثيراً لذلك الوضـع إذ كانت ملابسـهم مجهزة بحيث تغطي كل أجسـادهم باسـتثناء الجزء الأسـفل من أقدامهم وعلى ما يبدو فقد اعتادت قصبات سيقانهم والأجزاء الخلفية منها ذلك الجو وأصبحت خشنة قاسية.

سـرعان مـا أصبح الجو أكثر اغبـراراً وعجّ بفُتات الصّخور والرّمـال الكثيفة بحيث استحالت الرّؤيـة لمسـافة تتجـاوز أربعة أو خمسـة جمـال أمامنا. لقـد دخلت ذرات الرّمل الناعمة ثنايا الهودج وتجمعت بين كل ثنية وطيّة في ملابسـنا، واكتست الجمال والهوادج وكذلك الرّجال السّـائرين، وحتى الشجيرات الخضراء القليلة المبعثرة على جانب الطريق، بصباغ أصفر فاتح يتلألأ كالذهب.

علـى الرّغم من هبـوب الرّيح بكل عنف وقوة فإن الحرارة أصبحت عالية لا تطاق. لقد رشـح العرق من أجسـادنا بغزارة وزاد العطش الشـديد من شـوقنا لتناول جرعات بـاردة من المياه. كانت جلودنا محمرّة ومسـفوعة بشـكل مؤلم وقد تشـققت شـفاهنا الجافـة. مـع ذلك كان الجزء الأكثـر بهجة في تلـك العاصفة الهائجة هـو ذلك الوابل الذهبـي الذي اسـتمرّ طوال فتـرة هبوبها. في بعض الأوقـات بدا لنا الهـواء كثيفاً جداً يحمل شـرارات متوهجة من رقائق الميكا ذكرتني بسـقوط ندف الثلج الناعمة: كانت ظاهرة شديدة الجمال يصعب تخيلها. جمعتُ كمية من الرّمال المتراكم على ملابسي واحتفظت بها في علبة ثقاب، حيث كانت تبدو على الضوء المنبعث من احتراق الغاز في المصباح وكأنها شذرات ذهب لامعة بين تلك الرّمال.

قبل سـاعة من وصولنا زادت سـرعة الرّياح وأصبحت من الشدة بحيث أن الجمال المثقلـة بالأحمال كانت بالـكاد قادرة على الوقوف في وجهها. كثيـراً ما كنا نحيد عن سـيرنا بفعـل الرّيح العاتية نحو اليسـار التـي كانت تهبّ من جهتنا اليمنـى. وقد بدا لي بأننـا سـنطير من على ظهور جمالنا في أي لحظة، وفي واحـدة من تلك الهبّات العنيفة اختل توازن أحد الهوادج خلفنا وسقط على الأرض. بعد ذلك بفترة وجيزة مررنا بأحد جمـال المقدمـة وقد انهار أرضاً. كان ممدّداً على الرّمل وبدأت فعلاً غمامة من الرّمال والرُّكام بالتشكل حوله.

تابعنا طريقنا تشـق خطواتنا قلب العاصفة ووصلنا في آخر الأمر إلى نهاية مسيرتنا بعـد أن تركنا وراءنا خمسـة جمـال على الطريق، عـاد منها اثنان فيما بعـد لكن واحداً مـن اللواتي فقدت كان يعـود لجماعتنا. قيل إننا فقدنا رجلين وكذلك كسـرت إحدى

النسـاء ذراعهـا عندمـا وقع هودجهـا. كان من المسـتحيل نصب الخيام فـي مثل ذلك الجـو العاصف، فلم يكن هناك من بدّ مـن الاحتماء في ظل الهوادج. بعد قيامنا بإنزال الأحمال عن الجمال معرضين أنفسـنا لسـياط الرّمال اللاهبة إلى أن فقدنا قدرتنا على الاحتمال، ثم غطينا أنفسنا بانتظار أن تمرّ العاصفة. بعد حوالي ساعتين كانت الرّيح ما تزال تعصف بأقصى قوة، وقد حضر «شيخ البؤسِن» وسأل الأمير فيما إذا كان راغباً في الحضور إلى القرية ليحظى بملجأ من العاصفة في أحد الأكواخ بينما يقوم بطهي شيء لـه، فـردّ عليه بالإيجاب وطلب متطوعين للذهاب معه. سـارعنا أنـا ورفيقاي بالتطوع للذهاب.

عندما قمت بنفض طبقة الغبار السّميكة من على غطائي رميته وخرجت من الهودج. كان منظـر قافلتنـا لافتاً للنظر وغريباً: فإلى جانب كل جمل وأمام كل صندوق تمدّدت هيـاكل الرّجال تغمرهم طبقات سـميكة من الرّمل الناعم، ومع تشـكل الرّكام والرّمل حول الجمال كانت الأخيرة تقوم بالارتفاع فوق ذلك الرّكام. اجتمع كافة الأشـخاص المتطوعين للذهاب إلى القرية في ظل مجموعة من الصّناديق، ثم قادنا الشيخ وانطلقنا سائرين.

بسـبب الرّيح الشـديدة التي كانت تقذفنا بحبات رمل لاسـعة تتسرّب بقسوة تلهب ما بين أقدامنا، تحتم علينا التحرك ببطء وحذر خوفاً من أن نضل طريقنا، وقد ناسـبني ذلـك بطبيعة الحـال إذ أنني كنت غير قادر على الجري طبعـاً. في هذه اللحظة لمحت علـى البعـد عاصفة جديدة تتشـكل، إذ كانت سـحب هائلة من الجراد قـد جُرفت قبل قـدوم العاصفـة مندفعـة بالمئات نحو الأرض. بـدا العديد منها ميتاً مع سـقوطها على الأرض، وكان معظمهـا يفضـل أن يـداس بالأقـدام علـى أن يخوض غمـار المغامرة بالطيران مجدداً.

كانت القرية تبعد حوالي ثلاثمئة ياردة من القافلة وقد اكتشفنا بشائرها الأولى عندما لاح لنـا صفٌّ من الأكواخ دُكـت بالأرض بفعل الرّيح والرّمـل المتراكم فوقها. عندما مررنـا بذلـك المكان ثانية بـدا لنا أن الدليل الوحيـد على وجودها كان نتـوءاً منخفضاً

مـن الرّمـل يرتفع ثلاثة أو أربعة أقدام عن مسـتوى المنطقة المحيطـة. بعد أن تجاوزنا الأكواخ المهدّمة واجهنا صفاً آخر من الأكواخ كانت محمية من الرّياح في ظل صخرة عالية. سـرعان ما اندفعنا داخلين نحو أقربها إلينا لنكتشـف أنـه مملوء بمقتنيات البدو من أهل القرية ومن قافلتنا، ثم وجدنا ما يقارب العشـرين من الرّجال المسـلحين وهم في حال من الاهتياج الشـديد، وكان كبارهم يتحدثون بنبرات منفعلة خشـنة. لقد كان مرآهـم أبعـد ما يكـون أن يبعث الطمأنينة في نفسـي، علـى أنني اعتقـدت أن العاصفة الكارثية هي السّبب وراء سلوكهم هذا.

لمحـت الأمير الذي كان بمثابة ملك صغير في وطنه وتعابير الرّعب مرسـومة على وجهـه، واعتقدت أنـه كان يتمنى الفرار لولا أن مواجهة العاصفة قد تكون أكثر عسـراً مـن مواجهة البـدو. انخرط دليلنا بمجـرّد دخولنا إلى الكوخ فـي نقاش عاصف حول الظروف الرّاهنة، الأمر الذي صرف انتباهه عنا. لكنه بعد عدة دقائق استدعى أحد أبنائه الذي كان شاباً طويلاً وسيم القسمات وأخبره ببعض التوجيهات بما يخصنا. ثم دعانا الشـاب لمرافقته وخرجنا متدافعين من ذلك الكوخ وبعد بضع ياردات وجدنا امرأتين عجوزيـن قدّمتا لنا بعض الغلايين والقهوة، وسـرعان ما افترشـنا الحصيرة الموجودة علـى الأرض ناظريـن بقلـق بعضنا إلـى بعض. بعـد أن تناولنا عدة فناجيـن من القهوة السّوداء القوية وبضعة أنفاس من التبغ البدوي الأخضر اللاذع انحلّت عقد ألسنتنا.

كان من السّهولة بمكان رؤية علائم الرّعب الشديد على وجه الأمير، كما كان هناك آخران يشـاطرانه شـعوره، وهما المحارب الأول وديرواني Dirvani اللذان كانا على نفس الدّرجة من الخوف. لقد كان شعورهما ذاك نابعاً من عدم ثقتهما بالبدو، وقد قالا أنهما أُبعدا عن القافلة لغرض ما يخفي وراءه لعبة خبيثة، أما الآخرون الذين قدموا معنا فقد كانوا المتآمر العجوز والمحارب الثاني والثالث الذين أظهروا شجاعة وأثبتوا أنهم رجال أشداء وناقشوا فكرة الخطر القادم من البدو. كان ردّهم بأن أسلحتنا متفوقة إلى حدّ بعيد وأنه بإمكاننا التحصن بالكوخ والوقوف في وجه مئة رجل منهم. لكنهم ارتأوا أن الخطـر الحقيقـي كان على القافلة، إذ أن العاصفة فيما لو اسـتمرّت إلى حدّ يتجاوز

وضعها الحالي فإن الكثيرين سيلاقون حتفهم من تعرضهم لقوّتها.

* * *

بعد ساعتين تقريباً من دخولنا إلى الكوخ جاء «شيخ البؤسِن» وقال أنه قد عاد لرؤية القافلة مجدداً ووجد أن كل شيء سالم حتى ذلك الوقت، كما أخبرنا بأنه يعتقد بأن العاصفة قد انتهت؛ مع أنني أعتقد أنها قد وصلت الآن إلى ذروة عنفها، ولربما استغرق انتهاؤها ساعات طويلة. لكن تبيّن أن كلامه كان صحيحاً. حلّ الظلام الحالك حتى اعتقدنا أن الليل قد أتى، ولكن بعد أن غادر الشيخ عاد الجو للانقشاع تدريجياً، وهدأت الرّيح فجأة وقضينا ساعة ما قبل الغروب كأهنأ ما يكون.

عندما رجعنا إلى القافلة وجدناها ما زالت شبه مدفونة وكان الناس ينفضون الرّمال عنهم، ولربما لن نستطيع أن نتخلص من كل تلك الكمية من الرّمل إلا بعد هبوب الرّيح الموسمية من الجنوب الغربي لتكسحها عنا عند وصولنا الهند. كانت خسائرنا رجلين قتيلين (وقد دُفنا في نفس الوقت) أما المرأة المسكينة التي كسرت ذراعها فقد ماتت في تلك الليلة، بينما اختنق جمل واحد وربما كان ذلك بسبب الجهد الهائل الذي بذله للصمود والاعتناء بنفسه كما فعل الآخرون.

سرعان ما قمنا بنصب الخيام وإعداد العشاء، لكن الرّمال كانت في كل مكان مسببة إزعاجاً لا حدّ له. حاولنا أن ننفض أجسادنا وأن نغتسل، مع ذلك بدا كل ذلك الجهد المبذول وكأنه يزيد من اتساخنا أكثر فأكثر، إذ اخترق الغبار الناعم أعماق كل شيء صوفي أو قطني في المعسكر. لقد تلقى كل منا نصيبه من تلك الغنيمة التعيسة ولا أعتقد أن أحداً من مسافري الصّحراء كان أكثر اتساخاً منا عندما توجهنا لننال قسطاً من النوم تلك الليلة. نهضنا في صبيحة اليوم التالي بعد قضاء ليلة مؤرقة وباشرنا مهمتنا في نفض الغبار. لقد كان موقع البئر محمياً من هجمات الرّمل العاتية وبالتالي لم ينطمر، أما في بقية أنحاء الوادي فقد تراكمت الرّمال على المنحدرات الصّخرية بارتفاع مئة قدم وأصبح أي نتوء فوق مستوى الوادي بمثابة هضبة رملية. في أحد الأماكن كانت هناك أجمة من أشجار الأكاسيا يتراوح ارتفاعها بين الخمسة عشر والعشرين قدماً وقد

نتأت الأغصان العليا لبعض منها فوق قمة الهضبة الرّملية.

كان يفترض بنا الاستراحة في مكاننا ذاك لأربع ساعات فقط، لكن البدو أخبرونا بأننا يجب أن ننتظر اليوم بأكمله لنستريح ولتستعيد جمالنا قوتها. كانت السّماء فوقنا زرقاء صافية كما هو الحال دائماً وسطعت شمس بيضاء مبهرة قوية فوق رؤوسنا وكأنها كانت تستنكر منظر الكرة الحمراء الكريه الذي كانت عليه في وقت العاصفة المشؤومة بالأمس.



الفصل التاسع

حوادث على الطريق

أمضينا سحابة اليوم في الاغتسال وإزالة الغبار وإبعاد الحطام وإصلاح الأضرار، وبحلول المساء كان كل شيء أقرب ما يكون إلى وضعه الطبيعي. وقبل نزع الخيام قمنا بإفراغها من الأغراض ونفضها من جميع أركانها بالعصي، إلى أن ارتفعت سحب الغبار منها بكثافة أظلمت داخلها. ومع ذلك فعندما قمنا بإنزالها ولفها أحسسنا أن وزنها كان ما يزال ضعفي وزنها الطبيعي. لقد فرضت علينا خسارة الجمل الذي فقدناه في اليوم السّابق القيام بتغييرات عديدة على ترتيبات سفرنا، وهكذا فقد وجدت أن المتآمر العجوز قد أصبح زميل سفري الجديد على الجمل. يا له من رجل يحب الحديث، فقد كان يسليني في الليالي ويتحفني بحديث مستفيض بنظريات سياسية ودينية.

وصلتنا أنباء الاحتلال البريطاني لكويتا Quitta بمجرّد وصولنا إلى الحجاز، وقد كانت آراء صاحبي بخصوص أفعال الجنرال غلادستون، أقل ما يقال عنها بأنها كانت فريدة من نوعها. وقد نجوت بأعجوبة في إحدى المرات متحملاً سهام التعصب الديني والكراهية من الرّجل وذلك عندما ذكرت له بأنني سمعت أن عيسى المسيح قد قام بمعجزة تحويل الماء إلى خمر. كان رد الرّجل امتعاضاً شديداً حتى أنه كان بالكاد يسمعني، وقد أعلنت ندمي على ذلك القول الشنيع حتى قبل أن أتلفظ به. لكنه بطبيعة الحال عزا ذلك إلى الجهل وإلى مساوئ التعليم المبكر وشرع فوراً بتصويب أفكاري بكل حماسة واندفاع. لقد ناقشني مطولاً بصورة لا ينقصها الانفعال والحدة،

وقد أبدى معرفة بالموضوع لم أتوقع أن أجدها لدى شخص لا يفترض أن توجد لديه أدنى معرفة بالمسيحية. لقد أصرّ على أن المسيح باعتباره مؤمناً حقيقياً لا يمكنه أن يتناول الخمر، وبالتالي فإن معجزة مثل تحويل الماء إلى خمر كانت تتعارض تماماً مع رسالة السّلام التي بشر بها، بينما لا يوجد أي دافع يحفز على الشجار والانفعال، كما يعرف الجميع، أكبر من الخمر.

وقد قال إن الحكمة من تلك المعجزة وهي تحويل الماء فعلاً إلى خمر قد تمّ تحريفها وإساءة عرضها من قبل المسيحيين، وذلك للتوفيق والتسوية بين إيمانهم وتطبيقهم. ثم شرع في الاقتباس لمجموعة مقاطع متناقضة لما كان يعتبر أنها مغالطات وأفكار خاطئة من العهد الجديد، مؤكداً بأن أقوال وأفعال السّيد المسيح قد تم اختصارها والاقتطاع منها بحيث تتناسب مع التصورات والأفكار المملوءة بالإلحاد التي تزخر بها نسختنا الحالية. لقد كان الكثير من كلماته الحادة القوية التي كان يحتجّ بها حافلاً بالمكر والدّهاء بحيث أنني أحجم عن ذكرها، وإلا فإنني سأبدو متحاملاً ومتعصباً.

فعلى الرّغم من أنَّ المسلمين يعتقدون بفكرة الحَمل بلا دَنَس، فإنهم ينكرون ألوهية المسيح؛ ويؤمنون به على أنه بشر يوحى إليه فقط. إنهم ينكرون عملية صلبه، ويؤمنون أن هناك ضحية أخرى قد صُلبت مكانه – من خلال معجزة حصلت وغيّرت هويته بآخر.

بعد نقاش مُضنٍ استغرق وقتاً من الزمن حول موضوع الدّين، قمت بلفت نظر الرّجل العجوز إلى إحدى القصص التاريخية، التي يُعتقد بين المسلمين بشكل عام بأن لها بعض الأساس من الصّحة، لكنني وجدت أنه كان يتناول الموضوع بغموض وإشكالية شأنه في ذلك شأن الآخرين الذين حادثتهم في ذلك. والقصة هي أن الأمة الإنكليزية كادت أن تصبح من أتباع دين الإسلام، عندما قرّر أحد الملوك الإنكليز اعتناق الإسلام وقام فعلاً بإرسال سفرائه إلى إسطنبول كما يقول البعض أو إلى القاهرة أو إلى مكّة كما قال البعض الآخر لتحقيق ذلك الغرض، لكن ذلك المشروع توقف بوفاة الملك. وقد تساءلت دوماً عن وجود أيّ دليل من الصّحة بخصوص تلك

القصة ضمن تراثنا وتاريخنا ربما في قصة المؤامرة على الملك جون أو ربما خلال واحدة من حملاته.

على هذا المنوال استمرّت مناقشتنا أنا والعجوز أكثر من ساعة ونحن على ظهر الجمل، وما أسرع ما أصبحنا صديقين إذ أنني كنت مستمعاً جيداً وربما أفضل مستمع حظي به ذلك العجوز بين أفراد القافلة جميعاً. أمضينا الأيام الأربعة التالية نقطع طريقنا بتثاقل بين الصّخور والرّمال، وفي إحدى المرات سرنا لست عشرة ساعة متواصلة وارتحنا لساعتين فقط، ثم تابعنا طريقنا لخمس وعشرين ساعة أخرى. لقد كنا نواجه دوماً مشاكل ومصاعب عديدة لكنها بسيطة تشبه الأهوال التي واجهناها سابقاً على الطريق. وبسبب فقداننا للجمل كان زميلي يتغير بشكل متكرر وبالتالي حظيت برفقاء متعددين.

* * *

في صباح أحد الأيام شاهدنا بدوياً شاباً يجثم على صخرة عالية مطلقاً بعض الرّصاصات علينا. بدا الأمر مسلياً بالنسبة إليه، ومع ذلك لم يصب أيّاً منا بأذى.

أصبحت قادراً على المشي مع الجمال بسهولة ويسر، وكنت في بعض الأحيان أنزل عنها وأترك أحد الأصحاب يصعد مكاني لساعة أو اثنتين. اعتدت أن أسير حاملاً بندقيتي لأصطاد في بعض الأحيان طائر الحجل أو السّمان من بين الأعشاب الطويلة الموجودة على جانبي الطريق. أما في الليل فقد اعتدنا أن نضيء دربنا بإشعال النيران من الأعشاب الجافة التي كنا نصادفها في طريقنا وكنا نحيل الوديان الصّغيرة المظلمة الموحشة إلى أفران متوهجة بالظلال والأنوار.

وصلنا رابغ دون حصول أي حادثة مثيرة معي، مع أن رحلتنا كانت حافلة بأحداث كثيرة وقعت لرفقائي. فقد فقدنا اثنين من جماعتنا كان يعملان في خدمة الأمير، مات أحدهما خلال الاستراحة واعتقد أنه قد تسمّم نتيجة جرعة زائدة من الأفيون، أما الآخر فقد توفي على جمله بعد أن عانى من حمى الملاريا التي أصابته سابقاً. مع

عبورنا للسّهل المحاذي للساحل بعد أن غادرنا المنطقة الصّخرية، فقدنا خمسة من الأشخاص السّائرين على أقدامهم وجملاً واحداً سقط إعياءً. وبعد انقضاء يوم وليلة في رابغ وتناول وجبة كاملة من السّمك الطازج الذي قمت بتحميره بنفسي، شعرت بأنني أفضل حالاً بكثير وأن جرحي لم يعد يخرج قيحاً وتشكلت طبقة سميكة فوقه وبالتالي فلم تكن هناك حاجة لوضع أي نسيج عليه.

كان السّمك في رابغ من نوع غريب بشع المنظر. وقد كان بعض أنواعه من البشاعة بحيث أنني كنت لا أستسيغها حتى بعد إضافة الكاري إليها. كما كانت رؤوس وأذيال بعض أنواعها غير متناسبة على الإطلاق مع حجم أجسامها بينما بدت ألوانها الحمراء والخضراء والزرقاء المصطنعة بعيدة كل البعد عن الطبيعية والجمال. وقد شاهدت في السّوق سلة من السّمك بألوان سوداء وحمراء عجيبة وكأنها قد طليت بتلك الألوان، وكان اللون الغالب عليها هو لون جراد البحر الأحمر المسلوق. اكتفيت بشراء سمكة قرش صغيرة الحجم حيث أنها كانت الأكثر أمناً وقبولاً بين الأسماك الموجودة في السّوق.

كان يتعين علينا الذهاب من ذلك المكان من طريق مختلف قليلاً عن ذلك الذي أتينا منه وكنا نخوض على جانب البحر في اليومين الأولين ولم يتبق أكثر من أربع وعشرين ساعة من الماء إلى الماء. ولو كنا قضينا ثلاثة أيام على تلك الحال التي واجهناها في هذه المرحلة من رحلتنا الخارجية لكان ذلك بمثابة تجربة منهكة حقاً وخاصة في مثل حالتي الصّحية التي كنت عليها.

بعد مغادرتنا رابغ ارتدى الأمير وبعض من جماعتنا الأكثر وقاراً ملابس الإحرام إلى مكّة، وهي عبارة عن قطعتين من مناشف الحمّام الكبيرة. ما إن يرتدي المرء هذا اللباس لا يمكنه تغييره إلا بعد القيام ببعض الطقوس المعيّنة في مكّة. إنه لباس قصير وغير مريح على الإطلاق، مع توجّب ارتدائه دون أي غطاء للرأس. وهكذا فلم يلبسه الكثير من الحجّاج إلا قبل وصولنا إلى مكّة بيوم واحد، أما أنا فكان لدي عذر بسبب جرحي وكنت أحد آخر من ارتدوه.

خلال الإحرام يجب أن يتحرّر المرء من القيود الدنيوية ويلقي وراءه الترف واللهو، وأن يتحلّى ويحمل مظهر الحاج المتجمل بالتقوى ونكران الذات. قطع زميلي المتآمر العجوز شوطاً طويلاً في ذلك وقد كنت أظنه أكثر تعقلاً. لقد خامرته فكرة مفاجئة تتناسب وحالة التقوى التي كان عليها، مفادها أن التدخين حرام، وبدأ ينشر معتقده الزائف ذاك بيننا بحماس منقطع النظير لدرجة أنه استطاع أن يقنع الأمير والعديد من الأشخاص الآخرين باعتناق وجهة نظره تلك. وقد تمسك بفكرة أن تحريم المواد المسكرة الوارد في القرآن كان يشمل التبغ كذلك، ولم يتم تعيينه فقط لأنه لم يكن معروفاً للنّبي في ذلك الوقت.

كما قال إن التبغ قد جاء مع البعثات التبشيرية المسيحية التي بشرت بالشيطان القادم من العالم الجديد بغرض محاصرة المؤمنين. وتمكن كذلك من إثبات أن التدخين شديد الضرر بالصّحة، وقدم العديد من الأمثلة وحالات الأمراض والوفيات نتيجة استخدامه بين أشخاص رآهم وعرفهم. وقد شابهت أمثلته تلك في مغزاها النكتة التي أطلقها مارك توين حول القطرتين الموجودتين في ذيل الكلب التي يتبعها التشنج ثم الموت. وقد اجتاحت حمّى كراهية التدخين وشعور التنسّك العام نفوس بعض أولئك الأشخاص إلى حدّ بعيد حتى أنهم تخلوا عن تناول الأفيون.

كان الطريق السّاحلي الذي كنا نسير بمحاذاته قاحلاً ومقفراً تماماً، وكان وجه الأرض في بعض المناطق الكبيرة صلباً وناعم السّطح كأنه الإسفلت. مررنا بالعديد من بحيرات الملح الصّغيرة أو المياه المالحة الرّاكدة فترجلتُ عن جملي لأخذ حمّاماً في إحداها. كان ذلك التصرف خطأً عظيماً إذ أن المياه كانت شديدة الملوحة وتصلبت على جسمي كأنها بلورات كريستالية ظاهرة، فأصبح جلدي كريه المنظر ودبقاً، إلى أن تمكنت من الاستحمام في مياه عذبة في اليوم التالي.

كذلك كنا نشاهد السّراب بشكل دائم، ولم يكن شيء يبدو على حاله عند رؤيته عن قرب، فقد شاهدنا بدوياً يمتطي جملاً يجري أمامنا بأقصى سرعة وهو يحمل في يده رمحاً طويلاً واستمر ذلك المشهد لمدة تتجاوز السّاعة والنصف. كان يتخذ

كل الأشكال الرّائعة الممكنة وبسبب بعده عنا كان يختفي في أي لحظة ولم يكن أي من أجهزة تحديد المدى الموجودة ليستطيع أن يحدّد موقعه. في بعض المرات كان ينقسم إلى ثلاثة قطع يفصل بينها فراغ وكأنه مياه مترقرقة فقد بدت أرجل الجمل وكأنها ترقص على السّطح دون وجود جسد يجمعها وعلى مسافة فوقها كان جسم الجمل، بينما كان جسم الفارس يطوف محوّماً في الهواء وفوق كل ذلك كانت خصلة من الرّيش تعلو قمة رمحه، كما لو كانت طائراً يسبح في الجو. كثيراً ما كانت الأشكال والأخيلة تتراءى لنا بصورة أشجار قريبة إلا أننا لم نصل إليها يوماً.

أما في النهار فقد انتشرت أعمدة من الرّمل في السّهل بالعشرات وقد بدا أن بعضها قد أثارته ريح شديدة العنف. لم أقترب بما فيه الكفاية منها برغم أنني كنت أتوق لمعاينة إحداها عن قرب. اعتقد أن الأنواع ذات الأحجام الطبيعية منها كانت غير مؤذية على الإطلاق، أما البدو فقد كان لديهم خرافات مروّعة عنها وكانوا يطلقون عليها اسم الشياطين ويتعوذون كلما مرّوا بجانبها. وممّا زاد من وحشة المكان المقفر خلوه تماماً من أي شكل من أشكال الحياة الحيوانية؛ فلم أر سمكة واحدة تغادر المياه قافزة على وجه البحيرات السّاكنة كطبق من الزجاج؛ كذلك فإنني لم ألحظ أياً من طيور البجع الشهيرة في القفار يجوب بالقرب منها؛ ولم أر طيراً من طيور العقاب يطوف فوق رؤوسنا؛ حتى أسراب الذباب التي كانت تحوم حول قافلتنا غادرت ولم أعد أشاهدها.

كان أكثر ما أثار عجبي هو أن ركاب القافلة قد أصابتهم حالة من الكسل المتقن لفترة من الوقت (وقد وصلت إلى ذلك التصور بعد أن أصبح أي شخص من جماعتنا عندما يُطلب منه القيام بأي شيء، كان يطلب الانتظار على الأغلب إلى أن ينتهي من حكّ نفسه). مررنا بالعديد من الجمال الميتة والتي جفّ لحمها على عظمها وتصلّب حتى أصبح أقسى من الخشب. ولن أنس منظر إحدى الجثث التي كانت لرجل لم تكن جنسيته واضحة للعيان، فقد كان جسده متنفخاً لثلاثة أضعاف حجمه الطبيعي وقد جفّ على تلك الصّورة. قلبته إذ كان ممدّداً على الرّمل فكان خفيف الوزن لدرجة

أنني تمكنت من رفعه بيد واحدة. لقد صدر عنه صوت صرير وقرقعة عندما قمت بتحريكه وكان الصّوت يشبه إلى حدّ بعيد صوت ثوب من الجلد السّميك الملفوف.

في النهار ارتفعت الحرارة لدرجة اعتقدت معها أن ميزان الحرارة نادراً ما كان ينزل عن مئة درجة فهرنهايت، أما الليالي فقد كانت شديدة البرودة إلى حدّ بعيد، ولشدة تعبنا أثناء النهار كنا نسقط إعياء طوال الليل بحيث لا نشعر بالبرد. وقد توصلت إلى اعتقادين اثنين بما يخصّ ذلك المكان، الأول أن انكسار الضوء بواسطة الهواء كان شديداً جداً بحيث يجعل من كتيبة من العسكر غير فاعلة. أما الاعتقاد الثاني فهو أنني لن أذهب في رحلة أبداً لأقضي يوم السّبت في ذلك المكان إلا إذا قمت بذلك راكباً دراجة هوائية وأن يكون لدي قوافل عديدة محمّلة بعصير الليمون المثلج.

قبل أن نغادر السّهل فقدنا جملين آخرين وأربعة من الرّجال السّائرين على أقدامهم وقد كان أحد الجمال ملكاً لجماعتنا لسوء الحظ، وكذلك خسرنا أحد الحمير. كان ذلك الكائن المسكين المنهك قادراً على متابعة السّير مع القافلة لكنه كان أضعف من أن يتم امتطاؤه. وقد فرض ذلك علينا تنظيم دور في الرّكوب والمشي بالتناوب بيننا بشكل أكثر تواتراً.

كنت أسير في صباح أحد الأيام حتى وصلنا إلى أول تل منعزل على حدود السّهل؛ وانعطف الطريق باتجاه الجهة الجنوبية للتل. لم يكن يبعد أكثر من ثلاثمئة ياردة عن قاعدته، فقرّرت أن أخوض المغامرة وحملت بندقيتي واندفعت من الجهة العكسية لطريق القافلة. وجدت الكثير من النباتات في الجهة الشمالية من هذه الصّخور التي تشكلت بطريقة ما، وسرعان ما غابت القافلة عن ناظري فأسرعتُ الخطى وراء جلمود صخري كبير كنت قد حرصت أن يبقى تحت ناظري عندما جئت لهذه البقعة حيث توقعت أن أشاهد مجموعة من الطيور، إلا أنني شاهدت أمامي مباشرة جثة رجل مرمية على الأرض كان يبدو أنه قتل منذ وقت قريب جداً، وقد بدا وكأنه مغربي ابتعد على الأرجح عن قافلته التي كانت تسبق قافلتنا بأربعة أيام.

إن هذا الرّجل الجسور القادم من صحراء شمال أفريقيا قد حافظ على حياته في

تلك الظروف حتى الليلة السّابقة عندما حدثت المواجهة بين البدوي والقتيل. كان منظر الجثة مثيراً للاهتمام حيث ظهر الشكل المخيف للجرح الذي سببته سكين الجنبيّة jambiyah البدوية الرّهيبة. وكذلك فقد كانت هناك طلقة في الرّأس، وقد تشوه الجسد إلى حدّ بعيد بضربات من السّيف. كان جرح سكين الجنبيّة يبدو للعين غير الخبيرة بأنه ضربة فأس عريض النصل، وقد تمزق الصّدر والبطن عند أسفل التحام عظم الترقوة اليسرى بعظم الصّدر وصولاً إلى أصل الفخذ الأيسر، وقد قطعت الأحشاء المتداخلة كما لو أنها شرطت بموسى. أثناء معاينتي لهذا المنظر الملفت أبقيت نظري على الصّخور وحشوت بندقيتي، ولم يكن لدي أي شك بأن صاحب هذه الفعلة كان لا يزال في التل، إلا أنني عدت بسلام إلى القافلة.



الفصل العاشر

وفاة عم الأمير

عندما كنت أروي ما حدث لاحقاً كان شعور عدم التصديق هو الغالب إذ أنه يصعب على أي إنسان أن ينام عند ركوبه الحمار. كنت قد اعتدت على ركوب الجمال، إلا أنني كنت أجد صعوبة كبيرة في البقاء مستيقظاً في الليل وأنا على ظهر حصان أو حمار. في الليلة التي أكتب فيها هذا الكلام وجدت نفسي بعد فترة قصيرة من المغيب راكباً على حمارنا الطيّب الذي ذكرت سابقاً أنه كان يمتلك قدرة هائلة على الجر. كان إيقاع خطواته أسرع بكثير من الجمال لدرجة كان يتطلب معها أن أقوم بشكل دائم بجذبه بعنف من فمه.

غالبني نعاس شديد وكان الجو لطيفاً ومعتدلاً. كنت قد لففت نفسي حتى شعرت بالدفء، وجرّبت جميع حركات المراوغة التي تعلمتها على حماري ذاك، واعتقدت في النهاية أنني تمكنت من تهدئته إلى السّرعة الملائمة من خلال سحب رأسه إلى صدره وتثبيت الزمام في السّرج. عانيت لمرتين أو ثلاث من الدوار الشديد واستيقظت لأراه يسير تقريباً وفق الإيقاع الصّحيح، وفي آخر المطاف أصبحت أكثر ثقة وألقيت رأسي المتعب على وسادة سرجي العربي ورحت في نوم عميق.

نمت لمدة طويلة وفجأة استيقظت ويا له من استيقاظ! فقد وجدت نفسي في وسط سهل أبيض فسيح وكانت حولي تلال داكنة كغيوم سوداء تبدو في الأفق، ولكن لم تكن هناك أي إشارة على وجود أصحابي في أي مكان. لقد كنت ضائعاً في الصّحراء. وإلى أن يثبت العكس، شعرت وكأنني الإنسان الوحيد في العالم. لا بد أن أعترف أن خوفاً

رهيباً اعتراني لوهلة، لكني سرعان ما تمالكت نفسي. ها هو الهلال يبزغ وحماري الأبيض الذي أركبه يقف تحت ضوئه. لم تكن لدي أدنى رغبة في أن أقع بين أيدي العيّارين المتلصّصين، وهكذا أسرعت بتناول حجر صغير ووضعته في نهاية لجام حماري ومشينا حوالي مئة ياردة أو نحوها، ثم جلست لأتدارس الموقف وأخرجت غليوني لأدخن. فكرت أنني في حال لم أخرج عن الطريق فإن كل الاحتمالات تشير إلى أنني كنت متقدماً على القافلة، بالإضافة إلى أنه لا يعقل أنني تخلفت عن مؤخرة القافلة حتى أصبحت خارج مرمى بصري دون أن يهاجمني اللصوص الذين من شأنهم دائماً تعقب أولئك المتخلفين عن قوافلهم المعزولين في ذلك الاتجاه، والذين كانوا بانتظار هدية ثمينة من العناية الإلهية، وبالتالي فلم يكونوا ليتركوا رجلاً وحيداً حسن الهندام على حمار جيد يفلت من بين أيديهم بمثل هذه السّهولة.

جلست أدخن نصف ساعة قمت خلالها بدراسة حركة القافلة واحتساب المسافة منذ كنت فيها، قليلاً من خلال علم تحديد المواقع وقليلاً من خلال مراقبة الكواكب والنجوم. تذكرت أن القافلة يجب أن تتوقف في منتصف الليل وتبين لي أن ذلك الوقت قد حلّ تقريباً. تخيلت أنني تعرفت على إحدى التلال جهة الأفق والتي كنا قد عبرناها قبل مغيب الشمس. فقررت أن أصعد تلك التلة بأسرع ما لدي وأبحث من فوقها عن نار المعسكر. إذا لم أتمكن من رؤيتها فعندها سأنتظر حتى طلوع النهار، وأسمح للحمار بأن يرعى قليلاً ويرتاح بجانب التلة، ثم أجد آثار الجمال فأسرع متوجهاً نحو القافلة وأنا واثق من شجاعتي وحدّ سيفي في مواجهة أيّ من اللصوص.

شعرت ببعض الخوف لكنه كان ناتجاً عن أن تفوتني القافلة، واعتقد أن ذلك المأزق كان أسوأ موقف أمر به على الإطلاق. لقد تحدّد مصيري من جديد وعاودتُ الرّكوب بينما كنت أحسب وأقدر بدقة كل خطوة من خطواتي. لقد ثبتت صحة توقعاتي فلم تمر سوى عشر دقائق وأنا راكب على السّرج حتى شاهدت القافلة على بعد ربع ميل وهي تصعد مرتفعاً خفيفاً في السّهل.

عندما التحقت بهم أظهرت حال عدم الاهتمام واللامبالاة قدر ما أستطيع؛ لكن

في الحقيقة لقد افتقدني البدو وضحكوا ضحكة مريبة جداً عندما ظهرت بينهم. أطلق بعضهم تعليقات تفيد بأنني كنت محظوظاً جداً وأنه كان يتوجب علي أن أكون أكثر حرصاً. لم أكن بحاجة لأسمع ذلك الكلام، فقد أخذت حيطتي في ألا أركب ذلك الحمار في الليل أبداً بعد ذلك.

في اليوم التالي عرضت أن أركب الحمار طوال النهار خلال الأوقات الأشدّ حرارة عوضاً عن الليل، وقد رحب الجميع بالفكرة إذ كانوا جميعاً يفضلون الرّكوب في الهودج أثناء النهار. يبدو أن الحمار قد علم أنه وصل نهاية رحلته فأخذ يشدّ ويقاوم بأقصى ما يستطيع، وقد غمرتني السّعادة بعد نصف ساعة من غروب الشمس عندما أراحني عم الأمير. كان رجلاً عجوزاً فانياً، برغم أنني لا أعتقد أن سنوات عمره الفعلية كانت تتجاوز الأربعين، لكنه بدا محطماً بالكامل وأصبح عجوزاً قبل الأوان، وكل ذلك نتيجة انغماسه المفرط في تناول الأفيون. عندما تبادلت الأماكن معه قمت بتحذيره بأنه مهما فعل فينبغي له ألا يسمح لنفسه بالنوم وأعلمته بالخدعة التي قام بها الحمار معي في الليلة السّابقة.

أظهر لي سلوكه فوراً بأنه كان قد تناول جرعة زائدة من عقاره العزيز. انتابتني الخشية عليه، وقبل أن أرتقي متن البعير مشيت لمسافة قصيرة بجانبه محاولاً أن أؤكد له على ضرورة البقاء مستيقظاً والتنبه قدر المستطاع، لكن كل ما سمعته منه كان «طيّب، طيّب!» ورأيت أنه أصبح نصف نائم حتى قبل أن أتركه. اتخذت احتياطاتي عندما أخذت الحمار الضعيف من صاحبه وربطته بذلك الحمار على أمل أن يبطئ ذلك من سرعته قليلاً. لم يمنعني قلقي حياله من الاستسلام لنوم عميق في المكان الذي تم إخلاؤه للتو من قبل الرّجل المحكوم عليه بالهلاك - وهذا ما كان ينتابني من شعور - حالما استلقيت في الهودج. غفوت لساعتين، لأستيقظ بعد ذلك على إثر توقف الجمال، وينتابني الفضول لأعرف ما يجري في مقدمة القافلة. سرعان ما وصلت الأخبار: لقد وجدوا عمّ الأمير مغميّ عليه على جانب الطريق ومثخناً بالجراح، تمنعه من الحراك صخرة كبيرة وضعت فوقه. فما كان منهم إلا أن حملوه ووضعوه على

الجمل، ليقوموا في الاستراحة التالية بإدخاله إحدى الخيام وتضميد جراحاته.

لقد رأيته قبل أن يصار إلى معالجته، تغطي رأسه وظهره الكدمات والرضوض البالغة، مع جرح بمنتهى الخطورة يمتد من مرفقه الأيمن نزولاً عبر الجهة الخلفية لذراعه حتى المعصم. عاد الرّجل إلى وعيه، حتى صار بإمكانه سرد ما مر به من أحداث. بالطبع سارع إلى النوم على ظهر الحمار حالما تركته وشأنه، لتقطع غفوته ضربة حجر وقع عليه. نظر الرّجل حوله فلم يتمكن من رؤية شيء من القافلة وسط الظلام الدّامس، وكل ما رآه كان عبارة عن أشباح أشخاص تسعى بين الصّخور، ليبدأ بعد ذلك انهمار وابل من الحجارة عليه. لقد كان ذلك أحد أساليب اللصوص في القتال عندما لا تتوافر بين أيديهم أسلحة نارية، أو عند عدم الرّغبة في استخدامها. تلك الخطة التي تهدف إلى إطلاق النار عليهم بينما يتوارون بين الصّخور، ثم إن لم تنل منك أحجارهم، يأتون إليك هم وينالون منك.

إلا أنه في حالتنا هذه لم تكن هنالك ضرورة لكل تلك الخطط المحكمة، إذ أن صاحبنا العجوز المسكين، بالرغم من المسدسين المحشوين اللذين بحوزته، لم يخطر في باله استخدام أي منهما. لقد جلس دون حراك على حماره يدعو الله أن يفرّج عنه تحت وابل القذائف تلك؛ لم يكن يملك أدنى حيلة أو قوة، لذلك بقي في مكانه يتجه إلى الله بالدعاء حتى آخر لحظة. بلغت بي الشفقة لأتمنى أن أكون مكانه تلك السّاعة عندما سمعته يروي تلك الأحداث.

ولما رأى اللصوص أن قذائفهم الحجرية لم تؤتِ ثمارها المرجوة، وبعد أن خلصوا إلى نتيجة مفادها أن ضحيّتهم لا يمتلك أي سلاح يجاهدهم به، بدأوا ينسلون نحوه رويداً رويداً، حتى أن أحدهم، من يتمتع بجرأة وجسارة لا بدّ أن تعلي شأنه بين أفراد قبيلته، باغت العجوز من الخلف بضربة عنيفة على ظهره بعصا طويلة ولاذ بالفرار. عندما لم يرَ الآخرون منه مقاومة تذكر، تراموا عليه وبدأوا يعيدون الكرة - وقد بدا لي أنهم كانوا يريدون معرفة إذا ما زال على قيد الحياة - حتى اقترب أحدهم ووجه إليه ضربة جرحت ذراعه ذلك الجرح البليغ، وآخر ضربه على رأسه ضربة أفقدته الوعي.

ربما صادف وصول القافلة تلك اللحظات الحرجة قبل أن يتمكنوا من تجريده من ثيابه وما يحمل، ثم الإجهاز عليه. لذلك قاموا بوضع صخرة كبيرة عليه ليبقى ساكناً أثناء مرور القافلة، ثم هربوا بالحمير وتواروا عن الأنظار. لا بد أن ذلك العجوز قد عانى منهم الأمرين، لأنه صمد يومين في وجه آلامه وعذابه، وقبل وصولنا إلى مكّة بيوم أسلم روحه لباريها.

في أول استراحة لنا بعد سرقة الحمير، عرض «شيخ البؤسِن» استعادتها لنا مقابل جنيهين (ذلك الشخص الذي اعتبره همجياً على الرّغم من إنقاذه حياتي). وافق الأمير على تلك الصّفقة. بعد ذلك انطلق عشرون من البدو الذين كانوا برفقتنا مدجّجين بالسلاح، بما في ذلك القذائف الحارقة، ليعودوا بغضون ساعتين بالحمير. لم أشك لحظة في أن السّارقين كانوا بعضاً من الأدلاء الذين كانوا معنا. لقد صوروا لنا استعادتهم لمجموعة الحمير على شكل بطولات خارقة خاضوها، خاصة مع الدّماء التي تخضبوا بها؛ لكن الجروح الوحيدة التي من الممكن أن تكون الدماء قد سالت منها كانت فقط على خلفية حميرنا. لقد تأذت تلك الدابة كثيراً من جروحها حتى أنها لم تعد صالحة لإتمام الرّحلة معنا. وكلما غدونا أقرب إلى مكّة لاحظنا كم تغيرت معاملة المشرفين البدو التسلطية الفظة معنا. ومقارنة بيوم تصفية الحساب وسداد البقشيش المفترض، غدا سلوكهم أكثر تحضراً ورقياً.

كلما تراجعت سطوة البدو علينا، ارتفعت الرّوح المعنوية لدى الحجّاج وزادت ثقتهم بنفسهم؛ ومن أبلغ الأمثلة على ذلك أنه في اليوم الأخير قبل الوصول إلى مكّة، جرح بدوي على يد أحد الحجّاج بعد قتال بالسيوف، دون أن يفزع له قومه مقابلين ذلك بالمثل. لقد حزن الأمير حزناً شديداً على وفاة عمّه في آخر وقفة استراحة لنا، لكنه لجأ إلى المخدرات لتكسين آلامه وأحزانه، وحمد الله على أن نهاية عمّه كانت في رحلة مقدسة إلى الحجّ كتلك.

قبل أن تفيض روح العجوز إلى باريها، فتح عينيه في إطلالة أخيرة على الدنيا، معبراً عن رغبته الأخيرة، ألا وهي أن يوارى الثرى في تربة مكّة، خاصة وأنهم قد باتوا على

قرب كبير منها. وبعد أن لففناه بكفنه لنضعه على الجمل تهيؤاً لنقله، رفض البدو حمل الجثمان معهم على الإطلاق، حتى أنهم لم يوافقوا على ذلك إلا بشرط إعطائهم أجراً كبيراً لتخصيص جمل لذلك الغرض بالتحديد. وبما أن الأمير لا يمكن أن يوافق على صفقة كتلك، فقد تم دفن العجوز حيث توفي. عندما وضعنا بضعة أغصان وأحجار على ذلك القبر المتواضع، فكرت أن ذلك كان سيؤول إليه مصيري ببساطة فيما سبق. وكم شعرت بالذنب عندما عمدت إلى تجريد العجوز المتوفى من ثوب إحرامه، لكني اضطررت للحصول على ذلك الثوب السّميك الفاخر، إذ أننا لم نكن نملك من المناشف السّميكة، والتي تعتبر الزي الأكثر راحة والأنسب شكلاً بالنسبة للحجّاج، ما يكفي لكامل المجموعة، لذلك اضطررت لاستخدام قطعتين قطنيتين باللون الأبيض، لكنني الآن عوضت ذلك بثوب العم المريح والأنيق.

* * *

في عصر اليوم الثالث عشر بعد مغادرتنا للمدينة، واليوم السّادس والثلاثين بعد انطلاقتنا من وادي فاطمة، عدنا إليه مرة أخرى. صحيح أننا لم نتوقف هناك، إلا أن كل من كان مستطيعاً منا ترجل عن راحلته وأمضى بقية الطريق مشياً إلى مكّة، بجانب القافلة. حال نزولنا عن رواحلنا حان وقت صلاة العصر، فذهبت لأملأ وعاءً صغيراً من مياه القرب التي كانت على ظهر الجمال المعدّة لنقل المياه، حتى أتوضأ بها. لكني ما إن اقتربت من الجمل حتى وجّه إلي ركلة. تتم عملية الحصول على المياه من تلك القرب على الشكل التالي: يدنو الرّجل من جانب الجمل ويفك رباط عنق القربة التي يريد ملء الماء منها ممسكاً بالوعاء الذي يقوم بتعبئته حتى يمتلئ، ثم يقوم بإغلاق فم القربة بإحدى يديه واضعاً الوعاء على رأسه أو تحت إبطه، ليقوم بعد ذلك بإعادة ربط فم القربة بيديه كلتيهما.

لا أخفيكم القول أني كنت متردّداً جداً قبل القيام بذلك، إذ أن الجمل كان يترنح يمنة ويسرة، ليتوقف فجأة، ويرفع إحدى قوائمه الخلفية، وكأنه يريد أن يحك ظهره، إلا أنه سدّد إلي ركلة قوية على رأس معدتي. لقد طرت في الهواء لأسقط على وجهي على الأرضية الحجرية الصّلبة. كانت الضربة موجعة، وشعرت أن أحشائي باتت

أشـلاءً ممزقـة، لأنقلب بعد ذلك على ظهري، مغلقاً عينيّ مـن الألم وطالباً ممن كانوا حولي ألا يلمسـني أحد منهم. اسـتلقيت لبضعة دقائق، مستجمعاً قواي قبل أن أتمكن من النهوض مجدداً؛ وعندما وقفت على رجلي لاحظ صحبي من حولي كم كنت أبدو شاحباً. لقد كان ثوب إحرامي ملوثاً بالدّم، مع عدد من الإصابات في يدي وركبتي من أثر السّقطة، وبعض الرّضوض على خدي الأيمن.

مـن الغرابـة بمـكان كيف أن خفاً يبـدو طرياً كخـف الجمل بإمكانـه أن يوجه ركلة بتلـك القوة والقسـوة، الأمـر الذي تعجز عنـه قائمة فرس بحـدوة معدنيـة. لقد لقنني الجمل بتلك الضربة درسـاً لن أنسـاه ما حييت. ففي الوقت الذي كان يقف فيه بمنتهى الهدوء والسكينة، يجترّ الكلأ ويحدق بذهول في الأقاصي، ارتفعت رجله فجأة لترجع للخلف ملتصقة بجسـمه، ملوحاً بخفه، وبعد توقـف لهنيهة انطلقت فجأة كالقذيفة أو كـذراع مرجـل بخـاري، وكأن تلك الرّجل تتخـذ قرارها من ذاتها بمنـأى عن الحيوان وعن حواسه الأخرى. سبق لي أن رأيت رجلاً بديناً يتلقى ركلة جمل أطاحت به بضعة ياردات ليقع وسط جمهرة من الناس حملوه عن الأرض فاقد الوعي.

لقد كانت تلك الحادثة نذير نحس وشؤم علي، لأن الدّم الذي سال وأفسد إحرامي كان يوجـب علـي إعـادة التطهر مرة أخرى. لقد كان ذلك يسـتوجب نصف سـاعة من الوضـوء والصّـلاة. والآن لـم يتبقَ لدينا شـيء من المـاء، والقربة التي كنـت أملأ منها فرغـت قبـل أن يتمكن أحد من أخذ مكاني وربطها من فمها. كل ما كان بالإمكان فعله هـو المضـي قدمـاً أمام القافلة إلـى خزان يقال إنـه موجود على ناصيـة الطريق، وأخذ ثوب الإحرام معي لأرتديه مجدداً بعد التطهر. بعض المرافقين لي ممّن كانوا يشعرون بالغيـرة نحوي مـن حصولي على ثياب إحرام المتوفى، كان يتحدث عن الشـؤم الذي تأتـي به ثياب الأمـوات؛ لكن بالطبع لم يكن بمقدوري إلا الضحك متقبلاً منهم ذلك، فـي نفـس الوقت الـذي كنت فيه أشـعر بتحقق مقولتهـم. وتمكنت من إعـادة التوضؤ والتطهر مرة أخرى على أكمل وجه.

* * *

الفصل الحادي عشر
من مكّة إلى جدة

قبيل المساء بدأنا بالوصول إلى ضواحي مكّة. تجمّعت حشود الناس رغبة منها برؤية القافلة الهندية القادمة من المدينة. أتت إلينا النساء العجائز وبدأن يسألننا فيما إذا كنا قد جئنا من جوار قبر رسول الله، ولما أجبناهم بالإيجاب بدأوا بتقبيل ثياب الإحرام التي نرتديها. كم هو الفرق شاسع بين شوارع المدينة وشوارع مكّة المتسخة الوعرة، وبالرغم من ذلك بإمكاني أن أؤكد للقارئ أنني حالما دخلت مكّة تنزّلت على قلبي السّكينة والهدوء، فضلاً عن الشعور بالأمان الذي يعادل شعور العائد إلى وطنه حاطاً رحاله على أحد موانئها بعد رحلة طويلة في سفينة بالكاد تقوى على السّفر بحراً.

بمرورنا في الشوارع انتشرت القافلة إلى مجموعات موزعة على أقسام البلدة حيث من المفترض أن يقيم أفرادها. دخلنا إلى مركز المدينة وبالتحديد إلى البيت التي نزلنا فيها سابقاً، حيث وجدنا عند الباب جملاً ميتاً تنهشه الكلاب، وقد ملأت الأجواء روائح تفسخه، لتغدو مكّة حقاً منزلنا الذي عدنا إليه مكرهين. عندما تم فتح قفل باب غرفتنا لندخلها لأول مرة منذ أن غادرنا المنزل، ذهلنا لما رأينا! لقد ملأ الغبار الكثيف أرجاء المكان، على الصّناديق وعلى حزم الأمتعة، حتى كان بالإمكان جمعه حفناً براحة اليد كما يجمع أحدهم حفنة من الثلج.

في الخارج اتخذت الجمال مجالساً لها، وبينما تولت جماعة تفريغ الحمولة عن ظهورها، أخذت جماعة أخرى على عاتقها مسألة تنظيف الغرفة، في الوقت الذي ذهب الأمير وعدد من كبار مرافقيه إلى أداء صلواتهم وعباداتهم. أما بالنسبة لي أنا

وشريكي على الجمل فقد أتتنا الأوامر بأن نحرس كامل الممتلكات، في الوقت الذي تمّ فيه أخذ الجمال خارجاً لتجلس على كومة كبيرة أمام الباب، حتى يتم تهيئة الغرفة لاستقبالنا فيها. في ساعة متأخرة من ليل ذلك اليوم، وبعد أن أنهينا صلواتنا، تكدّسنا في تلك الغرفة الضيقة، بحيث يستلقي البعض واضعين رؤوسهم بمحاذاة أقدام الآخرين، كسمك السّردين في علبته التي يغطيها الزيت، حتى أنه خطر في بالي عندها أن ما نقوم به هو ضرب من الحمق.

لقد كان الأمير بغاية السّرور بفرسه التي أتى بها من المدينة حتى أنه قرّر شراء اثنتين أخريين في مكّة لأخذها معه إلى الهند، وأمضى اليوم التالي بأكمله في انتقائهما. عندما ذاع الخبر أنه يريد شراء أفراس، أُتي بعشرة منها أو يزيد إلى المنزل، وكان قسم كبير منها تابعاً لملكية ضباط الحامية التركية، وجميعها من النوعية الجيدة. اشترى الأمير منها مهرين فتيين كستنائيين غير مخصيين مقابل مئة دولار لكل منهما، ولم يضع يده عليها إلا بعد وقت طويل من التفاوض.

لم تكن البلدة بتلك الازدحام التي كانت عليه عندما غادرناها، إذ أن عدداً كبيراً من الحجّاج بقوا فيها، وكان مئات آخرون يأتون إليها في كل يوم من إقامتنا، يلتمسون عودة مع الأمير. أمضينا في مكّة أربعة أيام، قام الأمير خلالها بإنفاق الكثير من المال على شراء الأحجار الكريمة وسبائك الذهب التي تتوفر هناك. وتم الاستبقاء على البدو الذين أرشدونا سابقاً ليستمرّوا بعملهم ويصحبونا إلى جدّة. عند عصر اليوم الرّابع لوصولنا، تم إحضار الجمال إلى الباب، وفي غضون بضع ساعات كان كل شيء جاهزاً لانطلاقتنا الأخيرة.

اتضح لي أنه كان علي تولي شؤون أحد الأحصنة راكباً إياه إلى جدّة. كان الحصان الذي يتوجب عليّ ركوبه فتياً، وكان من المتوقع أن يكون جامحاً حرناً ويتطلب مزيد جهد في السّيطرة عليه وترويضه؛ لكن بعد أن امتطيت صهوته لبضعة دقائق، وجدت نفسي أركب حصاناً طيعاً سهل القياد إلى أبعد الحدود. كان ذلك الحصان يجري بالقرب اللصيق من الجمال دون أن ينحرف يمنة أو يسرة إلا كما يوجهه راكبه، حيث

كان ذلك يتم بمجرّد تحريك الزمام قليلاً.

ساعة أن غادرت مكّة كان من الصّعوبة علي بمكان أن أحدد مشاعري بالضبط، لقد كانت نوعاً من السّعادة التي تغمر من واتاه فجأة حظ كبير؛ ولكن كانت هنالك حقيقة غائبة عني، ألا وهي أني سأكون برفقة مسيحيين وإنكليز في غضون يومين فقط. لقد بدا الأمر وكأن عيني لم تقع على رجل من أهل الحضر لسنوات وسنوات، مع أن الأمر لم يعدُ كونه أشهراً لا أكثر. يا له من انفصال تام عن العالم وعن بني جلدتي! وبدأت بالتساؤل عما يجب علي قوله لأول رجل إنكليزي أصادفه، وكيف سيكون شعوري عندما تعود الإنكليزية من جديد لتكون هي اللغة السّائدة حولي. لقد أمضيت معظم الليل ونحن نسير في طريقنا أسامر نفسي بالإنكليزية وأتدرّب على قول: «صباح الخير»، بصوت كاد أن يصبح غريباً عني لقلة سماعه. وبعد ساعة من طلوع الشمس، حان موعد استراحتنا عند الحدة Haddah، حيث يتنصف الطريق بين مكّة وجدة.

أمضينا كامل النهار هناك، وبالنسبة لي فقد نفد صبري خلال الاستراحة، لأول مرة منذ سفري على الجمال. وقد يقول قائل أنني لا بدّ قد عشقت هواية القفز على صهوات الجياد ووكزها لتنطلق بأقصى سرعة، لكن ذلك لم يحدث أبداً. لم يكن بمقدوري أن أنام أو أتناول الطعام؛ وبدت الشمس غير راغبة بالأفول. فما كان مني إلا أن أمضيتُ ردحاً من النهار أستمتع بماء جدول كان ينساب بجوار المضارب، ولم يخرجني إلا طفل من أطفال القبائل. أعتقد أن قصة ذلك الطفل جديرة بالسّرد عليكم، إذ كم هي قديمة ومتأصلة بذرة الشقاوة والفتنة في نفس الإنسان منذ فتوته، اللهم إن لم تكن فطرة في نفسه انتقلت إليه بالوراثة.

القصة هي أنني عندما نزلت إلى المياه خلعت ملابسي بالطبع وعمدت إلى إخفائها تحت بعض الأحجار، خشية أن يتسلل إليها بعض اللصوص ويقوم بسرقتها في غفلة مني. نسيت نفسي في الماء العذب الرّقراق يداعبني ببرودته ويخفف حرارة الجو عني، وإذا بصغير من صغار القبائل يتسلل خلف الأحجار باتجاهي وهو شبه عارٍ من الثياب. لقد رأيت في عيني ذلك الشيطان الصّغير نوايا سيئة، فتناولت حجراً

من الأرض استعداداً لقدومه، وليعلم في الوقت نفسه أن بمقدوري رؤيته. في البداية توقعت منه الفرار، لكن لم يكن ذلك في نيّته على الإطلاق؛ لقد تقدم نحوي بكل جرأة وجسارة، وصرخ بالصّوت العالي (هاتِ ما لديك!)، ملوحاً بخنجر كبير في يديه وهو يرمقني بأقسى النظرات، مع أنه لم يتجاوز الرّابعة عشرة من عمره. لا أخفيكم أني قد أعجبت أيما إعجاب بشجاعة ذلك المغامر الصّغير.

لكن في ذلك الوقت بالذات عرضت لي مشكلة، إذ أنه لا يمكن التنبؤ أين سينتهي الجنون بهذا الفتى في مغامرته تلك، فقد كان ينظر إلي نظرات ملؤها الثقة بما يمكنه تحقيقه. لم أكن أريد إيذاء الصّبي وإلا لكنت رشقته بالحجر الذي بين يدي مهشماً رأسه. كما أن الإمساك به ينطوي على كثير من الخطورة. فقد كنت مجرّداً من ثيابي، أما هو فكان مسلحاً بخنجر كبير حاد، قد يعمله فيَّ جرحاً وطعناً لو أنني أمسكت به.

في مثل تلك الحالات يتطلب الأمر مقداراً وافراً من هدوء الأعصاب، حتى وإن كان الغريم جرذاً، عندما تكون متأكداً من تلقيك لعضة منه. بعد ذلك حاولت أن أشرح له كم كان طلبه مستهجناً، في الوقت الذي يراني فيه عارياً تماماً. لكن كل الذي ردّده هو عبارة: «هاتِ ما معك من مال!» بطريقة تنطوي على المزيد من التهديد، ملوحاً بخنجره بعصبية أكبر قريباً من بطني. لقد كان يعلم أن ثيابي في مكان قريب، ولم يزده مظهري إلا مزيداً من الجرأة معتقداً أنه قد أمسك بأحد الحجّاج المساكين الذين لا حيلة لهم ولا قدرة على المقاومة، وأن بمقدوره الاعتداء عليه دون عقاب.

لا أخفيكم القول أنني قد فكّرت للحظات بالفرار دون ثياب، حتى يتسنّى لي المجيء بعصا كبيرة واسترجاع ثيابي. لكن سرعان ما تذكرت أن الصّبي قد يذيقني طعم خنجره. في تلك الأثناء، خلصت إلى الخطة التالية والتي عملت على تنفيذها، ألا وهي أني ذهبت به إلى حيث ملابسي، وأخرجتها من تحت الحجارة، ثم عملت على طيها بطريقة أنيقة توحي بأني بصدد تقديمها له، لكني بدلاً عن ذلك، أشبعته ضرباً ولقّنته درساً لا ينسى في الشجاعة وفي فنون القتال، موجهاً إليه ضربة لا تُردّ من صرّة الملابس ومطيحاً به أرضاً، وقبل أن يستجمع قواه ويقف على قدميه مرة أخرى فررت

بعيـداً، حتى قبل أن يتمكن من رميي بحجر. لكن الذي حصل أني سـمعته يرفع صوته خلفـي بالصّرخـات الطفولية التي يملؤها التحدّي عندمـا صارت المضارب في مرمى نظري. بعد ذلك توقفت وارتديت ملابسي.

رويت ما حصل لأصحابي الذين استمتعوا بالقصة وطربوا لسماعها إلى أبعد حد، لكنهم جميعاً أجمعوا على أن كل شـيء متوقع من «الأولاد الشـياطين الذين يتسـمون بالإيمان، مع أنهم لم يصلوا يوماً لله صلاة واحدة».

* * *

عنـد غروب الشـمس بدأت المرحلة الأخيرة من مسيرنا عبر الصّحـراء، وبعد ليلة هادئة لاح لنا البحر وجبال جدّة البيضاء وست سُفن بخارية إنكليزية ترسو عند الميناء.

بعيد دخولنا بوابات البلدة، رأيت فرنسـياً كنت أعرفه من قبل، لكنه لم يعرفني بزيي المحلـي الـذي أرتديه، بالرغم من نظراتـه العميقة إلي وكأن هناك شـيئاً فيَّ لم يفهمه. لا بـد أن رغبـة عارمة في الحديث إليه قد اجتاحتني لمجرّد سـماع صوته، لكن لم أكن أتمنـى أن أفصح عن الحقائق لأصحابي، احتراماً لمشـاعرهم، لذلك ذهبت معهم إلى نُـزل قريـب على حافة البحر، حيث يتسـنى المبيـت إلى أن يتاح لنـا الصّعود على متن سفينة مناسبة.

في صباح اليوم التالي، لم أتناول الفطور الذي كان عبارة عن الأرز بالكاري، إذ أنني حالمـا غسـلت وجهي وبدلت ثوبي وعمامتي، هرعت إلـى الخارج وأنفقت روبية من الرّوبيتيـن والنصف التي كانت بحوزتي على شـريحة لحم مـع الخبز الأبيض والقهوة فـي مطعـم فرنسـي لا يبعد كثيراً عـن النزل الذي حللنـا فيه. في ذلـك المطعم تبادلت الحديث مع اثنين أو ثلاثة من الفرنسـيين مـع لفافة التبغ التي أحرقتها وكأس الكونياك الذي احتسـيته. لقد أفصحت لهم عن بلدي الأم، وعن ظروفي الحالية، فما كان منهم إلا أن عرضـوا تزويـدي بثيـاب أوروبيـة، كان من دواعي سـروري قبولهـا، ذلك على الرّغم من عدم ارتدائي لها في الحال.

الأمـر التالـي الذي قمت به هو ذهابي إلـى القنصلية البريطانيـة، لتذكيرهم بزيارتي الماضيـة. لا أعتقـد أنهـم قد توقعوا رؤيتي مـرة أخرى هناك، إذ أنهـم كانوا يظنون أني عندما ودّعتهم باتجاه مكّة ستكون تلك آخر مرة يرونني فيها. لقد كان القنصل حينها على متن سفينة حربية، لكن نائبه اللبق وقتها لم يقصّر في عرض ما بوسعه لمساعدتي علـى الذهـاب إلى بومبـاي؛ عندها أخبرته أنـي أفضّل العمل كبحار مـن أن أبقى على وضعـي الحالي. فضلاً عن ذلك قـدّم لي آخر الأخبار لقراءتهـا، الأمر الذي كان بغاية اللطف منه.

بقيـت طـوال اليوم بعيـداً عن أصحابي القدمـاء. بعد الحديث مع أحـد أبناء بلدي، خشيت نوعاً ما العودة إلى رفاقي من الحجّاج، حتى أنني عفت أن يطلق أحد عليَّ لقب «الحـاج»، ذلـك اللقب الذي ينادي به بعضنـا بعضاً، على وجه التفخيـم، والذي بذلنا الكثير للحصول عليه. لم أعد أعرف ما الذي اعتراني، إذ أن سلوكهم وتصرفاتهم التي كنت أتبعها لشهور اتخذت فجأة شكلاً بغاية الفجاجة والاستهجان في عيني. وبما أني كنت مفلسـاً تمامـاً، لم يكن بمقدوري تركهم في ذلك الوقـت. لذلك فقد تجوّلت في الشـوارع حتى بدأت الأجواء تبرد شيئاً فشيئاً مع حلول الليـل، عندها اضطررت إلى العـودة إلـى المنزل والتمدّد في الغرفة المزدحمة ذات الطـراز القديم. كم بدت الغرفة بسـاكنيها جلفة تلك الليلة، وكم كانت ثقيلة وطأة ذلك الشعور الذي كان يراودني وأنا نائم بينهم!

عند الصّباح استيقظت مجدداً وغادرت المنزل لأتمشـى على الشـاطئ، وأنا أنظر إلى السّـفن تنعكـس عليها مصابيح كل تلـك المنازل، وأفكر فيما لو كان باسـتطاعتي يومـاً الصّعود على متـن إحداها. عندما فتحت المتاجر عمدت إلى تناول فطور شـهي بالروبية المتبقية في جيبي بالإضافة إلى بعض قطع العملة المعدنية. وأثناء تجوالي في سـوق مزدحم إلى حدّ ما، في طريقي إلى المطعم، مررت بحشـد من الناس مجتمعين حـول امرأة هندية مع صبي يقوم ببعض الحركات البهلوانية المبتذلة. لربما كانت تلك المـرأة أرملة أحد الحجّـاج وهي تحاول جمع بعض المال للعودة إلى أهلها وخلانها.

لقد خطر ببالي أن أتصدق عليها بشيء من المال، فأدخلت يدي في كيس النقود، لأخرج شيئاً منها. بالرّغم من أن كافة القطع هي من نفس القياس، لم يخطر ببالي أن يدي ستقع على الرّوبية. لقد قمت فقط بإلقاء أول قطعة تقع في يدي دون النظر إليها. بالطبع كانت هي الرّوبية، التي لم يعوّضني عنها لا إعجاب الحشد ولا نظرات الامتنان من المرأة وصبيّها.

لك أن تحكم أيها القارئ العزيز كم كان موقفي مضحكاً وأنا أعود إلى المنزل دون إفطار!!! لقد أخبرت الأمير على الفور أني بصدد مغادرته والتطوع في جيش السّلطان. في البداية ضحك علي، وتظاهر باعتقاده أن الأمر مجرّد مزحة؛ ثم بدأ بتوجيه اللوم والتوبيخ، لكنه في النهاية لجأ لاستعطافي مذكراً إياي بأنه سيقدّم لي خمسمئة روبية في الشهر، وبأنه سيساعدني على الانضمام إلى إحدى فرق الخيالة التابعة لحكومة بلاده والتي يقوم بالإشراف عليها.

بعد ذلك قلت له أنه في حال أعطاني المال اللازم لرحلة عودتي إلى بلادي فإنني سأبقى معه. وشرحت له سبب طلبي للمال، وهو أن كوني بحاراً يوفر لي سبيل عودة أرخص من السّفر براً. إلا أن السّبب الفعلي كان علمي بأنه بالرغم من أن رسوم السّفر تساوي الآن ثلاثين روبية، فستصبح عشرة روبيات فقط قبيل اكتمال حمولة السّفينة من الرّكاب، بذلك أكون قد وفرت عشرين روبية لجيبي الخاص. كانت تلك إحدى الحيل التي تستحق البحث والتفكير. لم يكن الأمير ليتركني أذهب في ذلك الوقت مقابل صفقة يمكنه أداؤها، لذلك ما كان منه إلا أن قدم لي الثلاثين روبية التي طلبتها منه.

في ذلك اليوم عمل على تأمين رحلة عودة لكامل مجموعته، وذلك في سفينة بخارية إنكليزية تحمل حتى ألفي طن، والتي كان من المفترض أن تبحر في اليوم التالي. أمضيت كامل اليوم بعيداً عن أصحابي، وبشكل أساسي عند مرسى القوارب أسامر طواقم وعمال السّفن. وهناك التقيت برجل كان قبل سنوات ثلاث بحاراً قوي البنية في سفينة لندن والتي كنت فيها مساعد بحار. بالرّغم من عملنا لمدة سنة وأربعة

أشـهر في السّـفينة نفسـها والمجموعة نفسـها طوال الوقت، فإنه لم يتعرف عليّ. لقد تحدثت إليه لمدة سـاعتين بلغة إنكليزية ركيكة، دون أن يتذكر شـيئاً عني، الأمر الذي يظهـر كم تغيّرتُ بسـبب لحيتي الطويلة وزيي الشـرقي. حتى عندمـا حاولت أن أعرفه على نفسـي وغيرت من نبرة صوتي، بقي الرّجل على شـكه وارتيابه، لكن أكثر ما أثار دهشته واستغرابه هو أنني كشفت له عن هويتي.

في اليوم نفسه بحثت عن بعض قباطنة السّفن البخارية الإنكليز وطلبت منهم العمل لديهم مقابل السّماح لي بالسفر معهم، إلا أنهم أخبروني بأنهم قد سمعوا عن أخباري من القنصلية، وبأنهم قرروا ألا يسـمحوا لي بالسـفر معهم، وذلك بسـبب الخوف من إيـذاء الحجّـاج الذيـن ينوون حملهم معهـم في السّـفينة. بعد ذلك تم اسـتدعائي إلى القنصلية حيث تم إخباري بأن أياً من القباطنة لن يسمح لي بالسفر إلا إذا سافرت على أساس كوني مسلماً.

لاقتناعـي بأنـه لا جدوى من الجدال والنقاش في ذلك الأمر، أقنعت نفسـي بالبقاء حيث أنا ومن ثم السّفر مع الأمير إلى بومباي.

كان الإبحـار في السّـفينة التـي من المفتـرض أن أكون على متنهـا يخضع للتأجيل يوماً بعد يوم، لمدة خمسـة أيام؛ وكما تنبأت فإن أجرة السّـفر كانت تأخذ بالانخفاض تدريجياً، إلى أن أضحت، في صباح اليوم الذي أبحرت فيه فعلاً، عشرة روبيات فقط. بعد ذلك، أرسـلت أحد المتسـوّلين الهنود إلى المكتب للحصول على بطاقة باسمي، وأعطيته روبية مقابل تعبه.

* * *

الفصل الثاني عشر
على متن السّفينة

ذهبت مجموعتنا بأكملها إلى السّفينة البخارية في ثلاثة زوارق كبيرة، حيث وجدنا بعض الصّعوبة في الصّعود على متن السّفينة سواء بأنفسنا أو بأمتعتنا. ليلحق بنا بعد ذلك الأحصنة الثلاثة في زورق رابع. عندما وصلت الأحصنة للسفينة، تطلب نقلها القفز في الماء، ومع ذلك حافظت على هدوئها ولم تُبدِ أيّ انفعال أو خوف. كنت حينها أقف على متن السّفينة، وتحديداً في الممر الرّئيسي لأراقب دخولها، وفكرت أنه من الغباء تغطية عيونها بأقمشة ضخمة لُفت مراراً وتكراراً لتربط بإحكام على رؤوسها. لكن أغبى ما في الأمر هو ربط أقدامها سوياً، ثم ربط الحبل بطول ستة أقدام تقريباً من حافة المركب.

في الحجرة الواقعة في وسط القارب كان هنالك حصانان، والأقرب منهما إلى المرجل البخاري قفز من مكانه فجأة عند انطلاق البخار وارتفع على أقدامه، مندفعاً بقوة إلى الأمام وموجهاً ركلةً غادرة إلى الحصان الآخر المسكين الذي انتصب على قدميه هو الآخر متفاجئاً وخائفاً في الوقت الذي بدأ فيه المركب بالحركة. وبما أن أحداً لم يكن فوق رأسه فلم يكن هنالك من سبب لبقائه داخل القارب، لذلك ما كان منه إلا أن اتجه نحو حافة المركب وتدلى باتجاه الأسفل حتى أن حوافره لامست سطح الماء. أصبح الحصانان في وضع لا يحسدان عليه، فأحدهما يغرق والآخر معلق خارج السّفينة على ارتفاع ثلاثين قدماً من القارب، يضرب برجليه في الهواء بقوة وكأنه يحاول الخروج من الحبال ثم سيكون مصيره السّقوط، بينما كان الثالث،

في الحجرة الأمامية من القارب، يبذل جهده لمرافقة صاحبه على متن السّفينة.

أما في القارب، فكان كل من العرب والزنوج يقفزون ويصيحون بلا جدوى، ودون محاولة عمل شيء لإنقاذ الحصانين. كان سطح السّفينة مكتظاً بالحجّاج المهتاجين لأن عمال السّفينة الذين كانوا يحاولون سحب الأحصنة باءت جهودهم بالفشل.

كان ما يجب فعله في تلك الأثناء واضحاً. فالحصان المعلق على الرّافعة يجب إنزاله في الحال، ثم تبذل الجهود لرفع الحصان الآخر الغريق سحبه من الماء قبل أن يذهب بعيداً في الأعماق. إلا أن الهرج والمرج الحاصلين، والأوامر المتضاربة التي كان يتم إصدارها، وصياح الحجّاج الهائجين، كل ذلك جعل من الصّعوبة بمكان لأي كان أن يتصرف أو يفعل شيئاً.

بدأت الأمور تسير باتجاه فقد الخيول الجميلة الثلاثة. ويا له من شعور بالعجز في مثل تلك المآزق! خاصّة وأنني لا كلمة مسموعة لي، ولا أملك السّلطة على الموجودين، وفي ظل ذلك التخبط والتردّد خطر في بالي عشرون فكرة في أقل من دقيقة، لكن أياً منها لم يكن صالحاً للتطبيق في تلك الحالة الطارئة. فما كان مني إلا أن تنحيّت جانباً وبدأت أقلب الأمور في رأسي بهدوء. أما الأمير فكان يقف على جسر قريب هو وكبار حاشيته، يندبون حظهم ويضربون أخماساً بأسداس، ويعتصرون ألماً وحزناً لكل حركة يتحركها الحصان الذي في الماء مقاوماً الغرق.

كانت الفرصة الوحيدة له في النجاة تكمن في تحرير أقدامه من الحبل ومنحه فرصة لإنقاذ نفسه. لكن لم يكن بالإمكان النزول إلى أسفل القارب، ولم يكن معي من سكين لأقطع له الحبل، فلم يكن أمامي إلا أن أنادي على الناس في الأسفل لكي يعملوا على تحرير أقدامه من الحبل. كان مما خفف عنا آلامنا رؤية الحصان الثالث واقفاً على قدميه في مكان آمن على القارب. بعد ذلك نزل الحصان في الماء بقوة وخرج وقد انقطع الحبل الذي يلف قدميه الأماميتين، لكن ذلك لم يغير من الأمور شيئاً فقد أصبح الآن معلقاً بطريقة تجعل من إنقاذه بواسطة الحبال أمراً بغاية الصّعوبة.

في تلك الأثناء أدرك عمال السّفينة ما يجب عليهم فعله وكأنه صحوا من سكرتهم، وبدأوا بأرجحة الحيوان المعلق وإنزاله إلى الأسفل وهو يرتعش من الخوف، فما كان من الحشد المتجمع هناك إلا أن ابتعد عنه تاركاً مسافة أمان خشية ركلة من حوافره. عندها أخذت سكيناً من أحد البحارة، وقفزت إلى البكرة التي تدير السّلسلة حالما تحرّرت من الحصان وبثوان معدودة أنزلته إلى الأسفل. صحيح أن التغلب على عدد من الزنوج كانوا في طريقي وقطع حبل كان يلف حصاناً يغرق قد تم في ثلاث ثوان فقط، إلا أنه قد أتى متأخراً. لكني عزّيت نفسي بأنه لم يكن في الإمكان أفضل مما كان.

وبالرغم من أن رأس الحصان قد طفا على السّطح لمرتين فإنه كان ملفوفاً بقماش مبلل، وعلى الأغلب فإن أطرافه السّفلى كانت كذلك. غدا الحبل الذي كان يلف قدميه أكثر تعقيداً والتفافاً بشكل يعيقه عن الحركة، لذلك حتى وإن كان يتقن السّباحة وبقيت فيه القوة لذلك، فلن يستطيع الحركة كما يجب. حتى لقد خطر لي ثلاث مرات أن أقفز في الماء حتى يتسنى لي تحرير أقدامه. ثلاث مرات اتخذت وضعية الاستعداد للغطس في الماء، إلا أن الحصان، أثناء غرقه في الماء الأزرق الصّافي، كان يضرب الماء بعنف من حوله فخشيت على نفسي أن أتلقى ركلة منه، لذلك وقفت جانباً وبقيت أراقب كيف كانت غريزة البقاء عند ذلك الحصان تتغلب على الغرق والموت. لم يستغرق الأمر أكثر من ثلاث إلى أربع دقائق وهو يصارع الموت حتى خارت قواه وتوقف عن الحركة، لتطفو جثته على السّطح، ويتم سحبه بواسطة القارب ثم رفعه على متن السّفينة.

كم حزنت على صاحبي المسكين! إنه الذي أخذني بعيداً عن مكّة. إن الحيوان صديق وفي، إذ أن صحبته ولو لفترة قصيرة توطّد أواصر الصّلة بين الإنسان وبينه. لمّا مدّدوه على سطح السّفينة بدا جلده اللامع أكثر جمالاً وإشراقاً، حتى رأسه بدا أكثر جمالاً، لكن عينيه اختفتا تحت غشاوة رقيقة. ولا أخفيكم القول أني كنت في غاية التأثر لمنظره، حتى أني ابتعدت ولم أستطع العودة إلى سطح السّفينة حتى علمت بأنهم قد رموه لأسماك القرش.

الآن بعد أن هدأت أعصابي حمدت الله أني لم أقفز في الماء وراء الحصان، لأنني أعلم تماماً بأن الحصان أثناء تعرضه للغرق وبشكل فطري يدوس على أول جسم صلب يصادفه أمامه، ولقد سمعت مثالين أو ثلاثة عن رجال تم إغراقهم بتلك الطريقة وهم يحاولون إنقاذ حصان.

أما الحصان الثالث فلم يصادف تحميله ونقله أيّة مشاكل. وقد رأيته خارج القارب بنفسي أثناء حراستي ومراقبتي لئلا يقع أي نوع من الحوادث السّيئة التي واجهتنا.

***

أثناء الأحداث التي مرت بنا أعلاه كنت قد تخلصت من مظهري المشرقي، وبدأت بتحدّث الإنكليزية بطلاقة، مستخدماً العبارات التي درج البحارة على تداولها بينهم، إلى درجة أن كافة الناس الموجودين في السّفينة عرفوا بأني إنكليزي الجنسية، بصرف النظر عن زيي وشعري المقصوص. جاء إليّ الضابط الذي كان يشرف على عملية تحميل الأحصنة ظناً منه بأني مالكها. لكنني صحّحت معلوماته، مفصحاً عن هويتي الحقيقية، وشارحاً له كل الملابسات المحيطة. ذهبنا بعدها سوياً عند الأمير، إذ أنه كان يرغب في معرفة فيما إذا كان لصاحب الخيول أية شكوى ضد السّفينة بسبب ما حصل.

كان الأمير عندها قد استعاد رباطة جأشه، متعاطياً مع ما حدث كأيّ مؤمن بقضاء الله وقدره. وعندما ترجمت له سؤال الضابط أجاب جواب المؤمنين: «إن لله ما أعطى ولله ما أخذ». بعد ذلك أثنى على جهودي في العناية بخيوله، وتنبّه إلى أنني قد فقدت طربوشي، إذ أنه كان قد سقط مني في القارب، لذلك أمر لي بواحد آخر من طرابيشه الخاصة. بعد ذلك ذهبت وعرّفت البحارة على نفسي الذين قبلوا حملي على السّفينة مقابل عملي. بعد ذلك وضعت أمتعتي في سرير فارغ، ثم استلمت غرفتي.

نزل الأمير وخمسون آخرون من الحجّاج الموسرين في الدرجة الأولى، وكانت

مقصورتهم في مؤخرة السّفينة. أما أنا فقد حجزت لنفسي مكاناً في الدّرجة الثالثة، التي تخوّلني فقط باستخدام سطح السّفينة والنزول في الطابق السّفلي، لذلك لم يكن الأمير يراني إلا نادراً أثناء تواجدي على السّطح فقط. كنت أتمنى، مع أن الأمر سيّان بالنسبة لي، ألا يكتشف الأمير مكان سكني.

بالإضافة إلى ركّاب الدرجة الأولى كانت السّفينة تقل على متنها ألفاً وثلاثمئة مسافر من الدرجة الثالثة. وعندما اتضح لي أن جميع أولئك المسافرين قد تم جمعهم سوياً: رجالاً ونساءً وأطفالاً دون تفريق بينهم، مكتظين في مكان واحد دون أن يتاح لهم جميعاً التمدّد أرضاً في وقت واحد، أدركت حينها لماذا يعتبر كثير من الحجّاج السّفر بحراً أكثر خطورة منه براً. خلال رحلتنا التي تستغرق واحداً وعشرين يوماً إلى بومباي، لم يكن يمرّ علينا يوم واحد دون حالة وفاة، حتى أنه في صباح أحد الأيام الجميلة تم إخراج ثلاث جثث من القبو العفن من بين الكائنات البشرية المكدّسة فوق بعضها.

طوال الرّحلة لم يسأل الأمير عني بالمرة. وقبل وصولنا إلى بومباي بيومين، ارتديت ملابس بحار إنكليزي، وتمشيتُ بين الحجّاج. لقد كان التغيّر في مظهري جذرياً حتى أني كنت متأكداً أنه في حال تحدثي مع صحبي القدماء فإن أحداً منهم لن يعرفني البتة. في صباح اليوم الذي وصلنا فيه بومباي حلقت ذقني واستعدت مظهري الأوروبي، وبعد ذلك وقفت على سطح السّفينة وسمعت أصدقائي من الحجّاج يتساءلون عني وعن أي جزء في السّفينة قد نزلت، فقد كانت الأمكنة في السّفينة أكثر مما يعرفون.

اتخذتُ سبيلاً بمنأى عن كل معارفي المسلمين حتى وجدت الفرصة لوضع أمتعتي في قارب والتمدد وحيداً على الشاطئ. بعد ذلك أدرجت اسمي في سجل البحارة، دون أن يشك أحد بأن البحّار الإنكليزي الشاب، الذي تناول تلك الليلة على الغداء لحم خنزير بارد أكثر من ثلاثة رجال ممن كانوا على المائدة، هو نفسه المسلم المتفاني في إسلامه الذي كان بينهم منذ بضعة أسابيع مضت.

بعـد عدة أيام قابلت الأمير في الشـارع. وإمّا أنه لـم يعرفني أو أنه ظنني أحد معارفه الذيـن لا يعنـون له شـيئاً، لذلك فقد تجاهلني تمـام التجاهل. وإذا كانـت الثانية، فكل الـذي أتمنـاه ألا يكون القارئ الـذي رافقني عبر رحلة الحجّ هذه قـد كوّن نفس الرّأي عني أيضاً، وأنه سيتصرّف بالطريقة نفسها فيما لو جمعتنا الأقدار يوماً.

* * *

الفصل الثالث عشر

الحجاز

لا أعتقـد بأننا قد أضفنا شـيئاً إلى معلوماتنا الجغرافيـة أو الطبيعية عن المنطقة التي تحمل اسـم الحجاز. وبالتأكيد فقد كانت محاولتي إضافة شـيء على العمل الذي قام به سـلفي القبطـان ر. ف. بُرتون بمعلوماتـي وآرائي الضحلة مجـرّد وقاحة مني. لكن بما أن العديد من الإنكليز أصحاب الاطلاع والخبرة لم يشـعروا بالخجل أن يفصحوا لـي عن عدم امتلاكهم لمعلومات دقيقة عن خريطة مكّة وتفاصيلها، وعلى اعتبار أنني فـي اليـوم التالي لاحظت بأن أحـد الكتاب في صحيفـة "The Thunderer"، تحدث عـن الحجـاز وكأنها بلدة أو مدينة، لذلك قلت لنفسـي ماذا لـو غامرت وقدّمت بعض الوصف الموجز عن المنطقة وسكانها؟!

تحدّ منطقة الحجاز من الشـمال أرض مدْيَن، التي تخضع لحكم باشا مصر، وتمتدّ نزولاً على طول سـاحل البحر الأحمر حتى حوالي خط العرض عشرين. ومن الشرق تضم منطقة من ساحل البحر الأحمر حتى هضبة نَجد الكبيرة في وسط جزيرة العرب، وهي موطن الخيول العربية الأصيلة، وتخضع لحكم الوهابيين.

كانت الحجاز تابعة في حكمها للسـلطان التركي، الـذي أقام حامية من قواته حول كل بلـدة مـن بلداتها الرّئيسـية، أمـا الطرقـات فكانت دوريـات الخيّالة التركيـة تبقيها مفتوحـة على الـدّوام. وبالرغم من أن الأتـراك كانوا يحكمون قبضتهم على السّـلطة،

بطريقة همجية نوعاً ما، فلم يكونوا يقدّمون حماية تذكر للمسافرين عبر البلاد، بل كانوا لا حول لهم ولا قوة، حتى يتم تسليحهم لإخماد أيّة ثورة قد يقوم بها سكان البلاد، وخاصة إذا كانوا مزودين بأسلحة حديثة. ولا أعتقد بأن احتمال وقوع ثورة كتلك بعيد على الإطلاق، بل يجب أن أقول إنها كانت وشيكة؛ وذلك لأن كره الأتراك كان قاسماً مشتركاً بين كل من البدو والحضر من العرب، ولو استطاع الطرفان حتى الآن التغلب على كراهيتهم تجاه بعضهم البعض للوقوف بوجه عدوّهم المشترك، فإن أيام الحكم التركي تكون معدودة في المنطقة. علاوة على ذلك، لو وقعت حادثة من ذلك النوع، فإن الحجّاج سوف يشاركون سكان المنطقة تعصّبهم، إن لم يكن بدرجة أكبر.

إن أقصر الطرق التي كانت تفصل المدينتين الكبريين مكّة في الجنوب والمدينة في الشمال، تمتدّ لحوالي ثلاثمئة وستين ميلاً؛ تلك المسافة تقطعها الجمال السّريعة في حوالي ستة أيام. أما كبرى المدن الداخلية التالية فكانت الطائف، التي تبعد خمسة وسبعين ميلاً عن مكّة من ناحية الشرق، مرتفعة عنها إلى مسافة كبيرة، ومتخذة مقراً لها في مرتفعات أعلى الجبال في الحجاز من ناحية الجنوب، وهي سلسلة «جبل غزوان» التي تبقى الثلوج على قمّتها طوال العام.

بالنسبة إلى كبرى الموانئ في الحجاز فهنالك اثنان: ينبُع وجدة. أما ينبُع فهو ميناء المدينة، الذي يشهد الكثير من عمليات الاستيراد التجاري بغرض إمداد المدن والبلدات الكبيرة. كما أن العديد من الحجّاج اعتادوا على النزول في هاذين الميناءين الكبيرين، حيث من المفترض، اعتباراً من تلك المنطقة، أن تبدأ سلطة السّلطان امتداداً إلى الشمال.

أمّا جدّة فهي ميناء مكّة، حيث تقع على السّاحل مباشرة إلى الغرب من بلدتها الرّئيسية، وتتمتّع بميناء كبير وآمن، بالرغم من خطورته في بعض الأحيان، كما أن ميناءها يشهد أيضاً حجم تبادل تجاري كبير، حتى أن مجموعات السّفن البخارية الإنكليزية تتوافد عليه بانتظام، وخلال موسم الحجّ بإمكانك أن ترى أساطيل مكونة

من سبع أو ثماني سفن كبيرة ترسو هنالك في آن معاً. يقطن في جدّة الكثير من التجار والسماسرة الأوروبيين. وفي أسواقها المحتشدة يمكن مشاهدة مواطنين جاؤوا من كافة بلدان العالم، حيث تباع منتجاتهم في محالها وأكشاكها.

باستثناء بعض التفاصيل الصّغيرة فإن تلك المدينة تحمل شبهاً كبيراً بكافة مدن الحجاز الأخرى، وخاصة مكّة، ذلك فإنك لا تجد فيها شيئاً من المشروبات الرّوحية أو المسيحيين، فهذه المظاهر التي لا يحبّها المؤمنون الصّادقون تنحصر فقط على أماكن محدودة داخل بعض البيوت. وتمتدّ تلك المدينة على مساحة ميلين تقريباً في محيطها، حيث تكتظ المباني في تلك المناطق باستثناء المناطق السّاحلية، التي تُركت فيها مساحات فارغة شاسعة توجد فيها بضع ساحات تنتهي إلى حصون أكل الدهر عليها وشرب.

حدّد المسلمون قبر حوّاء أم البشر خارج أسوار جدّة. لم أزر ذلك القبر، لكن من خلال وصف أصحابي الذين قاموا بزيارته فإنه لا يختلف كثيراً عما كان عليه يوم زاره بُرتون، حيث وصفه قائلاً: «أنا الآن في آخر زياراتي خارج أسوار جدّة حيث ترقد «ستنا حواء أم البشر». «لقد عبرنا أنا والصّبي محمّد بوابة مكّة على متن حمارين ذات مساء واتجهنا نحو الشمال الشرقي، مجتازين الفيافي الرّملية. وبعد نصف ساعة من المسير، بين الأكواخ والمقاهي المتهالكة، وصلنا إلى سور الحصن لنجد الأبواب موصدة. ووقتها جاء رجل من أقصى المدينة يسعى بكل عزم وقوة، يتبعه رجلان آخران؛ وما أدهشني وقتها قيامهم بإدخال المفتاح بحماس منقطع النظير ثم غادروا محيّين إيانا بانحناءة خفيفة عندما دخلنا داخل الجدران البيضاء».

«كمسلمة، من المفترض أن تكون أمّنا حواء متمدّدة باتجاه الكعبة، رأسها باتجاه الجنوب وأقدامها باتجاه الشمال، ويدها اليمنى تحت خدها الأيسر، تحت قبّة بيضاء صغيرة تلوح للمسافرين من بعيد، مع باب باتجاه الغرب، حيث تم فرش المقام كأي مكان آخر كذلك في الحجاز. تحت تلك القبة وفي منتصف المقام يوجد حجر مربع تم تثبيته نحو الأعلى ونحته بشكل أخّاذ يمثل الحبل السّري لدى الإنسان، لذلك تم إطلاق اسم السّرة على ذلك الحجر مع القبّة. دعاني الدليل السّياحي إلى تقبيل تلك

التحفة الفنية، الأمر الذي قمت به ولكن مع اعتقادي أنه نوع من التحية التي لا مبرّر لها في ظل تلك الظروف».

«بعد أن صلّينا عند الرّأس حيث نَمَت عدة شجيرات، تمشينا بجوار الجدارين الواطئين المتوازيين اللذين يحدّدان جسد الأم: لقد كانا على شكل ستة أقسام متباعدة، وعند العنق كان بينهما قبران، يرقد فيهما كما تم إخباري عثمان پاشا وابنه، اللذان قاما يوماً ما بترميم الضريح».

«لم أستطع حينها أن أشرح لمحمّد الذي كان برفقتي أنه إن كان طول الإنسان الذي يعتبر أصل البشر يصل إلى مئة وعشرين خطوة من الرّأس حتى الخصر، وثمانين من الخصر حتى القدمين، فإنها تشبه أكثر ما تشبه البطة. هنا أجاب الشاب متهكماً بأنه يشكر الله على كون أمنا الأولى تحت التراب اليوم، وإلا لفر الرّجال منها خوفاً وهلعاً».

«لقد كان نُصب جدّة، أيام الوثنية الجاهلية، يدعى بالصّخرة الطويلة. ولكن ألا يمكن اعتبار ضريح حواء ذلك إعادة إحياء لأوثان العرب إنما بشكل معاصر»؟

* * *

لكن في أيام الحكومة التركية في الحجاز، لم يكن السّكان الأصليون يسمحون للمسيحيين بالدخول حتى إلى جدّة، وبقاؤهم فوق التراب المقدس كان يعتبر مصدر تشكٍّ دائم لسكان مكّة، حتى أنك تسمعهم يومياً يتشكون من وجود المسحيين في جدّة، معتبرين ذلك من السّوء بمكان. لذلك لم أتردّد في القول، حتى إن كان رأيي هذا يعتبر غير ناضج، بأنه إن صادف ووقعت أيّة فتنة سياسية أو طائفية في الحجاز، سيكون من أول نتائجها إعمال السّيف في رقاب الأوروپيين في جدّة. وبالنسبة لي كنصراني على أرض الحجاز، تعتبر مكّة أكثر أماناً من جدّة في ذلك الوقت. وفي حال تم افتضاح أمري بواسطة السّلطات في مكّة، فلربما كانت آخرتي التّرحيل ذليلاً، كأيّ إنكليزي يرافق الحجّاج عام 1876. ولكن في حال وقوع انتفاضة في جدّة، فلن يكون لي موطئ قدم بعد ذلك.

أعلـم بأنه من السّـهولة الوصول إلى السّـفينة الحربية عبر الموانـئ، إلا أن الإنكليز كثيـراً مـا يتجاهلون ذلك الخطـر المحدق، بالرغم مـن اغتيال قنصلنـا كل عام، وقتل رعايانا بسبب عدم اتخاذ الاحتياطات اللازمة في الوقت المناسب.

كم كان سهلاً لأحد المتطرفين أن يغتال شريف مكّة، في الرّابع عشر من مارس عام ألف وثمانمئة وثمانين، بعد سـنتين ونيّف على رؤيتي له في عرفات، وذلك حين غدر به ويده بيد القنصل البريطاني تتصافحان، معملاً سكينه بصاحبه.

لا أعتقـد بأن القنصل في جدّة، بالرّغم من تمتعه بذلك القرب من مسـرح الحدث، ووجـود العديد مـن عيونه وجواسيسـه الموثوقين، قـد حصل علـى معلومة صحيحة واحدة تتعلق بما يحصل في الداخل.

كانت تصلنا بين الحين والآخر مقالات وهمية صغيرة في إحدى الصّحف اليومية، من الواضح أنها كتبت بواسطة أحد مروجي الإشاعات، تلمح إلى حركة سياسية مهمة وكبيـرة، فـي المدينة التي كانت ربما من أكثر المدن التي تتمتع بالنفوذ الإسـلامي. في تلـك الأيـام التي كانت تشـهد ثورة في الاتصـالات علـى الصّعيد العالمي، وانتشـاراً سـريعاً للأخبـار التي لا أهمّية لها، من وإلـى أكثر الأصقاع بعداً فـي أرجاء المعمورة، يظهر كم كانت الأمور في الحجاز تجري بمعزل عن علم العالم المسـيحي. فمن كان يعلم مقدار المؤامرات والمشاريع الخطيرة التي كانت ذيولها تحاك الآن في مكّة، تلك المدينة التي تعتبر بؤرة ومرتعاً للتّحامل؟ ومن جانبي فقد كنت أعتقد بأن المسـيحيين في جدّة يجلسون على صمّام أمان الحجاز، وعاجلاً أم آجلاً سينفجر ذلك الصّمّام.

الـذي يجـب أن يخشـى منهم حقـاً هم العـرب وليس البـدو في الصّحـراء. فالبدو بحاجـة لدافـع قوي أو قوة كبـرى لتجمّعهم. ولا شـيء يمكنه فعل ذلـك إلا قائد كبير بعقيـدة جديـدة يبيـح غزو العالم كلـه. ونظراً لانقسـامهم وتفرقهم إلى قبائل وعشـائر فلا يوجد هناك سـبب غير اسـتثنائي يمكن أن يؤدّي إلى تجميعهم على المدى البعيد. حتـى على المسـتوى العسـكري لم يكن لديهم أسـلحة تذكر، ولا دافـع لديهم كذلك للحصول على أسـلحة متطورة. وأيّة حملات قد يشـنّونها، بصـرف النظر عن حجمها

أو مهما كانت كبيرة، فلا تعتبر عظيمة بالنسبة لأي منهم إلا في البداية ولبعض الأفراد غير المستعدين.

إن البدوي في تركيبته وشكله يشابه البنغالي، لكنه نحيل وصلب ولربما كان بوزن عشرة أحجار، بينما البنغالي بنفس الطول يزن تسعة. لقد مرّ بنا وصف عاداتهم وتقاليدهم بالإضافة إلى العديد من أزيائهم. ظاهرياً هم مسلمون على المذهب الشافعي، إلا أنهم لم يُظهروا من المراسم ما يدل على اتباعهم لذلك الدين؛ إذ أن الشعائر التي رأيتهم يؤدونها في الحَرَم المكي كانت أشبه ما تكون بالمظاهر الطقسية، من تقبيل للحجر الأسود بكل إيمان ويقين، وطواف حول الكعبة لسبعة أشواط. وأثناء الصّلاة فإن حركاتهم وسجودهم هي من الغرابة بمكان فهي لا تشبه صلاة أيّ من المذاهب الإسلامية المعتبرة. وخلال الطريق في الصّحراء لم أرهم على الإطلاق يؤدون أياً من الشعائر الدينية.

أعتقد بأن القارئ قد تأثر سلباً ممّا ذكرته سابقاً عن البدوي وشخصيته وطباعه، لكن، لا بدّ أن في شخصية البدوي الكثير مما يستحق الإعجاب: الكرم والضيافة، والصّراحة، وفوق ذلك كله، طاقته ونشاطه المتوقد، وهي الصّفات التي تميّزه عن كافة الشرقيين الآخرين. إنه لا يقدّم عذراً عن أعمال العنف والغزو التي يقترفها، ولا أيّ مبرّر ديني لها.

إنه لا يتورّع عن تقديم نفسه بكل صراحة كغازٍ وقاطع طريق، وإظهار أنفته لكل ما يمتّ للحضارة بصلة. كثيرة هي مسائل الشرف التي تجمعه مع أفراد قبيلته، وغالباً ما تكون مثيرة إلى أبعد الحدود، وليس مستغرباً في أعرافهم أن يغتال البدوي أحد أقربائه كصراع بين الأقارب، وحتى بين الأب وابنه، حتى يتم الثأر لذلك الدم. وبسبب ثقافة الثأر تلك ترى الواحد منهم متحفظاً في قتل عدوه؛ وعلاوة على ذلك، كما في كل المجتمعات البدائية التي لا يملك فيها الإنسان شيئاً ليخسره سوى روحه، تراهم لا يفرّطون بتلك الرّوح كما هو مفترض أن يفعلوا.

والبدوي في طبعه، فضلاً عن كونه إنساناً شجاعاً، فهو يجمع إلى ذلك أيضاً الحكمة

والأنـاة والرّويّـة. ففـي أوقـات الحرب يحسـب كل شـيء بدقـة، وباسـتثناء الظروف القاهـرة، فإنـه لا يعرّض نفسـه على الإطلاق للمخاطر التي لا داعـي لها. وبالرغم من استلال السّيوف من أغمادها لمجرّد كلمة، فإن الجروح التي تتسبّب بها عادة ما تكون سـطحية، حيث توجه السّـيوف نحو الأطراف فقط، وقلة من البدو هم الذين لم يسـبق لهم التعرض لندوب وآثار ضربات سيوف سوداء طويلة. وعند التعرّض لضربة سيف، يتم وضع بارود الأسلحة على الجرح وفركه عليه، مما يؤدي إلى صبغه باللون الأسود وبقائه لمدى الحياة.

كانت الأسلحة الشائعة لدى العرب هي البندقية والحربة والسّيف.

أما البنادق فكانت من النوع الذي يتم إشعال باروده بالكبريت، ذات أعقاب قصيرة، لا تزيد عن قدم، ومقبض يمتدّ على طول الماسـورة. النوع المرغوب من تلك البنادق هو الذي يزيد طول ماسورته عن خمسة أقدام، ومعدنها ثقيل للغاية تصل سماكته عند الفوهة والمؤخرة إلى نصف إنش في الحالات التي يتم فيها تصفيح الماسورة بحلقات معدنية. ونظراً لطول ماسورتها الكبير وسماكة المعدن التي تسمح باستخدام نوع ثقيل مـن البارود، بقليـل من الاهتزاز، يتم اسـتخدام ذلـك النوع من البنـادق لرمي طلقات كروية إلى مسـافات بعيدة وبدقة جيدة؛ لكن الوضع كان بدائياً للغاية، حتى أن البدوي ببندقيته التي اعتاد عليها تماماً يستغرق حوالي الدقيقة والنصف ليصيب هدفاً ثابتاً.

لقـد بلغنـي أنهم قد صوّبوا عـدة طلقات ناجحـة عندما كانوا يوقـدون النار، ولكن بالرّغـم من أنـي قد رأيت عدداً مـن الصّيادين المشـهورين وهم يتمرّنـون على الصّيد لمسـافات قريبة، لم تكن تمارينهم إلا عبارة عن محاولات فاشـلة. كان المشايخ أيضاً يحملون المسدسات التي كانت مصنوعة على الغالب من قدّاحات الصّوّان والفولاذ، ومعظمهـا من الصّناعة الأوروبية. شـاهدت مرة زوجاً من المسدسـات الفضية الأنيقة على حزام أحد المشـايخ، وقد نقش عليهما اسـم صاحبهما السّابق على صفيحة فضية في المقبض ألا وهو «ر. ويليامز، 1808». ولو قدّر لهما أن يرويا قصة حياتهما أستطيع القـول بـأن لديهما الكثير من القصص الغريبة التي يمكـن أن يروياها عن الأيام الغابرة

والمغامرات التي مرّا بها، لينتهي بهما المطاف أخيراً حيث هما.

بالنسبة للحراب التي يكثر استخدامها بين العرب فهي على نوعين: النوع الطويل، الذي يتجاوز الاثني عشر قدماً، وتستخدم عند امتطاء الفرس. تتم صناعة قضبانها من ذكر الخيزران الهندي، ويتم تزيينها بخصلة أو خصلتين من ريش النعام تحت رأس الحربة. أما النوع القصير فيستخدم بواسطة المشاة، وهو عبارة عن سلاح من أفضل ما رأيت بين البدو. لا تتجاوز تلك الحربة عادة الثمانية أقدام طولاً، ولقد رأيت بعضاً منها بنصف ذلك الطول. وهي تتكوّن من ثلاثة أجزاء متساوية طولاً. نهايتها من حديد، ووسطها عبارة عن قضيب مدور من الخشب الصّلب، بسماكة إبهام رجل؛ والنصلة عبارة عن أربعة أطراف أحدها أكثر تسطيحاً من البقية، وطرفها العريض لا يتجاوز النصف إنش، ثم تستدق تدريجياً بعد قدمين وصولاً إلى رأسها المستدق. أما طرفها الحديدي فهو بنفس طول النصلة، حوالي ثلث طول الحربة كلها، لكنه يتخذ شكلاً مدوراً دون أن يكون بنفس الدقة أو التدرج نحو الحدّة، حيث يستخدم ذلك الطرف فقط لغرز الحربة ووقوفها في الرّمل. وعند الاستخدام يمسك الرّامي بالحربة بشكل مستقيم تقريباً، ثم يرمي بها، كما رأيت مرة، بمنتهى القوة والدقة إلى ثلاثين قدماً.

أما السّيف فنادراً ما يتجاوز القدمين طولاً، وهو أكثر انحناءً وحدة من كلا جانبيه، يتمتع برأس مدبّب. عادة ما يتم حمل السّيف على طول الجسم، في الجهة الأمامية من الحزام بحيث يكون المقبض إلى اليسار. وبعض المشايخ الموسرين يحملون على جنوبهم السّيف الفارسي المشهور. خلال إقامتي كلها في الحجاز لم أرَ إلا القليل القليل من وجوه النساء. وفي المرّات الثلاث التي التقيت فيها بنساء حسناوات سجّلت في ذاكرتي كافة الظروف المحيطة آنذاك. وبالرغم من وجود القليل فقط من الوجوه الجميلة بين الصّبايا، فسرعان ما يبلغن السّن والكبر. والعجائز الشمطاوات القبيحات فقط هن من يتكشفن على الغرباء.

تكاد صادرات الحجاز تُعدّ على الأصابع، وأعتقد أن القائمة التالية تختصر جميعها:

الكحل، وهو المسحوق الأسود الذي يوضع على العينين كمسحوق تجميل

يضفي عليهما مسحة من السّواد الجميل. وهو أحد المكونات الرّئيسيّة لعدة تجميل النساء، لكنه كثيراً ما يستخدم لإضفاء التأثير على عيون الفاسقين من متناولي الأفيون، أو لزيادة لمعان عيون المتأنقين من الشبان. والحنّة، وهي الصّباغ القرمزي الذي تستخدمه النساء لصبغ أظافرهن باللون الزهري، وأحياناً تستخدمه النساء الهنديات لصبغ أيديهن وأقدامهن بالأحمر الفاقع. مع ذلك فهذا التقليد لا يقتصر على النساء فحسب. هذا بالإضافة إلى جلود الحيوانات والتمور وماء زمزم، بلسم مكّة - المعروف عالمياً - والذهب، والأحجار الثمينة، وبعض التعويذات والرقى، ولا أعلم منتجات أخرى تصدرها البلاد غير ذلك.



الفصل الرّابع عشر
الحجّاج في سفن إنكليزية

في رأي الحجّاج الهنود فإن مرحلة السّفر في البحر كانت أصعب مرحلة في رحلة الحجّ تلك. ففضلاً عن الدّوار والتعب العاديين اللذين يصادفهما سكان اليابسة عند خروجهم في رحلة بحرية، فقد تجمعوا سوياً بالمئات على سطح السّفينة الصّغيرة الرّطب المتسخ، ولم يتلقوا من الرّعاية ما يتلقاه قطيع غنم في مثل تلك الظروف، من المفترض أن يتم تزويدهم بالمياه والحطب للتدفئة، وما عدا ذلك فقد تولّوا هم شؤون الإمدادات الأخرى. لقد كانوا مكتظين إلى درجة أني رأيت الضعفاء والنساء منهم يتساقطون أرضاً من دوار البحر، بعد سفرهم لثلاثة أيام دون مياه، وما ذلك إلا لتسلّط الأقوياء منهم، وإهمال المسؤولين عن توزيع المياه بالتساوي.

لقد شعرت بالأسف إذ رأيت رجالاً بين إخوتي من البحارة في الشرق ممّن كانوا يهدّدون السّكان المحليين، من الذين لديهم بعض السّلطة عليهم بكثير من الوحشية والغلظة والجلافة، كما لو أنهم كانوا يفتقدون الجرأة لإظهار شجاعتهم تجاه أبناء جلدتهم. وقد شاهدت بأمّ عيني أحد الرّفقاء في السّفينة يرفس امرأة في فمها بينما كانت منحنية تقبل قدميه. وكل ذلك لأنها أضاعت تذكرتها التي يبلغ ثمنها عشر روبيات. غلى الدّم في عروقي الثائرة عندما سمعت ذلك الجبان الحقير يسبّ ويلعن تلك البائسة المرتعدة بصوت يفوق صوت القطار عندما يعبر فوق جسر.

فإذا كان ذلك هو الحال مع الضباط فما الذي سيفعله البحارة، بالتأكيد فإنهم سيحذون حذوهم. حتى أولئك العمّال الذين يوقدون الفحم في المرجل والذين لم

تكـن ذخيرتهـم من اللغة تتسع لأكثر من بضع جمل متكسـرة من تلـك اللغة الهمجية الهجينة التي يتحدثها البحارة المحليون العاملون على السّـفن الإنكليزية والمسـتمدة مـن البرتغاليـة والهندية، فقد كانوا يلقون بكل حماقة بما يعرفونه من الشـتائم المحلية على كل مسافر بائس عديم الحيلة قد تسوقه الأقدار ليقع في مصيدة تفوقهم وسموهم وذكائهم.

جلسـت في إحدى الغرف التي أمكنني أن أسـمع فيها رجالاً من الإنكليز يتحدّثون بفـرح صاخـب كيف أن أمواج البحر هاجت وسـحبت معها اثني عشـر حاجاً من على سـطح السّـفينة كما أنها جرفت معظم ممتلـكات من تبقى منهم على السّـطح، وكيف نفدت كافة مؤنهم، وقد أبقاهم القبطان دون أي طعام حتى أنهم شرعوا بإنهاء معاناتهم وبؤسـهم برمي أنفسـهم في البحر، وعندها فقط قام القبطـان بإعطائهم بضعة دلاء من حبوب الفاصولياء من حمولة السّفينة.

تحـدث هذه الأمور في كل عام تحت الرّايـة الإنكليزية، وأعتقد أن بعض إجراءاتنا لمنع مصادر تجارة الرّقيق قد أصبحت مجرّد اعتداء على الإنسانية أكثر من كونها تمنح أيّة مزايا[1].

لا أقصـد القـول أن الممارسـات الوحشـية ضـد الحجّـاج كانت تمـارس كقاعدة عامّة على السّـفن، بل كانت سـوء المعاملة وجمع البشـر في أمكنة ضيقة أكثر شـيوعاً مـا كان يسـتدعي إجـراء رقابة رسـمية أكثر صرامـة. وكذلك فقد ظهر الكثير من سـوء الإدارة على أجزاء من السّـفن المسـتأجرة ووكلاء سفن الحجّاج، مما سبب الكثير من المعانـاة للركّاب المحليين، ولا يتحمّل أصحاب السّـفن أي لـوم على ذلك بأي حال من الأحوال. أذكر لكم إحدى الرّوايات التي تناهت إلى علمي، وهي واقعة لن تتسبب

(1) من الجيّد أن كين يعترف بغلظة ووحشيّة بني جلدته في تعاملهم مع الشرقيين، فلا يظنّ القارئ بعدها أن أهل المشرق يختصون دون الأوروبيين بالنقائص. وإن كان في نصّه هذا قد ذكر بعض المثالب التي لم ترُق له في الشرق، فقد ذكر أيضاً مزايا ومحاسن جمّة لمسها بنفسه في رحلته هذه.

فـي أي رقابـة أو حظر علـيّ، إذ أنني أعتقد أنه لا يوجد أحد يمكـن إلقاء اللوم عليه في وقوعها، فضلاً عن أنها تنعكس بالفضل إلى أبناء بلدي.

حدث ذلك على السّـفينة التي كنت أسـتقلّها متجهاً من جدّة إلى بومباي في الرّحلة السّـابقة مباشـرة. كانت مخصصة لرحلات الحجّاج فقط، ولـم تحمل أيّة بضائع على متنهـا. بعدما نزل ركابها المحليـون القادمون من بومباي في جدّة، وقبل بضعة أيام من حلـول الحـجّ الأكبر إلى عرفات، عادت السّـفينة إلى الميناء للقيام برحلة مباشـرة إلى السّويس قبل العودة إلى بومباي. وفي العادة كانت السّفينة ستقضي هذا الوقت منتظرة في جدّة إلى أن يتم تأمين كامل الرّكاب للعودة إلى الهند.

كان عدد الحجّاج الذين ركبوا من جدّة للذهاب في رحلة السّويس لا يتجاوز المئة شخص وهو عدد لا يكفي لشراء ثمن الفحم، مع العلم أنهم كانوا من العرب من أجزاء مختلفـة من شـمال أفريقيا وهم الفئة الأكثر سـوءاً وإثارة للمشـاكل على الإطلاق بين الحجّاج الذين يمكن أن يجتمعوا في مكان واحد.

كانـت الفئـات الأدنـى بينهم مـن أردأ الناس الذين أعرفهم حسـب ظني، باسـتثناء بعـض قبائل القطب الشـمالي، فلم تكن تنقصهـم الجرأة والتحدّي إلى حـدّ بعيد كما أن لديهم قوة جسـدية تعادل إن لم تكن تتجـاوز أياً من الأوروبيين، وكان أكثر الرّجال منهم يمتلكون بنية عضلية نامية ممتازة. في الطريق إلى السّـويس انتشرت الحصبة بين أفراد طاقم السّـفينة وبالتالي فلم يسـمح لأيّ من ركابها من الحجّاج بالنزول في نهاية رحلتهـم، وبعـد المبيـت أربعة أيام علـى الطرقات ودفـن أربعة من بحارتهـا في قطعة أرض نائية في الجهة المقابلة للميناء في بلدة صغيرة، أمرت السّلطات المصرية بإنزال حمولتها عند هضبة حجرية، في مرسـى صغير على شواطئ سيناء في خليج السّويس، وخضعـت للحجر الصّحي أربعين يوماً.عندما كانت السّـفينة في السّـويس لم يُسـمح لأي مـن ركابهـا بإجراء أيّ اتصال مع الشـاطىء، وبعد رحيلهم سـمح لهم بترك رجل مريـض خلفهـم وقد توفي كما علمنا لاحقاً في السّـويس نتيجـة الحصبة، ولم تحدث حالات وفيات أخرى على متن السّفينة وترك الوباء السّفينة فجأة كما ظهر فجأة.

عندما وصل الحجّاج إلى وجهتهم الجديدة وعلموا أن ذلك هو مصيرهم وقدرهم امتلأوا حنقاً وغضباً، فضلاً عن أن أسلحتهم نُزعت منهم عندما كانوا على متن السّفينة وكان عددهم قليلاً يتجاوز ضعفي رجال السّفينة بقليل، وبالتالي فقد ساد شعور بأنهم لا يشكلون أي قلق وأن السّيطرة عليهم ستتم دون صعوبة.

مرت الأمور في البداية بيسر وسهولة، ولكن بعد مرور بضعة أيام اكتشف الحجّاج أنه برغم التوفير والتقتير الذي قاموا به، فإن مواردهم سرعان ما ستنفد. كان كل ما حملوه معهم قليلاً من الطعام يكاد يكفيهم لرحلة قصيرة، ولم يستطيعوا أن يحملوا أياً من المؤن في المكان الذي كانوا فيه الآن، ولم يروا أي شخص حولهم طوال الفترة التي رست فيها السّفينة، كما لم تقدّم لهم البلد أي شيء إلا أحجاراً صماء ساخنة وجبالاً جرداء مقيتة. وقد عُرضت عليهم حصة يومية من الخبز المعدّ في السّفينة لكل شخص منهم، لكن ذلك كان طعاماً نصرانياً وهم يفضلون الموت كما قالوا على تناول لقمة منه.

مع مرور الوقت عضّهم الجوع وأصبحوا أكثر عصبية وأمسى سلوكهم أكثر صخباً وضجيجاً، ولم يمضِ وقت طويل حتى بدؤوا بالتمرّد والعصيان. ولعلمهم أن رجال السّفينة كانوا غير قادرين على فهمهم، فقد كان الرّجال الكبار في السّن يقفون وسط الحشود ويشرعون في إلقاء خطب حماسية. كان من الواضح أنهم يتدارسون القيام بإجراءات شديدة، وفي الليل اجتمعوا في مجموعات صغيرة غاضبة ليناقشوا وضعهم وموقفهم بنبرة لا تخلو من الحسم والتهديد.

مع مرور الوقت وبعد أن عضّهم الجوع بدا أنهم قد اتفقوا على أنهم إذا استطاعوا الحصول على الطعام النّصراني من خلال الغصب والغلبة فإنهم عند ذلك فقط سيتمكنون من تناوله، وبأنهم لن يقبلوا بأي حال تقديمه لهم على سبيل الهدية. كانوا في البداية يراقبون الطاهي، وبمجرّد أن كان يدير ظهره كانوا يختلسون شيئاً من الأشياء الموجودة هناك. كانوا يراقبون البحارة فما إن يتركوا غلايينهم حتى كانوا يقومون باغتنامها. مع الوقت زادت جراءتهم، حيث وجد أحد البرابرة الأشداء ولداً يدخن

وحيداً فما كان منهم إلا أن انتزع منه الغليون بالقوة.

وهكذا فإنهم لم يتركوا أي فرصة ولم يوفروا أي مناسبة لتوجيه الإهانات إلى بحارة وضباط السّفينة، وأصبح انتزاع الغليون من أفواههم أمراً شائعاً تماماً؛ لكن مع إصدار القبطان أوامره لتحمّلهم وعدم الإساءة إليهم قدر الإمكان، فقد تصل الأمور إلى ذروتها في أي وقت. بطبيعة الحال تم إعداد الأسلحة مبكراً وتسارعت وتيرة التحضيرات على قدم وساق لمواجهة أي تحرك خطير من جانب العرب. وفي أحد الأيام اندفع الحشد نحو مطبخ السّفينة وذلك في الوقت الذي كان فيه طعام الغداء يجهز ليتم إرساله إلى مؤخر السّفينة وقاموا بطرد الطاهي وشرعوا بالتهام كل شيء صادفوه، ولم يتركوا أي شيء يؤكل في طريقهم، حتى أنهم أخذوا أطباق البحارة من بين أيديهم عندما كانوا يحملونها على السّطح، وهكذا كان المطبخ يُنهب عند كل وجبة، وباختصار فقد أصبحت لهم اليد الطولى في السّفينة.

كان ذلك أمراً يفوق الاحتمال وكان يتعين إفهامهم بأنهم تجاوزوا الحدود، وبالتالي فقد تمّ الإعداد لإجراءات خطة الدفاع والهجوم التي جهزها القبطان وبدأوا يتراكضون من مؤخر السّفينة حتى وسطها متسلقين السّلالم التي كان يمكن إنزالها ورفعها وعابرين الممرات الخشبية المؤدية إلى المنصة. على هذه المنصة عند منتصف السّفينة تم وضع حارسين مسلحين وأعطيت لهما الأوامر بعدم السّماح لأي من الركّاب بالوصول إلى هناك. وقد كان ثمة طريقان آخران فوق مؤخر السّفينة من السّطح الرّئيسي، وكان في مؤخر السّفينة بابان متينان على كل من جانبي السّطح يمكن إغلاقهما. وضع داخل هذه الأبواب رشاشا السّفينة وقد تم تجهيزهما بالذخائر وبسلاسل طويلة من الرّصاص، وتم توجيه هذين الرّشاشين نحو الأبواب التي يمكن فتحها على مصراعيها لبرهة.

عجّ سطح السّفينة بالحركة ذهاباً وإياباً من كلا الجانبين مع إطلاق الرّصاص بصورة رهيبة، وسرعان ما تم إغلاق الأبواب أمام الرّشاشات. جمعت في مؤخرة السّفينة كافة الأسلحة والذخائر وكانت اثنتي عشرة بندقية وستة مسدسات وست حراب والعديد

من المبارد المسنونة والحبال المربوطة بمسامير، وسكاكين، مع عزيمة قوية لمواجهة الرّكاب بتشكيلة من أسلحتهم ذاتها. أما الاعتماد الأكبر فكان على خراطيم المياه السّاخنة التي يمكن بواسطتها رش كمية من المياه المغلية حتى طول نصف السّفينة.

مع ذلك كان القبطان متردّداً في إظهار ما لديه من قوة، وبُذلت جهود كبيرة لإقناع الرّكاب بتناول البسكويت النّصراني ودياً ودون مشاكل، إلا أنهم رفضوا وقاموا بتصعيد الأمور، فعندما كان أحد الأولاد ذاهباً إلى القمرة حاملاً معه طبقاً من الكاري الحار قام اثنان من الرّكاب بمهاجمته وحاولوا خطف الطبق منه فما كان منه إلا أن رمى بالطبق عليهما. عندما أمسكا بذلك الولد عاملاه بقسوة شديدة وسرعان ما قدم القبطان ومعه مجموعة من أفراد الطاقم لإنقاذه من بين أيديهم. تجمع المزيد من الرّكاب والمزيد من البحارة حولهم، وكان النزاع وشيكاً. تلقى القبطان ضربة قوية، وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير، فما كان منه إلا ذهب إلى منصة السّفينة وقام بإطلاق ثلاث صفارات حادة من الصّافرة البخارية. وتلك كانت الإشارة ليتجمع كافة أفراد الطاقم في مؤخرة السّفينة ليأخذ كل منهم الموقع الذي تم تخصيصه من أجله.

بمجرّد أن وصل القبطان ومعه اثنان من الحراس إلى مؤخر السّفينة من المنصة الموجودة في منتصف السّفينة، تم رفع الممرات الخشبية المؤدية إلى مقدمة السّفينة ومؤخرتها. وفي ربع دقيقة كان كل الرّجال البيض الموجودين في السّفينة قد احتلوا مواقعهم. وكذلك كان الرّكاب الذين فعلوا مثل ذلك، وبسرعة مماثلة تجهزوا لخوض المعركة، لكن لم يكن هناك أي طريق تؤدي إلى مؤخر السّفينة، ما لم يقوموا بالتسلق نحو المقدمة أمام أعين الطاقم. في بادئ الأمر اقتنعوا بتوجيه إشارات مستفزة بتحدٍّ واستخفاف ظاهر، وقام أحد الشباب المتميزين بالقفز نحو المقدمة ودعا الآخرين لكي يحذوا حذوه.

لقد قام فعلاً بقفزة طويلة من المنصة وأمسك بسكة مؤخر السّفينة، وفي لحظة كان مسدس القبطان موجهاً إلى صدره. نظر إلى الخلف ورأى التردّد في عيون الرّجال الذين خلفه، فما كان منه إلا أن أطلق نظرة غاضبة متحدّية إلى القبطان وقام بحركة

مفاجئة بتمزيق قميصه بتحدٍ مواجهاً المسدس الذي انحشر في صدره العاري، ومن المؤكد أن يد القبطان كانت شديدة الثبات وإلا فإن الرّصاصة كانت ستنطلق حتماً. في تلك اللحظة بالذات وصل ضابط عجوز (وهو الرّجل الذي روى لي القصة بصورة أفضل من الجميع) من خلف كتف القبطان وسدّد ضربة عاجلة إلى رأس الفتى الشجاع من قضيب حديدي لفه بحبل.

في هذه الأثناء حاول البحارة رش المياه السّاخنة من الخرطوم لكن الأنابيب كانت باردة في البداية، وبالتالي قاموا بوضع الخرطوم على السّطح لدقيقة إلى أن تصل المياه المغلية مباشرة من المرجل إلى فوهته، وعندما رأوا أنه قد أصبح شديد الحرارة تم قطع المياه وتوجيه الفوهة نحو الرّكاب. قام البحّار الذي كلف بهذه العملية، ربما بدافع من حب الأذى أو بصورة غير متعمّدة، بتوجيه المياه المغلية بشكل غمامة فوارة على الحشد المتجمع فوق سطح السّفينة، وكانت النتيجة عجائبية.

عندما اكتشف الرّكاب ذلك السّلاح القاتل الموجود بين أيدي المسيحيين، فضلوا الاستسلام على أن يتم سلقهم أحياء، وقد قاموا بذلك فوراً ودون أي شروط. وخلال ساعتين تم إنزالهم جميعاً على جزيرة صغيرة قريبة، بعد أن زوّدوهم بأشرعة لصنع الخيام والأغطية مع برميل ضخم مملوء بالخبز وبكمية من المياه قدر ما يمكنهم استهلاكه. لقد شعروا بسعادة عظيمة لحصولهم على تلك المواد قبل أن يرحلوا، وهكذا عاشوا بسلام وهدوء فيما بينهم ولم يتسببوا بأي مشاكل حتى هبطوا في السّويس حيث كلفت الحكومة المصرية فرقة مسلحة بمرافقتهم حتى خروجهم من البلاد.

* * *

ملاحظة

(From *The Athenaeum* في 23 يوليو)

الحاج إلى مكّة

.Godalming, July 19, 1881

كنتُ قد رجعت لتوي من الولايات المتحدة ولاحظت وجود بعض الشكوك التي أثيرت حول صحة البيانات الواردة في كتابي «ستة أشهر في مكّة» وكلها تتعلق بقدرتي على أداء الحجّ وكذلك فيما يخص قصة السّيدة الإنكليزية التي التقيتها في مكّة، وأودّ هنا أن أوضح بأنني ابن القسيس وليام كين الذي احتل لسنوات عديدة منصب كبير الكهنة المرتلين في الكاتدرائية في كالكُتا، وربما كان أحد أفضل المتحدثين باللهجات المحلية الموجودة في الهند، وقد أمضيتُ سبع سنوات من عمري بين المسلمين، وفي أحد الأوقات خدمت كضابط على متن سفينة لمدة ثلاث سنوات التي تحمل طاقماً من المسلمين، وهكذا فإن خبراتي الأخيرة تعتبر أكثر من كافية لمنحي المعرفة العميقة والدقيقة بلغتهم وعاداتهم.

لم يكن حجّي إلى مكّة مجرّد تجربة متسرعة أو على سبيل الصّدفة، بل جاء حصيلة مشروع مدروس طويل الأجل، وها هي ذي بين يدي رسالة خاصة مرسلة إلي من السّيدة الإنكليزية التي التقيتُها في مكّة، الأمر الذي يثبت بشكل قاطع بأن تصريحاتي وبياناتي التي ذكرتها في كتابي «ستة أشهر في مكّة» على الأقل حسبما يتعلق بتلك السّيدة كان حقيقة واقعة.

أتمنى أن ترضي بياناتي أولئك الذين قرأوا كتابي وأن تقنعهم بأنني قمت بالحجّ إلى مكّة.

كما أن ناشري كتابي هم الآن بصدد إصدار تسجيل لرحلتي من مكّة إلى المدينة التي سأل الكثير من قراء كتابي «ستة أشهر في مكّة» عنها.

جي. إف كين (الحاج محمّد أمين)

* * *

بالإشارة إلى «الليدي ڤينوس» التي ذُكرت بشكل عرضي كثيراً أثناء سرد وصف حياتي في مكّة، فإنني أجد لزاماً علي أن أضيف بعض الملاحظات بخصوصها:

إن اسم «الليدي ڤينوس» ليس اسماً خيالياً بل هو ترجمة حرفية «للأميرة زُهرة» الاسم الذي كانت تُعرف به في مكّة. وأثناء كافة الاستفسارات التي قامت بها الحكومة للتأكد من صحة أقوالي وتصريحاتي بخصوصها، وقد كانت شديدة التكتم بما يخص ما حدث في ماضيها، فقد اعترفت بأنها إنكليزية، وبالتالي تمّ الكشف بشيء من التأكيد عن هوية تلك السّيدة في الحقيقة.

إنها تعيش الآن في الهند، وقد عبّرت عن رغبتها بأن تُترك على راحتها دون إزعاج في ذاك البلد لتقضي فترة تقاعدها حالياً في غياهب غموض موطنها المحلي.

لقد بُذلت محاولات وإغراءات عديدة لثنيها عن قرارها وإعادتها إلى المسيحية، لكنها حافظت على موقفها المتصلّب، وبالتالي فلا يمكن فعل أي شيء لها، وفي الحقيقة لا يمكنني أن أزيد من شهرة قصتها أو أن أكشف عن أي شيء آخر يتعلق بها.

– النهاية –

المحتويات



ستة أشهر في الحجاز

جون فراير توماس كين رحّالة ومغامر إيرلندي، انطلق في أسفار بحريّة ولم يكن له من العمر إلا 23 عاماً، فنال من المغامرات نصيباً كبيراً، ثم زار مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة بين عامي 1878-1877 فكان واحداً من الأوروبيين القلائل الذين رأوهما آنذاك. ذكر أنه تاق مراراً إلى السّفر إليهما بعدما خدَم على متن سفن تحمل طاقماً مسلماً، فاستطاع أن يلتحق بحاشية أمير هندي أتى لأداء الحجّ. بقي كين في مكّة المكرّمة لمدة ستة أسابيع، شعر فيها كأنه في بلده تماماً كما لو أنه عاش هناك طوال حياته. ثم توجّه إلى المدينة المنوّرة، وعندما شاهدها قارنها بالقسطنطينيّة بجمالها ورونقها، وأطنب في وصفها وأعجب بها أيّما إعجاب.

أمّا لغة الكتاب فشائقة ممتعة من حيث الرّواية الشخصيّة والتفاعل الحيّ مع المجريات، وقد أمتعنا كين بوصفه الحيّ وقصصه الطريفة وتهكّماته اللاذعة لرفاق دربه من المحاربين الثاني والثالث إلى شيخ البؤسِن كما يسمّيه، وتعاطي صَحبه الهنود للأفيون، ثم حكايته المثيرة عن الليدي فينوس ماكنتوش، السيدة البريطانيّة الغامضة التي صادفها بمكّة المكرّمة، ولم يتمكن من فهم ظروف حياتها ورفضها للعودة إلى موطنها الأصلي بريطانيا.

السعر 50 درهماً





